فيكتور هيجو

البؤساء

ترجمة

صبحي سلامة

الكتاب: البؤساء (رواية)

الكاتب: فيكتور هيجو

ترجمة: صبحي سلامة

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥



فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

هيجو ، فيكتور

البؤساء (رواية)/ فيكتور هيجو ، ترجمة: صبحي سلامة
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٩٥ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٥ – ٦٠ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٧٣١ / ٢٠٢٠

البؤساء





من هو فيكتور هوجو ؟

هو أديب وشاعر فرنسي، من أبرز أدباء فرنسا في الحقبة الرومانسية، تُرجمت أعماله إلى أغلب اللغات المنطوقة، وثّر فيكتور هوجو في العصر الفرنسي الذي عاش فيه وقال "أنا الذي ألبست الأدب الفرنسي القبعة الحمراء" أي قبعة الجمال. ولد في بيزانسون بمنطقة الدانوب شرقي فرنسا، عاش في المنفى خمسة عشر عاماً، خلال حكم نابليون الثالث، من عام ١٨٥٥ حتى عام ١٨٧٠م، أسس ثم أصبح رئيساً فخرياً لجمعية الأدباء والفنانين العالمية عام ١٨٧٨م، وتوفي في باريس في ٢٢ مايو ١٨٨٥م.

كان والده ضابطاً في الجيش الفرنسي برتبة جنرال، وتلقى فيكتور هوجو تعليمه في باريس وفي مدريد في إسبانيا، وكتب أول مسرحية له "وكانت من نوع المأساة" وهو في سن الرابعة عشرة من عُمره، وحين بلغ سن العشرين نشر أول ديوان من دواوين شعره، ثُم نشر أول رواية أدبية، وكان يتحدث عن طفولته كثيرا قائلاً: "قضيت طفولتي مشدود الوثاق إلي الكتب"... والحرية هي أيضاً من أهم الجوانب في حياة كاتب "أحدب نوتردام" الشهير، فهي الكلمة التي تتكرر كثيراً بالنسبة لهوجو: "إذا حدث وأعقت مجرى الدم في شريان فستكون النتيجة أن يُصاب الإنسان بالمرض"، وإذا أعقت مجرى الماء في نهر فالنتيجة هي الفيضان، وإذا أعقت الطريق أمام المُستقبل فالنتيجة هي الثورة" وكان

يرى في نفسه صاحب رسالة، كقائد للجماهير، قائد لا بالسيف أو المدفع وإنما بالكلمة والفكرة؛ فهو أقرب إلى زعيم روحي للنفس البشرية أو صاحب رسالة إنسانية فضلاً عن كونه عضوا بمجلس الشيوخ الفرنسي، وعضو بالجمعية الوطنية الفرنسية.

مثّل هوجو الرومانسية الفرنسية بنظرته المفتوحة على التغيرات الاجتماعية مثل نشوء البروليتاريا الجديدة في المدن وظهور قراء من طبقة وسطى والثورة الصناعية والحاجة إلى إصلاحات اجتماعية، فدفعته هذه التغيرات إلى التحول من نائب محافظ بالبرلمان الفرنسي مؤيد للملكية إلى مُفكر اشتراكي ونموذج للسياسي الاشتراكي الذي سيجيء في القرن العشرين، بل أصبح رمزاً للتمرد على الأوضاع القائمة، ثُم نشر أكثر من خمسين رواية ومسرحيات لفيكتور هوجو خلال حياته، من أهم أعماله: أحدب نوتردام، البؤساء، رجل نبيل، عُمال البحر، وآخر يوم في حياة رجل محكوم عليه بالإعدام.

في مجال المسرح عرض نظرية الدراما الرومانسية في مُقدمة مسرحيته "كروموبل" عام ١٨٢٧م، وعرضت هذه النظرية أساساً في "هرناني" عام ١٨٣٠م و"ري بلاس" عام ١٨٣٨ م، ولقد ساهم هوجو في تجديد الشعر والمسرح وقد أعجب هذا التجديد مُعاصريه ولم يعجب بعض المُحدثين الآخرين، ولقد جعلت اختيارات هوجو الأخلاقية والسياسية أثناء النصف الثاني من حياته وأعماله الفريدة من نوعها من هوجو شخصية رمزية كرمتها الجمهورية الفرنسية الثالثة بعد الوفاة في ٢٢

مايو ١٨٨٥م بجنازة شعبية التي اصطحبت تحويل جثمانه لمقبرة العظماء بباريس في ٣١ مايو ١٨٨٥ م.

في عام ١٨٢٧ نشر مسرحيته التاريخية "كرومويل" التي استقبلت بحماس شديد وحققت نجاحاً في الأوساط الفنية والأدبية، وفي عام ١٨٣١م نشرت مسرحيته "هرناني" ونشرت روايته الأدبية "أحدب نوتردام" التي أثارت الإعجاب وتُرجمت إلى العديد من لغات العالم، وفي نفس العام تم تنصيبه إماماً للكتاب والأدباء الرومانسيين، وفي عام ١٨٦٢م نُشرت أروع وأعظم رواياته الأدبية وهي رواية "البؤساء"، ونُشرت بعد ذلك رواية "الرجل الضاحك"، وفي عام ١٨٧٦م اختير عضواً في مجلس الشيوخ الفرنسي، وفي عام ١٨٤٩م نُشرت روايته الأدبية "آخر يوم لسجين"، وكان يصف الشرق بقوله: "الشرق عالم ساحر مُشرق وهو جنة الدنيا، وهو الربيع الدائم مغموراً بوروده، وهو الجنة الضاحكة، وإن الله وهب أرضه زهوراً أكثر من سواها، وملأ سماءه نجوماً أغزر، وبث في بحاره لآلئ أوفر".

من أبرز أعماله ما يلي: . أحدب نوتردام . البؤساء . ملائكة بين اللهب.

المترجم



الفصل الأول

الأسقف

لا يعلم الناس من أمر الأب شارل فرانسوا ميريل أسقف «برنيول» إلا أنه انحدر من أسرة كريمة في «إكس» وأن أباه عضو في مجلس النواب، وقد زوّجه أبوه وهو في سن العشرين، وعني بإعداده لكي يخلفه في كرسي النيابة كما هي العادة في بعض الأسر، ولكن الفتى كان وقتئذ متين البناء، رشيق القامة، سريع الخاطر ممتلئا قوة وفتوة، فآثر دنياه على دينه، وقضى أيام شبابه الأولى في إشباع شهواته الدنيوية، ثُم نشبت الثورة الكبرى، وتبعثرت الأسر العريقة، فرحل شارل ميريل بزوجته لإيطاليا، وهناك أصيبت الزوجة بذات الرئة، وماتت دون ولادة، ولا أحد يعلم على وجه التحقيق نوع الأزمات والكوارث التي تعرض لها شارل ميريل بعد ذلك؛ فكل ما يعرفه الناس عنه أنه عندما عاد من إيطاليا كان يرتدي ثياب القس، وكان قد تقدم في السن وركبته الشيخوخة، واستحال رجلاً آخر، فأقام في بريتول مع أخته الآنسة «باتستين» وخادمته مدام «ماجلوار».

لم تكن باتستين على شيء من الجمال، فهي طويلة القامة نحيفة الجسم شاحبة اللون، ولكنها وقفت كلّ حياتها على العبادة والابتهال وعمل الخير، فخلع عليها ذلك كله مع تقدمها في السن شيئا من النقاوة

وجمال التقوى.

وأما مدام ماجلوار فقد كانت قصيرة بدينة لاهثة الأنفاس على الدوام لسببين، أحدهما نشاطها وخفة حرجتها، وثانيهما إصابتها بأزمة تنفسية مزمنة.

أقام الأب ميريل في قصر الأبرشية، وهو قصر عظيم شُيد في بداية القرن السابق وأحيط بحديقة واسعة، وكان أول ما فعله أنه زار مستشفى المدينة فألفاه قديما ضيقا لا يكاد يتسع للمرضى، فانتقل إلى المستشفى، ونقل المرضى إلى القصر، ولم يكن الرجل ذا ثروة، فقد عصفت الثورة بأملاك أسرته، وبقي لأخته إيراد سنوي لا يتجاوز خمسمائة فرنك، وعلى هذا الإيراد كان الأب ميريل يعتمد في نفقاته الشخصية، أما مُرتبه بصفته أسقف برنيول، وهو ١٥ ألف فرنك في العام، فإن رصده جميعه لأعمال الخير والدين للفقراء وإغاثة الملهوفين، ورتب ميزانيته على هذا الأساس، وعرضها على شقيقته باتستين، فابتسمت ووافقت عليها في الحال، ذلك لأن هذه المرأة الملائكية كانت ترى في الأب ميريل أخاها وقسها في وقت واحد، فهي تحبه وتحترمه، وتحني رأسها إذا تكلم، وتوافق إذا فعل، وكان للأسقف إيراد آخر غير محدود من المناسبات المتصلة بالأعمال الكنسية، كالزواج والعماد وغيرهما، وفي هذه المناسبات كان الرجل يلح في تحصيل أجره من الأغنياء، لا لشيء إلا ليوزعه على الفقراء.

ثم كانت له بحكم عمله مركبة خاصة، فتبرع بها لنقل المرضى إلى المستشفى، وراح يقوم بزياراته إلى كنائس أبرشيته المترامية الأطراف سيراً على قدميه، وحدث ذات يوم أن ذهب لزيارة كنيسة مدينة «سيبز» وكانت الرحلة شاقة، والطريق وعرا، فاضطر أن يمتطي حماراً.

وكان العمدة وبعض أعيان المدينة في انتظاره لتحيته والترحيب به، وقد توقعوا أن يروه قادما في المركبة الفخمة التي كان يستخدمها سلفه، فهالهم أن يروه ممتطيا حماراً. وكانت المفاجأة من الغرابة بحيث لم يتمالك بعض الحاضرين أنفسهم من الضحك؛ فقال القس مُحدثاً العُمدة ومن معه:

- معذرة أيها السادة، لا شك أنه أدهشكم أن يجرؤ قس رقيق الحال مثلي على ركوب حيوان امتطاه السيد المسيح في أحد الأيام، ولكني أؤكد لكم أنني امتطيته اضطراراً لا زهواً وخيلاء.

كانت للأسقف طريقته الخاصة في الحكم على الأشياء، فلقد سمع ذات يوم بقضية تقرر النظر فيها أمام محكمة برينول، وهي قضية رجل ضاقت به الحياة، فاصطنع نقوداً زائفة، لإطعام زوجته وولده. وكانت عقوبة التزييف في ذلك العهد هي الإعدام، ومن سوء حظ الرجل أن زوجته ما كادت تعرض لتتناول أول قطعة صنعها حتى افتضح أمرها وألقى القبض عليها، ولم يكن من دليل على جرم الرجل إلا أن تعترف زوجته وترشد إليه وتسوقه للتهلكة، ولكن المرأة أنكرت، وضيَّق المحقق الخناق

عليها، فأمعنت في الإنكار، وأخيراً خطر للمحقق خاطر، فأوهم المرأة أن زوجها يخونها، وأنه اتخذ لنفسه من دونها خليلة، وأقنعها بوسائل اصطنعها لهذا الغرض، فدبت الغيرة في قلب المرأة دبيب الموت في الحياة، واعترفت بكل شيء، وقدمت من الأدلة ما يكفي لإدانة الزوج، وهكذا ضاع الزوج التعس، وأرسل للسجن انتظاراً للمحاكمة، وتحدث الناس ببراعة المحقق وبُعد نظره، واستغل دهاءه ومقدرته على استغلال غيرة المرأة وتسخير العاطفة لإبراز الحقيقة، سمع الأسقف هذه القصة فسأل:

- وأين يحاكم الرجل وزوجته؟

- أمام محكمة الجنايات.

- وأين يُحاكم المحقق؟

وكان الأب ميريل على استعداد في كل ساعة من ساعات الليل والنهار لتلبية دعوة المريض أو المحتضر، بل لم يكن يترك للعائلات المكنوبة والثكلى فرصى لدعوته، لأنه كان يذهب إليها من تلقاء نفسه، وكان يعرف كيف يجلس الساعات الطويلة صامتا بجانب الزوج الذي فقد امرأته المحبوبة، أو بجانب الأم التي اختطف الموت فلذة كبدها، كما كان يعرف متى يصمت، كذلك كان يعرف متى يجب عليه أن يتكلم، ليدخل السلوى والعزاء إلى نفس المنكوب، وهو عندئذ لا يعمل على محو الحزن بالنسيان، بل ينفخ في الحزن روح الأمل فيجعل منه شيئاً

نبيلاً سامياً، وكان المنزل الذي يُقيم فيه الأسقف يتألف من طابقين: طابق أرضي فيه ثلاث غرف، إحداها للطعام والثانية لنوم الأسقف والثالثة لإيواء الضيوف، وطابق علوي تُقيم فيه المرأتان، أما الغرفة الصغيرة القائمة في ركن الحديقة، والتي كانت فيما مضى مطبخاً للمستشفى، فقد وضع فيها الأسقف بقرتيه الحلوبتين اللتين اعتاد أن يُرسل نصف ألبانهما إلى المستشفى في كل صباح.

ولما كانت غرفة نومه فسيحة جداً تصعب تدفئتها في الشتاء، وكان الخشب نادراً غالي الثمن، فإنه وضع في حظيرة البقرتين حاجزا شطرها إلى شطرين، جعل أحدهما للبقرتين، واتخذ الثاني مخدعاً لمبيته بالشتاء، أما أثاث المنزل فكان بسيطاً، وأثمن ما فيه بعض الصحاف الفضية، وشمعدانان من الفضة ورثهما الأسقف عن عمته، فإذا جاء ضيف لتناول طعام العشاء، أسرعت مدام ماجلوار فأضاءت الشعمدانين، ووضعت الصحاف الفضية على المائدة، ومتى رُفع الطعام، أعاد الشمعدانان إلى مكانهما فوق الموقد، ووضعت الصحاف في خزانة جرت العادة أن يُترك بابها مفتوحاً، ولا عجب في ذلك فالأبواب في منزل الأسقف كانت تُترك مفتوحة ليل نهار، وكانت للأبواب مزاليج من حديد، ولكن الأسقف أزالها جميعاً ليتمكن عابر السبيل من الدخول في كل وقت.

وقد ذُعرت المرأتان، وأشفقتا من هذه الأبواب التي لا تغلق أبدا، فقال الأسقف في هدوء:

- بابان يجب ألا يغلقا، باب الطبيب، وباب القس.

كانت الشمس قد مالت إلى المغيب عندما دخل برينول عابر سبيل يمشي على مهل وينتزع قدميه من الأرض انتزاعاً، وكان بعض سكان المدينة الصغيرة يطلون من نوافذهم، فنظروا إلى القادم بعيون ملؤها الخوف والقلق، ذلك لأن أحداً منهم لم ير إنساناً في مثل رثاثته وهول منظره، وكان الرجل متوسط القامة، متين البنية، قوي العضلات، يُخيل للناظر إليه أنه في السادسة أو الثامنة والأربعين من عمره، وهو يرتدي ثوبا أصفر اللون يكشف عن صدر تنمو فيه غابة من الشعر الأسود، وسروالاً أزرق تطل منه إحدى ركبتيه، وقبعة عريضة تُخفي نصف وجهه الذي لفحته الشمس. وقد أمسك بيده عصا طويلة كثيرة العُقد، وتدلت فوق ظهره حقيبة منتفخة بما فيها، ولا بد أن يكون الرجل قد قضى النهار كله سائراً على قدميه تحت أشعة الشمس المحرقة، فقد كان ضعيفاً منهك القوى، والغبار يعلو ثيابه، والعرق يتصبب على وجهه، ولا بد أنه كان يشعر بظمأ شديد، فقد أبصرته بعض النساء وهو يغترف الماء من نافورة تحت الأشجار في شارع «جازندي»

وما إن بلغ الرجل شارع «بواثفير» حتى انحدر إلى اليسار، ودخل مكتب البوليس وقضى هناك ربع ساعة تقريباً، وكان بباب المكتب شرطي قد جلس على مقعد حجري هناك، فرفع الرجل قبعته وحيا الشرطي باحترام وخضوع، ولم يرد الشرطي تحيته، بل نظر إليه طويلاً، ونهض من مكانه ودخل المكتب، وقصد عابرً السبيل حانة كبيرة يملكها رجل يُدعى

«لابار»، وكان لمطبخ الحانة باب يؤدي إلى الشارع، فنفذ الرجل للمطبخ، وألقى بنفسه بين طائفة من الأفران والمواقد تتلظى فيها النيران تحت شرائح اللحم وأواني الطعام، وشعر صاحب الحانة بدخول الرجل، فرمقه بنظرة سريعة، وسأله دون أن يحول عينيه عن أواني الطعام:

- ماذا تطلب يا سيدي.

- أطلب طعاماً وفراشاً.

- ليس أيسر من ذلك.

رفع الرجل عينيه مرة أخرى قائلاً:

- ليس أيسر من ذلك ما دمت تملك الثمن.

فأخرج الرجل من جيبه كيساً مليئاً بالنقود وأجاب:

- إن معي نقوداً.

قال لابار:

- إذاً أنا في خدمتك.

فأعاد الرجل كيس النقود إلى جيبه، ورفع الحقيبة التي تثقل كاهله ووضعها على الأرض، وجلس على مقعد منخفض بالقرب من الموقد،

واستمر صاحب الحانة في عمله، دون أن يكف عن النظر للرجل خلسة. سأل الرجل:

- هل أعددت طعاماً؟

- سأعده فوراً.

وحوّل الرجل بصره إلى الباب لمراقبة المارة؛ فتناول صاحب الحانة قلماً، واقتطع قصاصة من جريدة قديمة كان يُغطي بها إحدى الموائد، وكتب على القصاصة سطراً أو سطرين، ثم طواها، ودعا خادمه، ودفع بها إليه، وهمس في أذنه كلاماً، تناول الخادم القصاصة وأسرع بها إلى مكتب البوليس، ولم ير عابر السبيل شيئاً من ذلك، وسأل للمرة الثانية عما إذا كان الطعام قد أعد.

عاد الخادم بورقة دفعها إلى سيده، فتناولها بلهفة، وقرأها بإمعان ثم هز رأسه، ووقف لحظة مُفكراً، وأخيراً قصد إلى حيث كان الزائر، وقال له:

- ليس في استطاعتي أن أجد لك مكاناً في حانتي يا سيدي.

فتحول إليه الرجل ببطء وقال:

- ماذا تعني؟ أتظن أنني سأحتال عليك وأخدعك؟ أتريدني أن أدفع الأجر سلفاً؟ إن معي نقوداً كما قلت لك.

- ولكن ليس في الحانة فراش لك.

فقال الرجل في هدوء:

- إذا دعني أنام في الإسطبل!

- لا أستطيع، لأن الجياد تحتل الإسطبل كله.

- بحسبي إذا كومة من القش أرقد عليها فوق السطح، على أننا نستطيع إرجاء الكلام في هذا إلى ما بعد الطعام.

- ليس في استطاعتي أن أقدم لك طعاماً.

- ماذا تقول؟ إنني أكاد أموت جوعاً إنني أسير على قدمي منذ بزوغ الشمس. وقد قطعت اثنتي عشر فرسخا، إنني أطلب طعاماً وأستطيع أن أدفع الثمن.

فانفجر الرجل ضاحكاً، وقال وهو يلوح بيده نحو شرائح اللحم:

- لا طعام عندكّ؟ ما كُل هذا إذا؟

- هذا طعام نزلاء الحانة.

- وكم عدد هؤلاء النزلاء؟

- اثنا عشر.

- هذا الطعام يكفي عشرين شخصاً.

وتنهد واستطرد في هدوء:

- إنني في حانة، وأشعر بالجوعِ فكيف يُراد مني أن أظل جوعاناً...؟!

عندئذ انحنى صاحب الحانة وقال له في همس:

- خير لك أن تنصرف!

فرفع الرجل رأسه بحدة، وفتح فمه، وهمّ بالكلام، ولكن صاحب الحانة قاطعه بأن استطرد بذلك الصوت الخافت:

- كفى! كفى! أتريدني أن أذكر لك اسمك؟ إن اسمك جان فالجان.. أتريد أن أقول لك من أنت؟ لقد ارتبت في أمرك عندما رأيتك، فاتصلت بمكتب البوليس وجاءني هذا الرد.. أتعرف القراءة؟

قال ذلك وبسط الورقة أمام عيني الزائر، وأردف بعد صمت قصير:

- إنني تعودت أن أعامل جميع الناس بالحسنى، لذلك أرجوك أن ترحل.

فنهض الرجل واقفاً، وحمل حقيبته وعصاه، وانصرف! مشى لصق الجدران ببطء مشية الرجل الحزين الذليل، ولم يتلفت يمنة أو يسرة، ولم ينظر وراءه، ولو فعل لرأى صاحب الحانة واقفاً بباب حانته وحوله زبائنه وبعض المارة وهو يتحدث إليهم ويُشير نحوه، ولو رأى نظرات الذُعر

والارتياب التي ارتسمت في عيون القوم وهُم يصغون إلى حديث صاحب الحانة لأدرك أن وجوده لن يلبث أن يُصبح حديث الناس جميعاً بالمدينة، ولأن البؤساء لا ينظرون وراءهم، فهُم يعلمون أن النحس يُلازمهم، وأن الشقاء يُطاردهم.

قضى الرجل وقتاً طويلاً، وهو يسير في طُرقات لا يعرفها، وما لبث أن شعر بوطأة الجوع، ورأى الظلام يُحيط به، فأدار البصر حوله في البحث عن مكان يلجأ إليه، ورأى مصباحاً مضيئاً في آخر الشارع، فقصد إليه، ووجد أنه مصباح حانة صغيرة، فوقف أمام نافذة الحانة، وأرسل بصره إلى الداخل، فإذا بعض الناس يحتسون الخمر، وإذا صاحب الحانة يُحرك طعاماً في آنية فوق الموقد، وكان للحانة بابان أحدهما كبير يؤدي للشارع، وآخر صغير يوصل لفناء ضيق، ولم يجرؤ عابر السبيل على الدخول من الباب الكبير، بل تسلل للفناء، ووقف قليلاً بالباب الصغير ثُم تشجع ودفعه بيده ودخل، وعندئذ هتف صاحب الحانة:

- من هذا؟

- رجل يطلب طعاماً ومرقداً!

- هذا حسن.. ستجد مطلبك هنا.

وتحولت جميع الأنظار للرجل وهو يرفع الحقيبة عن عاتقه، وقال

له صاحب الحانة:

- إن الطعام في الموقد، فاقترب من النار وتدفأ إذا شئت.

فجلس الرجل على مقعد، ومد قدميه المتورمتين من تأثير التعب، وامتلأت خياشيمه بالرائحة الشهية المُنبعثة من وعاء الطعام، وارتسمت على وجهه علامات الارتياح مُمتزجاً بتلك الكآبة التي خلقها الشقاء الدائم، وكان بين الموجودين رجل قضى قبل ذلك بعض الوقت في حانة «لابار». وسمع حديث هذا الأخير عن ذلك الزائر الغريب القريب، فدعا إليه صاحب الحانة وهمس في أذنه كلاماً، وأصغى إليه صاحب الحانة باهتمام، ثم قصد إلى حيث كان الزائر، وألقى بيده على كتفه وقال:

- يجب أن تنصرف من هنا.

فتحول إليه الزائر، وهتف بلطف:

- آه... أنت تعلم.

- نعم.

- لقد طُردت من الحانة الأخرى.

- وستُطرد من هذه الحانة كذلك.

- وأين تردني أن أذهب؟

- اذهب إلى أي مكان آخر.

فحمل الرجل حقيبته وعصاه وانصرف.

وكان بباب الحانة بعض الصبية الذين تعقبوه منذ غادر الحانة الأولى، فما كاد يخرج من الباب حتى راحوا يقذفونه بالحجارة؛ فتحول إليهم الرجل، وهددهم بعصاه فتفرقوا بسرعة كما يتفرق سرب من الطيور، ومر الرجل بباب السجن، ودق الجرس، فأطل الحارس من كوة صغيرة بالباب، وقال الرجل وهو يرفع قُبعته بتواضع:

- سيدي، هل تتفضل بأن تفتح لي الباب لأقضي ليلتي هنا؟

فأجاب الحارس بصوت أجش:

- إن السجن ليس حانة، دعهم يلقون القبض عليك فأفتح لك الباب عن طيب خاطر.

ولم يكن الرجل يعرف شوارع المدينة، فراح يضرب في الطرقات على غير هدى، ولا يعلم إلى أين يذهب؟ ومر بالكنيسة، فلوح نحوها بقبضة يده مهدداً، وكان التعب واليأس قد هدا قواه، فتهالك على مقعد حجري بالقرب من الكنيسة.. وخرجت من الكنيسة سيدة مُتقدمة في السن، ورأت هذا الرجل المُتمدد في الظلام، فسألته في رفق:

- ماذا تفعل هنا أيها الصديق؟

فأجابها في غلظة وخشونة:

- ها أنت ترين أنني أطلب النوم.

- أتنام على هذا المقعد الحجريّ؟!

- منذ تسعة عشر عاماً وأنا أنام على قطعة من الخشب، وها أنذا الآن أرقد على حجر.

- هل كنت جنديا؟

- نعم يا سيدتي.

- ولماذا لا تذهب إلى الحانة؟

- لأنني لا أملك نقوداً.

فقالت المرأة في حزن:

- وا أسفاه، ليس لدي من النقود سوى «سنتيمين».

- في استطاعتك على كل حال أن تجودي بهما عليّ.

وتناول السنتيمين، وقالت المرأة:

- هذا المبلغ الزهيد لا يكفي لمبيتك في الحانة، ولكن يجب أن

تجرب، فأنت جوعان بغير شك، والليل هنا شديد البرودة، ومن المُحتمل أن تجد من يُطعمك ويؤويك على سبيل الإحسان.

- إنني طرقت جميع الأبواب.

- وماذا كانت النتيجة؟

- لقد طردني الجميع.

فألقت المرأة بيدها على ساعده، وقالت وهي تُشير لمنزل صغير بجوار الكنيسة، وتقول:

- إنك طرقت جميع الأبواب، فهل طرقت هذا الباب؟

- لا.

- اطرقه إذا.

كانت مدام ماجلوار تتحدث بحدة وحماسة، وباتستين تصغي إليها في هدوء ودعة، وكان موضوع الحديث تلك المزاليج الحديدية التي أمر الأسقف بإزالتها، والظاهر أن مدام ماجلوار كانت قد خرجت لابتياع بعض الحاجات، فسمعت أحاديث الناس عن ذلك الشريد الذي هبط على المدينة، وكان رأيها أن الأسقف أخطأ حين أزال مزاليج الأبواب، ولا سيما أن الأمن في المدينة مُضطرب بسبب الخلاف بين العمدة ومُدير

البوليس، فكل من الرجلين يسره أن تتعدد الحوادث المُزعجة ليُلقي التبعة على الآخر.

دخل الأسقف في هذه الأثناء، وسمع الشطر الأخير من مُحاضرة مدام ماجلوار عن وجوب الأخذ بالأسباب الحيطة والحذر، ولكنه لم يلق بالاً إلى حديثها، لأنه كان في شغل بالتفكير في أعمال اليوم التالي، وأرادت باتستين أن تُرضي مدام ماجلوار دون أن تزعج أخاها، فقالت للأسقف:

- أسمعت حديث مدام ماجلوار يا أخي؟

فأجاب الأسقف في لطف:

- لا، لا، ماذا كانت تقول؟

فسردت مدام ماجلوار قصتها في كثير من المغالاة، قالت:

- إن متشرداً مريباً عاري القدمين مخيف المنظر قد هبط على المدينة وأراد النزول في حانة لابار، فطرده صاحب الحانة، وإن هذا المُتشرد الذي يلوح عليه أنه سائل خطر، أو شقي هارب من الليمان، فقد شوهد وهو يتسلل في شوارع المدينة تحت جنح الظلام.

- أحقاً ما تقولين يا مدام ماجلوار؟

- نعم يا سيدي، ومن رأيي ورأي الآنسة.

فقاطعتها باتستين:

- إنني لا أرى غير ما يراه أخي.

فقالت مدام ماجلوار بحدة:

- من رأيي أن هذا المنزل ليس مأموناً، وإذا أراد سيدي، فإنني أنطلق في الحال إلى «بولان» الحداد وأطلب منه إعادة المزاليج إلى أماكنها في الأبواب، فيجب يا سيدي أن توصد الأبواب ولو هذه الليلة فقط، فإن في استطاعة أي عابر سبيل أن يدفع الباب الخارجي بيده ويدخل، وهذا مخيف، ثم إن سيدي قد اعتاد أن يقول للطارق «ادخل» قبل أن يتحقق من أمره، فإذا حدث في منتصف الليل أن...

في هذه اللحظة سمعوا طرقاً على الباب؛ فقال الأسقف:

- ادخل.

فاتفتح الباب بقوة ودخل الرجل الذي رأيناه يبحث عن مأوى، وكان لا يزال حاملاً حقيبته وعصاه، وعلى وجهه علامات التعب والملل، وفي عينيه نظرة صارمة شرسة، وأبصرته مدام ماجلوار، فارتجف جسمها ولم تقو حتى على الصياح، وحولت باتستين عينيها نحو القادم، فشل الذعر حركتها لحظة، لكنها ما لبثت أن نظرت إلى أخيها وبدأ وجهها

يعود إلى الهدوء والبساطة، أما الأسقف فإنه نظر إلى الزائر ببساطة وفتح فمه ليسأله عما يبغي، ولكن الزائر لم يترك له فرصة للكلام، بل نظر إلى المرأتين بسرعة ثم أسند يده على عصاه، وقال مُحدثاً الأسقف بصوت مرتفع:

- إن اسمي جان فالجان، وقد خرجت من الليمان بعد أن قضيت فيه تسعة عشر عاماً. خرجت منذ أربعة أيام، واعتزمت الوصول إلى بونتارلييه. ومنذ أربعة أيام وأنا أسير على قدمي، وقد قطعت اليوم اثنتي عشرة مرحلة، ووصلت الليلة إلى هذه المدينة، فقصدت الحانة، ولكني طُردت منها، لأنني أحمل التذكرة الصفراء التي يحملها سجين سابق، ولأنني أبرزت هذه التذكرة في مكتب البوليس كما يتعين عليَّ أن أفعل في كل مكان أصل إليه، ولما ذهبت إلى حانة أخرى طردني صاحبها أيضاً، جميع الناس يطردونني، ولا أحد يُريد أن يتصل بي، وقد قصدت السجن، ولكن السجّان رفض إيوائي، ولجأت إلى حظيرة أحد الكلاب، ولكنه عضني وطردني، كأنه إنسان وكأنه يعرف حقيقتي، وخطر لي أن أنام في الحقل، ثم تذكرت أن السماء قد تمطر وأنه لا يوجد ما يمنع المطر من أن يهطل، وأخيراً تمددت على حجر أمام الكنيسة حتى مرت بي إحدى النساء وأشارت إلى بيتك، وقالت لي: «اطرق بابه»؛ فأي بيت هذا؟ هل هو حانةّ؟! إنني أملك مائة وتسعة فرنكات وخمسة عشر سنتيماً ربحتها من عمل تسعة عشر عاماً في الليمان، وأنا على استعداد لأن أدفع الأجر، إنني مُتعب وجوعان. فهل تسمح لي بالبقاء هنا؟

فقال الأسقف:

- مدام ماجلوار، ضعي صحفة أخرى على مائدة الطعام.

فاقترب الزائر خطوة أخرى، وهتف كأنه لم يفهم:

- صبراً لحظة.. ألم تسمعني يا سيدي؟ لقد قلت لك إنني سجين سابق، وإنني قادم من الليمان.

وأخرج من جيبه ورقة صفراء كبيرة، فبسطها بين يديه وأردف:

- ها هي تذكرتي الشخصية، إنها صفراء كما ترى، وفيها الكفاية لطردي من كل مكان أذهب إليه. هل تريد أن تقرأها. دعني أتلو عليك ما جاء فيها، فإنني تعلمت القراءة في الليمان، إليك ما جاء فيها يا سيديّ «جان فالجان.. مولود في «فافيرول». قضى في الليمان تسعة عشر عاماً، منها خمسة أعوام لارتكابه جريمة السطو، وأربعة عشر عاماً لمحاولته الفرار أربع مرات، وهو رجل شديد الخطر».. هل سمعت يا سيدي. إنني رجل شديد الخطر، وجميع الناس يجتنبونني ويطردونني، فهل ترغب مع ذلك في إيوائيّ؟! هل تقدم لي طعاماً وفراشاً؟ هل لديك اسطبل أقضي فيه ليلتي؟

فقال الأسقف:

- مدام ماجلوار.. ضعي غطاء نظيفا على فراشي.

ولم تكن المرأتان تعرفان غير الطاعة، فانصرفت مدام ماجلوار، وتحول الأسقف إلى الزائر وقال:

- اجلس بجانب الموقد يا سيدي وتدفأ، ستتناول الطعام في التو واللحظة.

فذهل الرجل وظهر على وجهه مزيج من الشرود والشك، ثُم هتف كالمجنون:

- أحقا تقول؟! أتسمح لي بالبقاء؟ وتقول لي: «يا سيدي» بدلاً من أن تنتهرني وتصرخ في وجهي: "اذهب أيها الكلب؟!" لقد كنت واثقاً من أنك ستطردني كما طردني الآخرون؟ ولذلك صارحتك بحقيقة أمري، وأنا سأتناول طعاماً، وسأرقد على فراش كما يرقد سائر الناس؟! إنني لم أنم في فراش منذ تسعة عشر عاماً. أنت في الحق رجل رضي الخُلق وسأنقدك الأجر بسخاء، ولكن بهذه المناسبة، من أنتّ؟ وما اسم هذه الحانة؟!

- إنني قس، وأعيش في هذا البيت.

- قسّ؟! ما أطيب قلبك أيها القس وما أشد غباوتي! كان يجب أن ألاحظ من ثيابك أنك من رجال الكنيسة.

وكان وهو يتكلم قد وضع الحقيبة والعصا في أحد الأركان، وأعاد الورقة الصفراء إلى جيبه، واستطرد:

- إنك رجل رحيم لا تحتقر الآخرين يا سيدي، فما أجمل أن يكون القس رحيماً! إذاً ليس من الضروري أن أدفع أجرا!

- كلا، احتفظ بنقودك. في كم من الزمن ربحت هذه المائة والتسعة فرنكات؟

- في تسعة عشر عاماً.

- تسعة عشر عاماً!

وأفلتت من فم الأسقف آهة عميقة، ومضى الرجل في حديثه فقال:

- ما زال المبلغ كله معي، وقد أنفقت، في هذه الأيام الأربعة خمسة وعشرين سنتيما ربحتها من تفريغ عربات النقل في «جراس».

وفي هذه اللحظة، دخلت مدام ماجلوار، ووضعت على المائدة ملعقة من الفضة، وقال الأسقف:

- مدام ماجلوار، أرجو أن تضعي المائدة بالقرب من الموقد.

ثم التفت للزائر وقال:

- الريح شديد الليلة، ولا بد أنك تشعر بالبرد يا سيدي.

وكانت أسارير وجه الرجل تنبسط كلما سمع كلمة «سيدي»، وكان مُتعطشاً إلى الاحترام تعطش الظمآن إلى الماء؛ فقال الأسقف:

- هذا المصباح يُرسل ضوءاً ضئيلاً يا مدام ماجلوار.

فأدركت مدام ماجلوار غرضه، وجاءت بالشمعدانين الفضيين وأضاءتهما، فقال الرجل:

- إنك رجل كريم يا سيدي الأسقف، فأنت لا تحتقرني وتستقلبني في بيتك كأنني صديقك، وتضيء هذه الشموع الكثيرة إرضاءً لي. كل ذلك على الرغم من أنني صارحتك بحقيقة أمري، وذكرت لك من أين أنا قادم،

فمس الأسقف يده بلطف وقال:

- لم تكن ثمة ضرورة لأن تذكر لي من أين أنت قادم، فهذا البيت ليس بيتي ولكنه بيت الله، وهذا الباب لا يسأل الداخل عن اسمه، وإنما يسأله عن همومه ومتاعبه، وأنت رجل مُتعب وجائع، فأهلاً بك وسهلاً، وليس لك أن تشكرني أو تزعم أنني أستقبلك في بيتي، فهذا بيت كُل من يحتاج إلى ملجأ، هذا بيتك أكثر منه بيتي، وكل ما فيه لك. فما حاجتي إلى معرفة اسمك وماضيك؟! وبعد، فإنني كُنت أعرفك قبل أن تذكر لي شيئاً من أمرك.

ففتح الرجل عينيه في دهشة وهتف:

- أحقاً أنك تعرفني؟!

- نعم إنني أعرفك إنك أخي.

- يا سيدي الأسقف، إنني كُنت أشعر بالجوع عندما دخلت هذا المكان، ولكنني أصبحت من كرمك لا أدري بماذا أشعر الآن.

فنظر إليه الأسقف طويلاً، ثم سأل:

- هل عانيت كثيراً؟!

فصاح الرجل:

- أتسألني كم عانيت من ثقل السلاسل؟ ومن البرد والحر والضرب واللطم، والاحتقار والمذلة، والعمل الشاق؟! لقد كانت الكلاب أسعد مني.

- نعم، إنك قادم من مكان مليء بالأحزان، ولكن اصغ إليَّ، إن في السماء من السعادة للمجرم التائب أكثر مما فيها لمائة من الشرفاء الأمناء، فإذا خرجت من الدنيا بقلب مفعم بالحنق والغضب على إخوانك البشر، فإنك تكون جدير بالإشفاق، وإذا خرجت منها بقلب مليء بالسلام والطمأنينة، كنت جدير بأضعاف مما يستحق أي واحد منا.

في هذه الأثناء كانت مدام ماجلوار قد أعدت الطعام، وهو يتألف من الحساء واللحم والجبن والخبز وقليل من التين؛ فهتف الأسقف وقد انبسطت أسارير وجهه النبيل:

- هلموا إلى المائدة.

لكنه ما كاد يستوي في مقعده حتى أردف:

- يُخيل إليَّ أن المائدة ينقصها شيء.

والواقع أن مدام ماجلوار لم تكن قد وضعت على المائدة إلا الضروري جداً من الصحاف الفضية، وقد جرت العادة إذا جاء زائر أن تحفل المائدة بالصحاف الفضية جميعاً. مناورة بريئة كانت تُكسب فقر الأسقف مظهراً من الغنى، وفهمت مدام ماجلوار وانطلقت من الغُرفة، ثم عادت بعد قليل وبين يديها طائفة من الملاعق والصحاف، وأقبل الرجل على الطعام يلتهمه بنهم دون أن ينطق بكلمة أو يُلقي بالاً إلى أحد، ولكنه قال بعد الطعام:

- يا سيدي الأسقف، إنني قانع بهذا الطعام، ولكني لا أكتمك أن الطعام الذي يقدَّم لنزلاء الحانة أفضل من هذا بكثير.

فرفعت باتستين حاجبيها قليلاً، وأجاب الأسقف:

- لعل نزلاء الحانة يؤدون عملا أشق من عمليّ

- كلا، إنهم أكثر منك مالاً، وإني أرى بوضوح أنك فقير، بل وربما لم تكن أسقفاً كما نزعم. ولو كانت في السماء عدالة لوجب أن تكون أسقفاً.

فأجاب الأسقف في هدوء:

- إن في السماء عدالة.

واستطرد بعد لحظة:

- إنك قلت يا مسيو جان فالجان أنك تقصد لبونتارلييه؟!

- نعم، ويجب أن أستأنف رحلتي قبل بزوغ الشمس، وهي رحلة شاقة، لأن الجو شديد الحرارة نهاراً بقدر ما هو شديد البرودة ليلاً.

- إذا فأنت في أشد الحاجة إلى الراحة.

وتناول أحد الشمعدانين، وقدم الشمعدان الآخر إلى ضيفه وقال:

- دعني أدلك على فراشك.

واجتاز به الغرفة المجاورة، حيث فراشه، وحيث كانت مدام ماجلوار تعيد الصحاف الفضية إلى مكانها في الصّوان، ونفذ به إلى الغرفة التالية، حيث الفراش الذي أعد للضيوف، وقال الأسقف مُحدثا ضيفه:

- أتمنى لك ليلة سعيدة، وآمل ألا ترحل غداً قبل أن تتناول قدحاً من اللبن.

- شكراً لك يا سيدي.

ثم انقلبت سحنته فجأة، وانبعثت من عينيه الثاقبتين نظرة مخيفة لو أبصرتها المرأتان لصعقتا هلعاً وفرقاً. وقال محدثا الأسقف، وقد عقد ساعديه فوق صدره:

- ما هذا؟ أتسمح لي بالمبيت بالقرب منك؟

وأفلتت من فمه لهجة وحشية واستطرد:

- هل فكرت في الأمر مليا؟ من يدري أنني لم أرتكب جريمة قتل؟

- ذلك من شؤون الله.

وتمتم صلاة قصيرة، وبسط يده نحو الرجل وباركه. ولكن الرجل لم يُطأطئ رأسه كما هي العادة، وانصرف الأسقف دون أن ينظر وراءه، وبعد لحظة كان يمشي في الحديقة مشية الحالم المُتأمل المفكر في الأسرار الرائعة التي أودعها الله جوف الليل.. أما الرجل وقد أثرت فيه شدة التعب فلم يُفكر في التخلص من ثيابه البالية، وما كاد يطفئ الشموع ويتمدد على الفراش المريح النظيف حتى غلبه النوم..

وحول منتصف الليل استيقظ جان فالجان الذي كان قد انحدر من عائلة فقيرة في فافيرول، ومات عنه أبواه وهو صغير، فكفلته أخته ومازالت تعنى به حتى مات زوجها وترك لها سبعة أولاد، أكبرهم لا يتجاوز الثامنة من عمره، وأصغرهم لا يزال في الشهور الأولى. وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، فحل محل الوالد، وقصر طاقته على مساعدة الأخت التي ساعدته. وفعل ذلك ببساطة وبدافع الشعور بالواجب، وهكذا قضى الفتى أيام شبابه كما يقضي الفقراء الكادحون أيامهم، لقاء أجر لا يكاد يكفي قوت رجل بمفرده، فضلاً عن أخته وأبنائها السبعة، وكان يعود بالمساء مُتعباً مُنهك القوى فيتناول الحساء الدافئ وقطعة الخُبز دون أن ينطق بكلمة. وكثيراً ما كانت أخته تلتقط من صحفته أفضل قطعة من طعامه فتُقدمها إلى ابنها وابنتها، ويرى جان فالجان ذلك ويتظاهر بأنه لا يرى، وكان يشتغل بالتحطيب والحصاد وحراثة الأرض، ويفعل كل ما يستطيع لإطعام ذلك الجيش من الأطفال الجياع، إلى أن جاء شتاء شديد القسوة لم يوفق فيه جان إلى عمل، فبات الأطفال بلا طعام. سبعة أطفال في البرد القارس، وليست في الدار قطعة من الخُبز، وذات ليلة، كان «ومبير» الخباز يهم بالنوم، حين سمع صدمة عنيفة تحطم وتكسر نافذة حانوته، ورأى يداً تمتد من الزجاج المُحطم، واختطف رغيفاً، فصاح مُستنجداً، وانطلق في أثر اللص، وأمسك به، وكان اللص قد ألقى الرغيف، ولكن بعد أن خدش الزجاج ساعده وأسال دمه، وسُجل عليه جُرمه، وكان هذا اللص جان فالجان الذي حوكم بتهمة السطو، وحُكم عليه بالسجن خمسة أعوام.

وقال أحد الذين أبصروه حين غل عنقه بحلقة من حديد تمهيداً لنقله إلى ليمان "طولون"، إنه كان واجماً، دهشاً، لا يكاد يفهم شيئاً مما يدور حوله. وعندما فرغ حدّاد السجن من تطويق عُنقه، بكى حتى خنقته الدموع، وراح يُتمتم بين وقت وآخر قائلاً:

- لقد كنت أشتغل بالتحطيب في فافيرول.

ثم شوهد وهو يرفع يده اليمنى ويخفضها سبع مرات بالتدريج، كمن يمس رؤوس سبعة أطفال على التتابع الواحد بعد الآخر، وكأنه أراد أن يقول أنه مهما تكن جريمته، فإنه لم يقترفها إلا لإطعام الأطفال السبعة، ووصل إلى طولون بعد رحلة استغرقت سبعة وعشرين يوماً، وهناك زالت الحياة التي اعتادها، بل زال الزي الذي عُرف به، فأصبح رقماً بعد أن كان إنساناً.

في نهاية العام الرابع، تمكن جان فالجان من الفرار، وهام على وجهه في الحقول يومين كاملين، ثم قبض عليه وأعيد إلى الليمان، وحُكم عليه بالسجن ثلاثة أعوام أخرى لاقترافه جريمة الفرار، وأعاد الكرة في العام السادس وهرب للمرة الثانية، ولكنه لم يدر إلى أين يذهب، ووجده مُطاردوه مختبئاً في سفينة لا تزال على قيد البناء فاعتقلوه، وحُكم عليه هذه المرة خمسة أعوام، وحاول الفرار مرتين بعد ذلك، وفشل، وعوقب بالسجن ثلاثة أعوام عن كل محاولة، وبعد تسعة عشر عاماً أطلق سراحه من السجن الذي دخله لأنه سرق رغيفاً، ودخل السجن باكياً خائفاً

مُرتجفاً، وغادره عابساً غاضباً ثائراً، ولم يفقد خلال ذلك شيئا من قوته البدنية التي كانت مضرب الإمثال، وكان يحمل من الأثقال ما يعجز عنه أربعة رجال، ويستخدم ظهره في كثير من الأحيان فيما تستخدم الآلة الرافعةُ لحمله، وكان قليل الكلام، لا يضحك إلا نادراً، وإذا ضحك انبعث منه صوت كقهقهة الشياطين، وفيما عدا ذلك كان دائم الوجوم، كمن ينظر دائماً إلى شيء مُخيف.

والواقع أنه كان منصرفاً بكل عقله المتعب ونفسه المحطمة وحواسه الشاردة إلى تأمل ذلك الصرح المخيف الذي يوشك أن ينقض عليه ويُهشمه، وتلك الأكوام الهائلة من القوانين والحقائق التي تخيفه والتي هي الهرم الذي نسميه المدنية، وكان يتأمل ذلك كُله ويُفكر فيه ويُحاول أن يفهمه. ولكن هل تستطيع حبة الحنطة أن تفهم لماذا وضعت بين شقي الرحى؟ وكانت تأملاته وأفكاره حلقة مُفرغة تنتهي إلى حيث بدأت، وتبتدئ من نقطة واحدة لا تتغير هي كراهة القوانين البشرية، تلك الكراهية التي تتطور مع الزمن كراهة للمُجتمع، ثم كراهة للبشر، فكراهة للخليقة، تُعبر عنها رغبة مُلحة مُهمة في إلحاق الأذي بأي إنسان، وهكذا لم يُبالغ القوم حين سجلوا عليه في الورقة الصفراء أنه رجل شديد الخطر، وقد مات ضميره بالتدريج، وأخذت مشاعره وإحساساته في الذبول حتى جفت، وجفت معها دموعه، وقد انقضت تسعة عشر عاماً مُنذ بكى فالجان للمرة الأخيرة، ولما قيل له: «اذهب، فأنت حُر!»، تألق في ظلمات نفسه شعاع من الأمل والإيمان بحياة جديدة حُرة، ثم اضمحل هذا الأمل وتلاشى معنى هذه الحرية المحدودة بورقة صفراء،

وامتزج اليأس في نفسه بالمرارة، فقد قدر أجره عن عمله في الليمان بمائة وسبعين فرنكاً، وفاته أن أيام العُطلة والأعياد لا أجر لها، فلما نقدوه مائة وتسعين فرنكاً فقط، لم يستطع تعليل ذلك، وتوهم أن القوم قد سرقوه أخيراً كما ظلموه أولاً.

استيقظ جان فالجان حول مُنتصف الليل لسبب واحد، هو أن الفراش كان وثيراً. ولم يكن قد رقد في فراش وثير منذ عشرين عاماً، فأقلقته هذه النعومة وقضت مضجعه، ففتح عينيه ودار بهما في الظلام ثم أغمضهما وحاول أن ينام مرة أخرى، ولكنه لم يستطع، وتزاحمت في رأسه الأفكار والخواطر، ولكنها تبددت جميعاً أمام خاطر واحد ملأ ذهنه وشغل عقله، وكان قد رأى مدام ماجلوار وهي تضع الملاعق والصحاف الفضية في الخزانة، ولفتته بصفة خاصة صحفة الحساء الكبيرة التي تُساوي مائتي فرنك على الأقل، أي ضعف المبلغ الذي ربحه بعرق جبينه خلال تسعة عشر عاماً، وأزعجه أن يشعر بوجود هذه الثروة على مقربة منه، فكر طويلاً في هذه الصحاف وقام في نفسه صراع، ولكنه كان نضالاً قصير الأجل.

ودقت ساعة الكاتدرائية ففتح عينيه فجأة، واستوى جالساً على حافة الفراش، وبقي كذلك ساعة أو بعض ساعة، وهو بين مُقدم ومُحجم، وتلك الخواطر الشريرة المُغرية تحتل ذهنه تارة وتجلو عنه تارة أخرى، إلى أن دقت الساعة ثلاث دقات، فوثب من مكانه كمن لدغته عقرب، وكأن دقات الساعة هاتف خفي يهتف به «هلم إلى العمل»، ووقفت

لحظة أخرى ثُم أرهف أذنيه، وكان الهدوء شاملاً، فلا صوت ولا حركة، والقمر يُطل من بين السحب تارة ويحتجب وراءها تارة أخرى، ومشى جان فالجان إلى نافذة الغرفة، وفحصها، فوجدها خالية من القضبان الحديدية وحديقة المنزل تترامى تحتها، واكتسح الحديقة بعينيه الحديديتين، فألفاها مُحاطة بجدار مُنخفض يسهل اجتيازه.

خلع حذاءه، ووضعه في حقيبته، وتناول من الحقيبة قضيباً حديدياً صغيراً، أطبق عليه أصابعه بقوة، وتسلل للغرفة المجاورة وهو يحبس أنفاسه، دفع الباب بيده بلطف فانفتح، ولكنه أحدث صوتاً ثقب أذنيه كأنه صوت البوق الذي ينفخ فيه يوم الدينونة، وخُيل إليه في ذُعر أن الحياة قد دبت في الباب، فنبح كالكلب لإيقاظ النيام وتحذير الغافلين، جمد في مكانه، ودوت نبضاته في أذنيه كدوي المطارق وخُيل إليه أن أنفاسه تنطلق من رئتيه في زئير كزئير الريح في أشرعة السفينة، ومرت بضع دقائق ظل الباب خلالها مفتوحاً، ثُم أجال جان فالجان البصر في جوانب الغرفة، فألفى كل شيء ساكناً. "إذاً لم يُنبه صرير الباب أحدا؟ إذاً قد زال الخطر؟!

وعلى الرغم من الاضطراب الذي كان لا يزال يعصف في أعماقه، فإنه لم ينكص على عقبيه بل لم يُفكر في أن يفعل ذلك، وكان كُل تفكيره مُنصباً على الفرار بأسرع ما يُمكن من المهمة التي حزم عليها رأيه، ودخل الغُرفة فوجد كل شيء هادئاً، ورأى في الظلام أشياءً غير واضحة، فتقدم بهدوء وحذر لئلا يصطدم بالأثاث، وسع أنفاس الأسقف

النائم وهي تتردد في هدوء وانتظام، ثُم وقف فجأة، فقد وجد نفسه لصق الفراش كان قد بلغ إليه بأسرع مما توقع، ثُم مدت الطبيعة إصبعها، وللطبيعة حكمتها الخفية، وكانت السحب الكثيفة تحجب السماء خلال الساعة الأخيرة، ولكن ما كاد جان فالجان يقترب من فراش الأسقف حتى تبددت السحب كأنما عمداً، وأرسل القمر من خلال النافذة شُعاعاً أضاء الأسقف الهادئ، وكان الرجل نائماً نوم الأبرار، ورأسه مُسند إلى الوسادة في هدوء وطمأنينة، ويده اليمنى مُدلاة من جانب الفراش، ووجهه النبيل مُشرق بنور الأمل والثقة والإيمان، ووقف جان فالجان في الظلام، والقضيب الحديدي في يده وأذهله هذا الوجه الهادئ المضيء، فلم ير في حياته وجهاً كهذا الوجه، ولا ثقة وطمأنينة كثقة هذا الشيخ وطمأنينته، فراعه ما رأى، وأكبر الظن أن أحداً لم يشهد منظر أروع من هذا، منظر ضخم مُقبل على جريمة، يطل على ضمير هادئ طاهر مطمئن..

وظل الأسقف في نومه الهادئ رغم النظرة المُخيفة التي حدجه بها المجرم، وسقطت أشعة القمر على تمثال المسيح المصلوب، فبدا باسطاً ذراعيه كأنما ليبارك أحد الرجلين ويصفح عن الآخر.

فجأة.. تحرك جان فالجان ومر بالفراش بسرعة دون أن ينظر للأسقف، واقترب من الخزانة، ورفع القضيب الحديدي في بدء استعداده لخلع بابها، ولكنه وجده مفتوحاً، فاختطف سلسلة الصحاف القضية، فهرول لغُرفته وأفرغ محتويات السلة بحقيبته، وألقى بالسلة من

النافذة ثُم حمل الحقيبة، ووثب للحديقة ولاذ بالفرار..

ولما أشرقت شمس الصباح، كان الأسقف يسير في حديقته، حين أقبلت عليه مدام ماجلوار وهي تلهث، وعلى وجهها علامات الفزع، وصاحت:

- **أتعرف أين سلة الصحاف يا سيدي؟**

- **نعم.**

- **حمداً للّه؛ فإنني لم أعلم ما حدث لها.**

وكان الأسقف قد وجد السلة بين الأزهار فقدمها إلى مدام ماجلوار وهو يقول:

- **ها هي السلة.**

- **إنها فارغة؛ فأين الصحاف؟**

فهتف الأسقف"

- **آه! أنت مُنزعجة من أجل الصحاف؟ إنني أعرف مكانها.**

- **يا إلهي! إذاً فقد سُرقت، وسارقها هو الرجل الذي زارنا بالأمس.**

وهرولت إلى الغرفة التي قضى فيها جان فالجان ليلته ثُم عادت

مسرعة، وكان الأسقف يُعالج عوداً من الزهر حطمته السلة، فصاحت مدام ماجلوار:

- سيدي، لقد ذهب الرجل واختفت الصحاف.

ووقع بصرها على الأزهار والأعشاب التي حطمتها أقدام الرجل واستطردت:

- إنه فر من هنا بعد أن سرق الصحاف

فصمت الأسقف لحظة، ثم قال بلطف:

- بهذه المناسبة، هل كانت الصحاف صحافنا؟

فصمتت مدام ماجلوار، واستطرد الأسقف بعد سكون قصير:

- مدام ماجلوار، إنني كُنت مُخطئا حين احتفظت بهذه الصحاف التي هي ملك للفقراء، ومن كان الرجل الذي قضى الليلة في ضيافتنا؟ إنه من الفقراء بغير شك.

فهتفت مدام ماجلوار:

- يا إلهي! إن ضياع الصحاف لا يهمني وكذلك لا يهم الآنسة بانستين، ولكننا نشعر بالأسف لك يا سيدي، إذ كيف تتناول طعامك بعد أن سُرقت الملاعق الفضية.

فنظر إليها الأسقف في دهشة وسأل:

- كيف؟ ألا توجد ملاعق من الطين؟

فقلبت مدام ماجلوار شفتيها بازدراء، وقالت:

- إن للطين رائحة مقيتة.

- ألا توجد ملاعق من حديد؟

- إن للحديد طعماً غير مقبول.

- إذا لتكن ملاعق من خشب.

بعد بضع دقائق كان الأسقف يتناول طعام إفطاره، فقال مُداعباً مدام ماجلوار:

- أرى أننا لسنا بحاجة لملعقة من خشب كي نغمس قطعة الخبز في قدح اللبن.

هتفت مدام ماجلوار:

- كيف استقبلت هذا الرجل يا سيدي، وسمحت له أن ينام في غرفة قريبة منك؟ إنني أحمد الله على أنه قنع بارتكاب جريمة السرقة.

كان الأسقف يهم بالنهوض عن مائدة الطعام حين سمع طرقاً على

الباب فقال في هدوء:

- ادخل!

وفتح الباب فرأى الأسقف منظراً غريباً صاخباً. رأى ثلاثة من رجال الشرطة يدفعون أمامهم رجلاً عرفه الأسقف إنه جان فالجان، وتقدم واحدٌ منهم وقال وهو يؤدي التحية للأسقف:

- طاب يومك يا سيدي الأسقف.

هُنا هتف جان فالجان في ذهول وتبلد:

- إذاً، فهو أسقف حقاً!

وصاح به الشرطي:

- صه يا هذا!

كان الأسقف قد نهض من مقعده، واقترب بالسرعة الي تسمح بها شيخوخته، وقال وهو ينظر لجان فالجان:

- أهذا أنت يا صديقي؟! يسرني أن أراك. لقد أعطيتك الشمعدانين وهما أيضاً من الفضة وثمنهما لا يقل عن مائتي فرنك، فلماذا تأخذهما مع الصحاف؟

ففتح جان فالجان عينيه، ورمق الأسقف بنظرة تعجز لغة البشر عن التعبير عنها، وقال الشرطي:

- إذاً، قال هذا الرجل الصدق يا سيدي؟ إننا قابلناه في الطريق، وخُيل إلينا أنه يفر، فارتبنا في أمره، وألقينا القبض عليه، ووجدنا معه هذه الصحاف التي...

فقاطعه الأسقف، وعلى شفتيه ابتسامة:

- وقال لكم إنه حصل على هذه الصحاف من قس عجوز أضافه في منزله هذه الليلة، فجئتم به إليَّ. أليس كذلك؟ لقد أخطأتم.

- وفي هذه الحالة، هل يجب أن نطلق سراحه؟

- طبعاً.

فترك الشرطي ساعدي جان فالجان فترنح هذا في مكانه متململاً، وغمغم بلهجة لا تكاد تُفهم، وبصوت من يتكلم وهو نائم:

- أحقاً أنني حُر؟

فقال أحد الشرطة:

- نعم.. ألا تفهم؟

قال الأسقف:

- أيها الصديق، يجب ان تأخذ الشمعدانين قبل أن أذهب.

وجاء بالشمعدانين وقدمهما لجان فالجان، وشهدت المرأتان كُل ذلك، ولم تأت إحداهما بحركة أو تنطق بكلمة تُزعج الأسقف، وكان جان فالجان يرتجف من قمة رأسه لأخمص قدميه، فتناول الشمعدانين بحركة آلية، وفي عينية نظرة شاردة، وقال الأسقف:

- والآن اذهب بسلام أيها الصديق، وإذا عدت، فلا ضرورة لأن تسلك طريق الحديقة، إذ في استطاعتك أن تدخل من الباب الأمامي فهذا الباب مفتوح لك ليل نهار.

ثم تحول إلى الشرطة وقال:

- في استطاعتكم أن تنصرفوا أيها السادة.

فأطاعوا، وبدا على جان فالجان كأنه يوشك أن ينهار ويفقد الرشد، فاقترب منه الأسقف وقال له بصوت خافت:

- ولا تنس أبداً يا صديقي أنك وعدتني بأن تجعل من هذا المال سبيلك إلى الأمانة والشرف.

فلزم جان فالجان الصمت، فهو لا يذكر أنه وعد الأسقف بشيء

من هذا، واستطرد الأسقف وهو يتمهل عند كُل كلمة كأنما ليؤكدها جان فالجان:

- يا أخي إنك لن تكون بعد الآن من أهل الشر، إنني الآن أبتاع روحك وأنقذها من الضياع والبوار، وأردها إلى الله...

وكان جان فالجان ذاهلاً مُتبلداً، فانصرف دون أن ينطق بكلمة ومشى بين الحقول مُسرعاً على غير هُدى، وقضى النهار شارداً لم يتناول شيئاً من الطعام، ولكنه لم يشعر بالجوع، وكانت جمجمته ميداناً لحرب ضروس. وأحس بنوعٍ من الغضب ولكنه لم يدر على أي إنسان يصب جام غضبه، وقضى النهار كله تتنازعه مشاعر وإحساسات لا توصف، وأقبل الليل، فتهالك على الأرض وسط الشجر المُلتف خارج المدينة، واستمر يُفكر ويتأمل، حتى أزعج تأملاته صوت مرح أخذ يدنو من الأشجار، فحول رأسه، ورأى غُلاماً في نحو العاشرة يحمل قيثارة ويُغني بصوت طروب، وكان من أولئك المرحين الذين يطوفون بالقرى، ويسعدون الآذان بغنائهم وموسيقاهم ويعيشون بما يجتمع لهم من كرم الناس، وكان الغلام يكف عن الغناء بين الفينة والفينة ليعبث بقطعة من النقود الفضية لعلها كُل ثروته، فيقذف بها بالفضاء، ثُم يلفها على ظاهر يده، وقذف الغلام بقطعة النقود الفضية، وأراد أن يتلقفها، ولكنها انزلقت من يده، وتدحرجت نحو جان فالجان فوضع هذا قدمه فوقها، ولكن الغلام أبصره، ولم يُدهش، وقصده تواً، وكان المكان مهجوراً، ولا ترى فيه العين غير الأشجار والأعشاب المُتعانقة والطريق الضيق المؤدي إلى

القرية، وليس من صوت تغريد أسراب الطير على أفنان الشجر، وقال الغلام ببساطة الأطفال:

- اعطني نقودي يا سيدي.

فسأله جان فالجان:

- ما اسمك؟

- اسمي «جرفيه»، يا سيدي.

- اذهب في سبيلك.

- أرجو أن تعطيني نقودي، يا سيدي.

فأطرق جان فالجان برأسه ولم ينطق بكلمة، صاح الغلام:

- اعطني نقودي يا سيدي أعطني قطعتي الفضية.

وبدا على جان فالجان أنه لم يسمعه، لأن الغلام ما لبث أن أمسك بكتفه، وراح يهزه بشدة، ويُحاول في الوقت نفسه أن يُزحزح القدم الثقيلة التي استقرت فوق قطعة النقود، وصاح الغلام بصوت يرتجف:

- أريد نقودي! أريد قطعي الفضية.

وبدأ يبكي فرفع جان فالجان رأسه، وكان لا يزال جالساً على

الأرض، فنظر إلى الغلام بعينين شاردتين، وارتسم على وجهه شيء من الدهشة، ثُم مد يده نحو عصا وصاح بصوت مُخيف:

- من هذا!؟

- أنا جرفيه يا سيدي. أرجو أن ترد لي نقودي أتوسل إليك أن ترفع قدمك.

وبقي جامداً في مكانه كالصنم، وصرخ الغلام غاضباً:

- ألا ترفع قدمك؟!

فصاح جان فالجان:

- أما زلت هنا؟!

ووثب واقفاً، وأردف وقدمه لا تزال على قطعة النقود:

- ألا تريد أن تنصرف؟!

فذُعر الغلام وبدأ يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وبقي في ذهوله وذعره لحظة، ثم أطلق ساقيه للريح دون أن يجرؤ على الصياح أو التحول إلى الوراء، وما لبث أن توارى بين الأشجار، وانحدرت الشمس نحو الأفق، وبدأ الظلام يُخيم حول جان فالجان، ولم يكن قد تناول شيئاً من الطعام طوال ذلك اليوم، ولعله كان محموماً، وأخيراً أحس

ببرودة الليل، فخرج من جموده فجأة وأرخى قامته على رأسه، وتناول عصاه، وهم بالسير، وعندئذ وقع بصره على قطعة النقود الفضية، وكانت تلمع بين العلب فمرت في جسده رعدة قوية، وارتد للوراء خطوة دون أن يحول بصره عن قطعة النقود ثم انحنى والتقطتها، وراح ينظر حوله بين الأشجار، ويرتجف كالوحش يبحث عن مأوى، ولكنه لم ير شيئاً فقد هبط الظلام وحجب المرئيات عن ناظريه، وفجأة، تحرك من مكانه، وشرع يسير في ناحية من المؤكد أنها الناحية التي توارى فيها الغلام، واجتاز مسافة قصيرة، ثُم وقف، ونظر حوله، وصاح بكل قوته:

- جرفيه.. جرفيه.

أرهف أذنيه، ولكنه لم يسمع جواباً، فاستأنف السير، ثُم شرع يعدو، ويصيح بصوت المُحتضر:

- جرفيه.. جرفيه.

لو سمع الغلام صوته لاستولى عليه الذعر، ومنعه الخوف من تلبية ندائه، وعندما انصرف جان فالجان من بيت الأسقف، كان في حالة يعجز فيها عن تقديم حساب عن العواطف المُتباينة التي تعصف بأعماقه. وقد حاول المرة بعد الأخرى أن يصم أذنيه عن الكلمات الكريمة التي صبها بمسامعه حين قال:

- ولا تنس أبداً يا صديقي أنك وعدتني بأن تجعل من هذا المسلك

سبيلك للأمانة والشرف، إنك لن تكون بعد الآن من أهل الشر، إنني الآن أبتاع روحك وأنقذها من الضياع والبوار وأردها إلى الله..

وظلت هذه الكلمات تدوي في أذنيه دوي الرعد، وظل نورها يشق ظلمات نفسه كوميض البرق بالليلة الحالكة، وأحس بالفطرة أن عفو الأسقف كان عاصفة هزت كياته هزاً عنيفاً، وأن صلابته هي سبيله الأوحد للاحتفاظ بكراهيته للمجتمع، تلك الكراهية التي تملأ نفسه ارتياحاً وشماتة، وأن المعركة التي بدأت تنشب بين خُبثه وطيبة الأسقف هي المعركة الفاصلة في تقرير مصيره، فإما النصر وإما الهزيمة، إما طريق الشر، وإما الخير..

وهكذا قضى النهار وهو يمشي مشية الثمل، ولا يعلم غير الله إذا كان يعتمل في قرارة نفسه، ولعله كان يصغي إلى ذلك الهاتف الخفي الذي يُحرك ضمير الإنسان في بعض مراحل حياته. ولعله شعر أنه صار في مُفترق طريقين لا ثالث لهما، إما أن يُصبح شريراً، وإما أن يسمو فوق الأسقف نفسه، أو ينحط لمرتبة السجين الخارج من الليمان، على أن شيئاً واحداً كان مُؤكداً، وهو أن صار في خلال هذه المعركة الفاصلة رجلاً غير الرجل، ولم يكن في استطاعته أن يُنكر أن الأسقف تحدث إليه، وأنه شد على يده، وبينما كانت المعركة في عنفوانها، قابل جرفيه الصغير، واغتصب قطعته الفضية، فلماذا فعل ذلك؟!

لم يكن في استطاعته أن يُفسر هذه الجريمة، ولعله ارتكبها

بالفطرة، أو لعله لم يرتكبها على الإطلاق، وإنما ارتكبها الشيطان الخبيث القابع في ركن نفسه المظلمة، فما أن استيقظ ضميره حتى هالته هذه الفعلة الوحشية الأثيمة، فصرخ ألماً وفزعاً، وبكى طويلاً، كما تبكي المرأة الضعيفة وكما يبكي الطفل المذعور، وأزال البكاء عن صدره عبئا ثقيلاً، وطهر ذهنه من السحب المُظلمة التي تُخيم عليه، فبدأ يُفكر في جو من الهدوء، واستعرض حياته الماضية، وغلطته الأولى، وتفكيره الطويل، وإطلاق سراحه، وما اقترن به ذلك كله من نقمة وموجدة، ورغبة في الانتقام، وفكر فيما حدث في بيت الأسقف، ثم في عدوانه على نقود الغلام، وبدت هذه الجريمة الأخيرة في نظره أدل على الوحشية والحقارة من كل جريمة ارتكبها قبل ذلك، لأنه أقدم عليها بعد عفو الأسقف، واستعرض كُل ذلك في ضوء جديد لم يره قبل ذلك، ونظر لحياته في هذا الضوء الجديد، فبدت له هائلة مُزعجة، وتغلغل في أعماق نفسه، فرآها مُظلمة مخيفة، وكان كمن يرى الشيطان على ضوء الجنة، ولا أحد يعلم كم بقي هكذا. ولا أحد يعلم ماذا فعل أو إلى أين ذهب بعد ذلك. ولكن قيل بالعام التالي أن إحدى مركبات البريد وصلت لبرينول في الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي، ومرت أمام الكنيسة، فرأى سائقها رجلاً راكعاً على الأرض أمام باب الأسقف، وقد هبط فوق صدره كمن يُصلي ويبتهل.

الفصل الثاني

العشاق

كانوا أربعة من الشبان لا يختلفون عن أمثالهم من طلاب العلم في باريس، فهم نماذج عادية من الشبان الذين لا قيمة لهم، والذين تصادفهم في طريقك كل يوم، وأسماؤهم: «تولوميس» و«لستولييه» و«فاميل» و«بلاشفيل». وكانت لكل منهم عشيقة بطبيعة الحال، فبلاشفيل يُحب «فافوريت»، ولستولييه يحب «داليا»، وفاميل يُحب «جوزفين»، وتولوميس يُحب «فانتين»، وفافوريت وداليا وجوزفين وفانتين هن أربع فتيات حسان، تعلو وجوههن مسحة من الكد والعناء، ويضيء في نفوسهن قبس من الأمانة التي تعمر في المرأة بعد السقطة الأولى، وكانت بينهن واحدة تُلقب بالصغيرة لأنها أصغر رفيقاتها سناً، وأخرى تُلقب بالعجوز لأنها أكبرهن سناً، وإن لم تتجاوز الثالثة والعشرين، فأما الكبيرات فكن أعلم بشؤون الحياة من الصغيرة فانتين، وأكثر منها تجارب، وأدرى بطبائع الخلق. وأما فانتين فإن مغامرتها مع تولوميس كانت هي السقطة الأولى، وبرزت فانتين من أوحال الحياة، وخرجت من قرارة المُجتمع وعلى وجهها طابع الماضي التعس، والمُستقبل المجهول، ولدت في قرية «مونفورميل»، ولكن من أي أبوين؟ لا أحد يعلم ولا هي تعلم، وعُرفت باسم فانتين، لأنه الاسم الذي أطلقه عليها عابر سبيل رآها تعدو في الشارع عارية القدمين، واشتغلت فانتين بالخدمة في المنازل،

والفلاحة في الحقول. وبلغت الخامسة عشرة من عمرها، فرحلت لباريس لتُجرب حظها، وكانت على جانب من الرشاقة والجمال ولها ثروة عظيمة من ذهب شعرها ولآلئ أسنانها، وقد احتفظت بجمالها وطهارتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فاشتغلت لتُشبع جوعها، ثُم أحبت لتُشبع قلبها، وكانت مُغامراتها مع تولوميس تسلية بالنسبة إليه، وجنونا بالنسبة إليها..

وتكونت من بلاشفيل وفاميل ولستولييه عصبة تزعمها تولوميس، لأنه كان أوسع الجميع حيلة، وأسرعهم خاطراً وأقدمهم في طلب العلم، وقد تجعد وجهه وفقد أسنانه وسقط شعر رأسه وهو لا يزال يطلب العلم، وقال تولوميس لرفقائه ذات يوم:

- لقد مضى عام مُنذ وعدنا فانتين وداليا وجوزيفن وفافوريت بمفاجأة طريفة، وهن يتحدثن دائماً عن هذه المُفاجأة ويُطالبونا بالوفاء بوعودنا، ثُم إن آباءنا يكتبون إلينا على الدوام ويحثوننا على العودة لأحضانهم، وأعتقد أن الوقت قد حان لكي نقوم بدور الأبناء البررة فما قولكم في اقتراح يُتيح لكل منا أن يضرب عصفورين بحجر واحد؟

وتلاقت رؤوس الفتيان الأربعة، وراح تولوميس يُدلي باقتراحه العظيم، وفي يوم الأحد التالي، خرج الفتيان الأربعة وعشيقاتهم للنزهة في «نيوتي»، وكانت تبدو عليهم جميعاً مظاهر الغبطة والسعادة، وكانت

فانتين بصفة خاصة أسعد الجميع وأشدهم فرحاً، فهي تتأبط ساعد تولوميس وتبتسم في وجه النسيم الذي يدفع شعرها الثمين، وتُجيب عن دُعابات صاحبها بضحكات رنانة طروب مُنبعثة من نفس طلقت هموم الحياة ومتاعبها، وكانت بمرحها وسذاجتها أشبه بالطهارة طافية على سطح الخطيئة. نعم العشاق بالشمس والنسيم والحقول والأزهار والأشجار، ورقص الفتيان، وغنت الفتيات، وراحت فافوريت تسأل بين الفينة والفينة:

- ولكن أين المُفاجأة؟!

فيُجيبها تولوميس:

- صبراً! فسوف تكون مفاجأة عجيبة.

ثم تناولوا طعام الغذاء في حانة «بومباردا» ومالت فافوريت نحو صاحبها بالاشفيل وقد لملمت بنشوة الخمر وغمغمت: "إنني أحبك يا بلاشفيل". فسألها:

- وماذا تفعلين إذا هجرتك يا فافوريت؟

فهتفت:

- إذا هجرتني! يا إلهي. لا تقل ذلك حتى على سبيل الدعابة. إذا هجرتني فإنني أطاردك، وأعدو في أثرك، وأصب الماء على رأسك،

وأسوقك للسجن.

فابتسم بلاشفيل ابتسامة الرجل الذي يعرف قدر نفسه، وهمست داليا في أذن فافوريت:

- يُخيل إليَّ أنك تحبينه حب جنون.

فأجابت فافوريت في همس كذلك:

- إنني أمقته فهو شديد البُخل. وإني أوثر عليه الشاب الذي يقطن في المنزل المُقابل لمنزلي، فهل تعرفينه؟ إنه شاب ظريف. وقد بدأت أحبه ولكن ذلك لا يمنعني من أن أقول لبلاشفيل إنني أحبه.

ثُم تحولت لتولوميس وسألت بصوت مُرتفع:

- ولكن أين المفاجأة؟

وكانوا قد فرغوا من الطعام فأجاب تولوميس:

- هذا صحيح. لقد حان الوقت أيها السادة لتقديم المفاجأة التي وعدنا بها السيدات، فهلموا بنا.

قال بلاشفيل:

- إنها مفاجأة تبدأ بقبلة.

فأردف تولوميس:

- على الجبين.

وطبع كل منهم قبلته على جبين صاحبته، وانصرفوا الواحد في إثر الآخر، وصفقت فافوريت بيدها وصاحت:

- ستكون مفاجأة طريفة حقا كل الدلائل تشير إلى ذلك.

وشيعت فانتين الفتيان الأربعة بقولها:

- ولكن لا تبطئوا، فإننا بانتظاركم.

قالت جوزفين:

- لا شك أنهم سيفاجئوننا بهدايا ثمينة.

فأجابت داليا:

- كل رجائي أن تكون هدايا من ذهب.

وراحت الفتيات يتحدثن ويضحكن، حتى انقضت ساعة أو بعض ساعة، وطال بهن الانتظار واستولى عليهن السأم فقالت فافوريت بلهجة من يستيقظ من نوم عميق:

- ولكن أين المفاجأة؟

وقالت فانتين:

- لقد طالت غيبتهم.

وتنهدت، وفي تلك اللحظة أقبل عليهم أحد الخدم وبيده رسالة، فصاحت فافوريت:

- ما هذا؟

- هذه رسالة تركها أصحابكن.

- ولماذا لم تجيء بها في الحال؟

- لأنهم أوصوني بأن أقدمها إليكن بعد انقضاء ساعة

واختطفت فافوريت الرسالة وفحصتها، وقرأت على غلافها هذه الكلمات: "هذه هي المفاجأة الموعودة". وفضت الرسالة بسرعة وقرأت فيها ما يلي:

"أيتها الحبيبات يجب أن تعلمن أن لنا آباء وأمهات، وأن هؤلاء الآباء يزعمون أنهم أحق بنا من سواهم، ويصفوننا بالعقوق ويطالبوننا بالعودة إلى أحضانهم. ولما كنا من أبرّ الأبناء بآبائهم، فإننا نُسارع إلى تلبية ندائهم. وستصلكن هذه الرسالة ونحن في طريقنا إلى ذوينا، والمركبة تنهب بنا الأرض نهباً، مُبتعدة عن الهاوية، والهاوية هي أنتن أيتها

الصغيرات العزيزات، نعم إننا نعود الآن إلى المُجتمع وإلى الواجب والنظام بسرعة تسعة أميال في الساعة، إذ من الضروري لوطننا العزيز أن نُصبح كغيرنا، آباء وجنوداً وموظفين. فالتضحية من جانبنا جسيمة وجديرة بإعجابكن وإكباركن، ومن الخير لكن أن تجففن دموعكن، وأن تستعضن عنا بسوانا بأسرع ما تستطعن... وداعاً..."

الإمضاء: بلاشفيل، فلاميل، لستولييه، تولوميس...

ملحوظة: "لقد دفعنا ثمن الطعام».

حملقت كل فتاة في وجه الأخرى، ثم تكلمت فافوريت أخيراً فقالت:

- إنها في الحق دعابة بارعة، وأكبر ظني أنها من ابتكار بلاشفيل، وأظنني قد بدأت أحبه.

فقالت داليا:

- كلا كلا.. إنها دعابة تولوميس ذلك واضح جلي.

فأجابت فافوريت:

- إذاً ليسقط بلاشفيل، وليجئ تولوميس.

وانفجرت ضاحكة، فضحكت فانتين كذلك، ولكن لم تمض ساعة

على عودتها إلى غرفتها حتى انفجرت باكية، وكانت تلك المغامرة –كما قلنا – هي مغامرتها الأولى، وقد أسلمت المسكينة نفسها لتولوميس كما لو كان زوجها وشعرت بثمرة الخطيئة تتحرك في أحشائها.

***

راحت الطفلتان تلهوان بالسلسلة الحديدية الضخمة التي تسد جانباً من الطريق المؤدي إلى الحانة، كانتا طروبين ترى على وجهيهما نضرة الصحة ويتألق في عيونهما بريق السرور والمرح، وقد جلست أمهما بباب الحانة، وراحت تشتغل بتنظيف بعض الخُضر، وترمق طفلتيها من وقت لآخر بعينين تسيل نظراتهما عطفاً وحناناً، وكانت الأم ما تزال في شغل تنظيف الخضر، حين سمعت فجأة صوتاً يقول:

- ما أجمل طفلتيك يا سيدتي!

فرفعت الأم عينيها، ورأت بالقرب منها شابة تحمل بين يديها طفلة صغيرة وحقيبة ثقيلة، وكانت الصبية ترتدي ثوباً خشناً كثياب العاملات، وتضع على رأسها غطاءً يحجب شعرها ويُبرز تقاطيع وجهها الحزين، وكانت ما تزال في مُقتبل العمر، ولكن خشونة ثوبها، والغطاء الأسود الذي يحجب رأسها وشعرها جعلا من المُتعذر تحديد نصيبها من الجمال، أما عيناها فكانتا واسعتين عميقتين، يُخيل للناظر إليهما أن دموعهما لم تجف مُنذ وقت طويل، وهذه المخلوقة المُمتقعة المُتهدمة الحزينة، التي تسعل من وقت لآخر من تأثير الضعف وسوء التغذية هي

فانتين التي عرفناها جميلة سعيدة طروباً باسمة، وجدت فانتين نفسها وحيدة بعد فرار تولوميس، وكانت حياة العبث التي ألقتها في معاشرة تولوميس، قد قربتها من حياة الكد والعمل، وحقرت في نظرها مهنة الخياطة والتطريز، فألقت خياطتها وانقطعت الصلة بينها وبين مواطن العمل، وكانت تقرأ بصعوبة ولا تكتب غير اسمها، فلجأت إلى أحد الكتبة العموميين واستكتبته رسالة إلى تولوميس، ثم أتبعها برسالة ثانية فثالثة ولكنها لم تتلق رداً، وحارت المسكينة في أمرها ماذا تفعل؟ وإلى أين تولي وجهها؟ ولم تكن تعرف أحداً تلجأ إليه، وأحست كأنها على شفى هوة توشك أن تبتلعها لكنها لم تفقد شجاعتها، وخطر لها أن تعود لموتفورميل مسقط رأسها، فهناك يعرفها بعض الناس فيجدون لها عملاً، ولكن من الضروري وقبل كُل شيء أن تُخفي زلتها، وفكرت في ضرورة الافتراق عن طفلتها فشعرت بقلبها يتمزق على أن ذلك لم يُضعف عزيمتها ولم يهدم شجاعتها، وصنعت من فساتينها الحريرية الجميلة ثوبا لابنتها، وباعت أمتعتها القليلة وقامت بسداد ديونها الصغيرة وبقي لها ثمانون فرنكاً، وذات يوم خرجت فانتين من باريس حاملة ابنتها وحقيبتها، وكان منظرها مُثيراً للشفقة فالأم لا تملك من الحياة غير طفلتها وليس للطفلة بالحياة غير أمها، وشعرت فانتين بالتعب، فقطعت بعض رحلتها في إحدى المركبات، ثم عادت تواصل السعي على قدميها، فوصلت حوالي الظهر لتلك الحانة حيث وجدت الطفلتين تعبثان بالسلسلة الحديدية، وتتمرجان عليها، وطاب لها أن ترى الطفلتين في عبثهما، وكانت كل الدلائل تُشير إلى أنهما سعيدتان موفورتا الحاجة والصحة،

فهمت تُحدث أمهما:

- ما أجمل طفلتيك يا سيدتي.

وليس ما يُرضي الأم مثل أن تسمع ثناءً على طفلها، فرفعت الأم رأسها، وشكرت الصبية، ودعتها للجلوس فجلست، وراحت المرأتان تتجاذبان أطراف الحديث، وقالت المرأة إنني أدعى مدام تيناردييه، ونحن نملك هذه الحانة، وكانت مدام تيناردييه في نحو الثلاثين من عُمرها، ولكنها تفتقر إلى كل أنواع الجمال التي تُميز المرأة عن الرجل، وكانت وقتئذ جالسة، فلم تر فانتين قامتها الهائلة وتكوينها الذي يضعها في صفوف العمالقة، ولو رأت ذلك لحل الحذر في نفسها محل الثقة، ولكن شاءت الأقدار أن تتعلق مصائر بعض الناس بجلوس شخص أو وقوفه، وقصت فانتين قصتها بشيء من التحوير، فزعمت أنها من العاملات وأن زوجها توفي بعد أن أولدها هذه الطفلة، وأنها الآن في سبيلها لمسقط رأسها لتبحث هناك عن عمل بعد أن سُدت أبواب العمل في باريس بوجهها وقالت:

- إنها تقصد إلى «موتفورميل»، وأنها قطعت بعض المسافة سيراً على الأقدام، وكانت الطفلة تسير معها في بعض الأحيان، ولكن لمسافات قصيرة، لأنها لا تزال صغيرة، وفيما عدا ذلك فإنها كانت تحمل الطفلة طوال الوقت.

قالت ذلك ونظرت لابنتها بشغف، وطبعت على شفتيها قبلة

أيقظتها، وفتحت الطفلة عينيها الواسعتين الزرقاوين ونظرت حولها، ثُم انزلقت من بين ذراعي أمها بنشاط الطفل الذي يُريد أن يلعب ويلهو.

ما كادت قدماها الصغيرتان تستقران على الأرض، حتى وقع بصرها على الطفلتين وهُما تتأرجحان فوق السلسلة الحديدية، ففتحت عينيها وفمها بدهشة، وقالت مدام تيناردييه تُحدثها:

- العبي معهما يا بُنية.

ما أسرع تآلف الأطفال في مثل هذه السن، فقد رحبت الطفلتان بزميلتهما، وما هي إلا لحظات حتى كانت الطفلات الثلاث يملأن المكان صخباً وصياحاً، واستأنفت المرأتان الحديث فسألت مدام تيناردييه:

- ما اسم ابنتك؟

- اسمها كوزيت.

- وعمرها؟

- إنها في الثالثة.

- كابنتي الكبرى.

ونظرت إلى الأطفال واستطردت:

- حقاً، إنه يُخيل للناظر أنهن ثلاث شقيقات.

كأنما كانت هذه العبارة هي الشرارة التي تنتظرها فانتين، لأنها أمسكت يد مُحدثتها بالحال، وقالت وهي تنظر بوجهها:

- هل تستطيعين العناية بابنتي؟

فبدرت من المرأة حركة عنيفة تدل على الدهشة، ولكنها لا تُفيد الرفض ولا القبول، واستطردت فانتين:

- أصغي إليَّ.. إنني لا أستطيع الذهاب بابنتي لمسقط رأسي، فإنه يتعذر على المرأة مع وجود طفلها أن تحصل على عمل ولا شك أن العناية الإلهية قد ساقتني لهذه الحانة، إنني قلت لنفسي حين رأيت طفلتيك نظيفتين سعيدتين «هذه أم تعطف على أولادها، وقد صدق ظني، فهل لك في أن تجعلي من ابنتي شقيقة لابنتيك حتى أعود فأستردها؟"

فأجابت مدام تيناردييه:

- هذه مسألة تحتاج إلى تفكير.

- إنني على استعداد لأن أدفع ستة فرنكات شهريا.

هُنا صاح رجل في داخل الحانة:

- بل يجب أن تدفعي سبعة فرنكات على الأقل، وأجرة ستة أشهر سلفاً.

فقالت مدام تيناردييه:

- أي ٤٢ فرنكاً.

فأجابت فانتين:

- سأدفع هذا المبلغ.

قال الرجل:

- كذلك يجب أن تدفعي خمسة عشر فرنكا للطوارئ.

فقالت مدام تيناردييه:

- فيكون المجموع سبعة وخمسين فرنكاً.

قالت فانتين:

- سأدفع هذا المبلغ.. إن معي ثمانين فرنكاً وفي استطاعتي الوصول لمونفورميل سيراً على قدمي، وسأجهد نفسي في العمل حتى إذا اجتمع لي قليل من المال عدت لاسترداد عزيزتي الصغيرة.

فسأل الرجل بصوت أجش:

- هل للصغيرة ثياب؟

وقالت مدام تيناردييه:

- إن المُتكلم هو زوجي.

فأجابت فانتين:

- لقد أدركت ذلك.

ثم أجابت الرجل بقولها:

- نعم.. إن لعزيزتي الصغيرة كثيراً من الثياب. لها اثنتى عشرة قطعة من كل نوعِ، ولديها عدد كبير من الفساتين الحريرية كأي سيدة جميلة مثلها، وهذه الثياب في حقيبتي.

قال الرجل:

- يجب أن تتركي هذه الثياب.

فأجابت الأم:

- سأتركها طبعاً، من المُضحك أن تظن أنني أدع ابنتي عارية.

وتمت الصفقة، ودفعت فانتين المبلغ المطلوب، وقضت ليلتها في الحانة، وانصرفت في الصباح الباكر تاركة ابنتها، وفي نيتها أن تعود إليها في أقرب فرصة، وجرت العادة أن يتم مثل هذا الفراق في هدوء وسكينة،

وأن يجر وراءه ذيول الحزن واليأس، وقد تحدثت امرأة تُقيم بالقرب من الحانة لجارة لها قائلة:

- إنني رأيت اليوم صبية تسير في الشارع وتبكي كما لو كان قلبها يتفتت.

وما إن رحلت فانتين حتى قال تيناردييه لزوجته:

- لقد حسبت المسكينة أن العناية الإلهية ساقتها إلى هنا لكي نعتني بابنتها، ولكني أعتقد أن العناية الإلهية إنما قادتها إلى هنا لكي تنقدنا مبلغاً من المال نحن في أشد الحاجة إليه لسداد ديوننا، ولولا ذلك لبعت الحانة غداً.

وهكذا أنقذ تيناردييه حانته، ولكنه احتاج لمبلغ آخر من المال في الشهر التالي، فبعث بامرأته لباريس حيث باعت ثياب كوزيت وقبضت ثمنها ستين فرنكاً، وظل الرجل وامراته يُنفقان في هذا المبلغ حتى بدءا يشعران بأن الطفلة عالة عليهما، وبأنهما يُطعمانها لوجه الله، وهي التي تحيا حياة أسوأ من حياة هر، وأفضل قليلاً من حياة كلب، وفي كُل شهر، كان تيناردييه يتسلم رسالة من فانتين وعلى هذا الرأي تطورت مُعاملتهما، فصارت ترتدي من الثياب الخرق البالية التي تتخلف من الطفلتين، وتأكل من الطعام ما يتخلف عن الجميع، وتحيا حياة أسوأ من حياة هر، وأفضل قليلا من حياة كلب، وكانت الأم تطمئن على ابنتها، فيُجيبها على الفور بأن الطفلة على أتم ما يُرام..

وانقضت الأشهر الستة الأولى، وبدأت الأم تُرسل سبعة فرنكات شهرياً بانتظام، وفي نهاية العام الأول، ضرب الرجل الطفلة بقبضة يده وصاح:

- ماذا تريدنا هذه المرأة أن نصنع بسبعة فرنكات؟

وكتب لفانتين يطلب اثنتي عشر فرنكاً شهرياً، واطمأنت الأم إلى أن طفلتها سعيدة موفورة الصحة، فرضخت وبعثت لتيناردييه بما طلب.

لم يقتصر شقاء كوزيت على العري والجوع، بل كانت مدام تيناردييه من أولئك الناس الذين يجمعون بين الحنان والقسوة، ولا يستطيعون أن يحبوا من ناحية، إلا بقدر ما يكرهون من ناحية أخرى. وقد وقفت كل حُبها على طفلتيها، فكان طبيعياً أن تصب كل كراهيتها على الطفلة الغريبة ومما لا شك فيه أنه لولا وجود كوزيت لأصاب الطفلتين من قسوة أمهما مثلما يُصيبهما من حنانهما، ولكن كوزيت وفرت عليهما هذه القسوة، فاحتكرتها لنفسها، واحتكرت الطفلتان الحنان، وكانت تُضرب وتنتهر وتُعاقب من دون سبب، وترى في الوقت نفسه طفلتين مثلها تنعمان بالحياة هانئين سعيدتين، فلا تفهم المسكينة سبباً لشقائها وسعادة الآخرين..

وانقضى العام الأول، وقال أهل قرية «بولانجيه» حيث تقع الحانة، ما أكرم تيناردييه وزوجته، إنهما فقيران، ولكنهما مع ذلك يُعنيان بالطفلة المسكينة التي هجرتها أمها، أما تيناردييه فإنه أدرك بذكائه أن الطفلة لا بد أن تكون ثمرة خطيئة تورطت فيها الأم، وأن الأم يهمها

بطبيعة الحال أن تكتم خطيئتها؛ فكتب لفانتين يطلب خمسة عشر فرنكاً شهرياً، لأن الطفلة تنمو وتترعرع، وتحتاج للمزيد من العناية والطعام، وهدد بإرسالها إليها إذا لم تذعن، فأذعنت الأم وزادت الأجر الشهري إلى ١٥ فرنكاً.

ومرت الأعوام، وترعرعت كوزيت وتضاعف شقاؤها، وراحت مدام تيناردييه تُعاملها كخادمة، فهي التي تُنظف الحانة وتكنس الشارع، وهي التي تغسل الصحاف وتوقد النار في الغُرف، وهي التي تحتطب، واشتد بطش القوم بها، عندما بدأت فانتين تتخلف عن الدفع في الموعد المُقرر، ولو عادت الأم إلى الحانة في نهاية الأعوام الثلاثة الأولى ما عرفت ابنتها، فقد استحالت كوزيت المسكينة إلى هيكل عظمي، وأصبحت تمثالاً حيا للبؤس والشقاء، ولم يبق لها من جمال الطفولة غير عينين ساحرتين يؤلم الإنسان أن ينظر إليهما، وكانتا عينين واسعتين، يطل منهما أكبر جانب من الحزن الذي يعصر حياة الابنة المسكينة، بل كان مما يُمزق قلب الإنسان أن يرى الطفلة التعسة أمام الحانة قبل بزوغ الشمس، وهي ترتعد من شدة البرد، والمكنسة في يدها، والدموع تملأ عينيها الكبيرتين، ولكن ماذا حدث للأم التي يعتقد أهل بولانجيه أنها هجرت ابنتها في حانة تيناردييه؟

وبعد أن غادرت فانتين الحانة، واصلت السير على قدميها حتى بلغت لمونفورميل، مسقط رأسها، ولم تكن قد زارت المدينة، مُنذ غادرتها للمرة الأولى قبل عشرة أعوام، وفي خلال هذه الأعوام العشرة،

وبينما أخذت فانتين في الانحدار من هوة إلى هوة، كانت مونفورميل تنتعش وتزدهر بالتدرج حتى بلغت غاية مجدها قبل عامين، وذلك على أثر وثبة وضعتها بين أولى المدن الصناعية.

اشتهرت مدينة مونفورميل منذ زمن بعيد بصناعة الخرز الأسود والحلي الزجاجية، ولكن إنتاجها كان محدوداً نظراً لقلة المواد الأولية، فلما عادت فانتين إلى مسقط رأسها، أدهشها التطور العظيم الذي طرأ على هذه الصناعة والذي لم يقتصر على مضاعفة الإنتاج فحسب، بل تعداه إلى الصناعة نفسها، فقلبها من أساسها، ويرجع الفضل في تطور هذه الصناعة وانتعاشها لرجل غريب وفد إلى المدينة منذ بضعة أعوام، وخطر له أن يستعيض عن المواد الأولية النادرة بالصموغ والدباغة، وقد نتج عن هذا الابتكار أن قلت نفقات الإنتاج، وأمكن زيادة أجور العمال، وبيع الحُلي بثمن بخس يرتاح إليه المستهلك، ويعود بربح وافر..

ولم تنقض ثلاثة أعوام، حتى أثرى صاحب الابتكار، وانتعشت أسواق المدينة، وشمل الرخاء جميع المتصلين بهذه الصناعة المُبتكرة، ولا يعرف أحد نشأته وماضيه، وكل ما يعلمه الناس من أمره أنه عندما جاء إلى المدينة كان يتكلم بلهجة العُمال، وأنه بدأ مشروعه ببضع مئات من الفرنكات، والظاهر أنه في الليلة التي دخل فيها المدينة وحقيبته على ظهره وعصاه في يده، شبت النار في دار البلدية، واندلعت ألسنتها، وهددت بتدمير المدينة كلها، فجازف الرجل وألقى بنفسه وسط النيران، وأنقذ غلامين ظهر فيما بعد أنهما ابنا رئيس الشرطة، ثم ساهم في إخماد

النار، فلم يُفكر أحد بعد ذلك في الاطلاع على أوراقه الشخصية، وكل ما هنالك أنهم سألوه عن اسمه، فقال إنه يُدعى الأب مادلين..

أدخل الأب مادلين على صناعة الخرز والحُلي المُقلدة ذلك التجديد المُبتكر الذي قال هذه الصناعة القديمة من عثرتها. وأصاب الرجل من ابتكاره ومن نشاطه وجده ربحاً بعد العام الأول من إقامة مصنع جديد كبير، وصار باستطاعة أي عاطل عن العمل أو جائع أن يقصد لهذا المصنع، فيجد على الفور عملاً وطعاماً، ولم يكن الأب مادلين يشترط في العامل غير الأمانة، وفي العاملة غير الطهارة والفضيلة. وقد شطر المصنع إلى شطرين، أحدهما للعمال والآخر للعاملات، وذلك صوناً للفضيلة أن تُمتهن باختلاف الجنسين، وقيل بعد عامين، أن الرجل ادخر ٣٦٠ ألف فرنكا في بنك «لافيت»، والواقع أنه ادخر هذا المبلغ، ولكن بعد أن أنفق نيفاً ومليون فرنك في أعمال الخير، وبعد أن أنشأ مستشفى جديداً، وشيد مدرستين وافتتح ملجأ لعله كان الأول من نوعه في فرنسا، وبالعام الثالث، شاع أن للأب مادلين سعياً كي يكون عُمدة البلدة اعترافاً بفضله على المدينة، فقال حاسدوه الذين اتهموه بالأنانية والجشع:

- ألم نقل ذلك؟

ولكن ما كاد النبأ يُعلن في الجريدة المحلية «مونيتير» حتى اعتذر الأب مادلين ولم يقبل المنصب، وفي ذلك العام أيضاً، عُرض ابتكار الأب مادلين في معرض الصناعات الوطنية في باريس، وحاز الإعجاب،

ومُنح المخترع وسام جوقة الشرف "اللجيون دوتور"، وفي اليوم الخامس، كان من المستحيل على ذي عينين أن ينكر على الأب مادلين خدماته للمدينة ومرافقها وأهلها، واتفق الرأي على أنه أحق الناس بمنصب العمدة، فعُرض عليه هذا المنصب للمرة الثانية فاعتذر، ولكن مدير البوليس لم يقبل اعتذاره، ودار به الناس في الطريق، وألحوا عليه في القبول، وأصر الاب مادلين من ناحيته على الرفض إلى أن سمع إحدى الناس تقول:

- إن من واجب الإنسان ألا يتقهقر أمام أعمال الخير التي يستطيع الاضطلاع بها.

عندئذ فقط، عدل الأب مادلين عن إصراره ورفضه، وعُرف الأب مادلين بالبساطة والتواضع، ولم تغير الثروة أو المنصب من طباعه شيئا، فهو هو بعينه، كما رآه الناس للمرة الأولى، رجل قوي البنية ثاقب النظر، أشيب الشعر، نحاسي البشرة له وجه مُفكر كوجوه الفلاسفة، يرتدي ثوباً أسود يحجب جسمه حتى العُنق، وقبعة سوداء عريضة تحجب جبهته وعينيه، يُحب العزلة وقراءة الكُتب، ويُقيم وحده في منزل عتيق الأثاث، أثمن ما فيه شمعدانان قديمان لعلهما من الفضة، وفي أحد الأيام، نقلت جريدة «مونتير» عن إحدى الصحف الإقليمية نبأ وفاة الأب فرنسوا شارل ميريل أسقف برنيول، وذكرت أنه توفي في الثانية والثمانين من عمره، بعد أن فقد حاسة الإبصار منذ بضعة أعوام، ولوحظ في اليوم التالي لإذاعة هذا النبأ، أن الأب مادلن قد وضع علي قُبعته شارة

الحداد، وفهم الناس من ذلك أن له بالأسقف أصر قرابة، فزاد احترامه، وارتفع قدره في نظر الناس.

وسألته إحدى السيدات ذات يوم:

- لا بد أن سيدي العمدة هو ابن عم المرحوم أسقف برينول؟

- كلا يا سيدتي.

- ولكنك ترتدي شارة الحداد حزناً عليه.

- ذلك أنني كنت في وقت ما خادماً لأسرته.

ومع مرور الأيام، هدأ غضب الحاسدين، وانحسرت ألسنة الفضوليين، وأصبح الأب مادلين موضع ثقة أهل المدينة جميعاً، ولم يبق بالمدينة سوى رجل واحد لم تصل إليه عدوى هذه الثقة، وكانت غرائز هذا الرجل تنفر من احترام الأب مادلين وتتمرد على الثقة به، فإذا وقع بصره عليه جمد في مكانه، وقلب شفتيه، وعقد ساعديه فوق صدره، وشيعه بعيني كعيني الصقر، وقال لنفسه:

- من هو هذا الرجل؟! إنني رأيته قبل الآن، ولكن متى، وأين؟!

كان اسم هذا الرجل جافير، ومهنته مفتش للشرطة، ولم يكن جافير قد رأى بداية الأب مادلين، لأنه جاء لمونفورميل بعد أن شيد مادلين صرح مجده وثروته، ولاحظ جافير أن الهيئة الاجتماعية تنفر من طبقتين من الناس، طبقة العابثين بها وطبقة المُحافظين عليها. ووجد لزاماً

عليه أن يختار لنفسه إحدى هاتين الطبقتين، وشعر في الوقت نفسه بأنه مطبوع على الصلابة وحب النظام، فالتحق بخدمة البوليس، وقضى بعض سنين خدمته حارساً في السجون، وارتقى في سن الأربعين لوظيفة مُفتش، وامتاز جافير بإيمانه العجيب بمبدأين: احترام النظام، وكراهة العصيان، وكان يحترم حُراس النظام والقانون من رئيس الوزراء إلى الخفير ويرى أن السرقة والقتل وغيرهما من الجرائم ضرب من العصيان والتمرد على النظام ويحتقر لحد الكراهة كل إنسان خرق النظام، ولو مرة واحدة بحياته، وكانت شخصيتة تُعبر عن المهنة التي خُلق لها، مهنة الرجل الذي يتوارى عن العيون وكله عيون ترقب الناس. فجبهته مُختفية دائماً تحت قبعته، وعيناه غائصتان تحت حاجبيه، وذقنه متواري في ياقته ويداه مدفونتان في جيبه، وعصاه مُختفية تحت معطفه، فإذا حان وقت العمل برز الرجل من مخبئه وظهرت جبهته الضيقة، ولمعت عيناه بقسوة وخرجت يداه الضخمتان من جيبه.

كان جافير أشبه بعين لا تتحول أبدا عن مادلين، عين تنبعث منها نظرات الشك والارتياب، وأحس مادلين أخيراً بهذه النظرات، ولكنه لم يفهم معناها، ولم يُقم لها وزناً، بل لم يُفكر في اجتنابها أو الفرار منها، وصمد أمامها دون أن يبدو عليه أنه يشعر بها، وظل يُعامل جافير كما يعامل سائر الناس، بالرفق والحسنى والاحترام، ولكن في أحد الأيام، حدث أن ترك سلوك جافير أثراً عنيفاً في نفس الأب مادلين..

فقد اتفق ذات يوم أن كان الأب مادلين يجتاز شارعاً غير مُعبد

مليئاً بالأوحال بعد الأمطار الغريزة التي هطلت في اليوم السابق، فسمع جلبة غير عادية، ورأى في نهاية الشارع جماعة من الناس تبدو عليهم علامات الاضطراب والانزعاج، فقصد إليهم، وهناك رأى جواداً مُلقى على الأرض وشيخاً مُتقدما في السن يئن تحت عربته التي انقلبت فوقه، وكان هذا الشيخ يدعى فوشليفان، وهو أحد الأعداء القليلين الذين ظلوا يبغضون الأب مادلين حتى ذلك اليوم، لا لشيء إلى لأن الأب مادلين أثرى بعد افتقار، واحتل في المدينة تلك المكانة الرفيعة بعد أن كان نكرة لم يشعر به أحد وذلك في الوقت الذي أضاع فيه فلوشليفان مركزه وثروته، وانحدر من كاتب عقود لرجل مُفلس لا يجد قوت يومه، واضطر إلى استخدام مركبته وجواده لنقل ما يُطلب إليه نقله.

وكان الجواد قد انزلق فانكسرت ساقاه، وعجز عن الوقوف بينما مكثت العربة بحملها الثقل فوق صدر الشيخ فغرزته في الأوحال، وأنّ الشيخ أنيناً مُزعجاً، وحاول بعض المارة إخراجه من مأزقه واجتذابه من تحت العربة، فذهبت محاولاتهم أدراج الرياح، وكي يخرج لا بد أن تُرفع العربة من مكانها، وكان جافير قد وصل لمكان الحادث، فأرسل في الحال في طلب رافعة لرفع العربة، وأبصر الناس الأب مادلين وهو يقترب، فأفسحوا له الطريق في احترام، وصاح فوشليفان:

- النجدة! أليس بينكم رجل كريم ينقذ شيخاً من الهلاك؟

وأجال مادلين البصر حوله، وسأل:

- أليس لديكم رافعة؟

فأجاب أحد الناس:

- لقد أرسلنا في طلبها.

- متى ستأتي؟

- بعد ربع ساعة على الأقل، سيؤتي بها من حانوت «هانشيد» الحداد.

فهتف الأب مادلين في ذعر:

- بعد ربع ساعة!؟

كانت العربة قد انقلبت في حفرة مليئة بالأوحال، فأخذت عجلاتها تغوص بالتدريج وضغط العربة يشتد على صدر الرجل، وكان من الواضح أنها ستُحطم ضلوعه وتكتم أنفاسه قبل انقضاء خمس دقائق أخرى، فصاح الأب مادلين وهو ينظر حوله:

- من المُستحيل الانتظار ربع ساعة أخرى، أصغوا إلي، لا يزال تحت العربة مُتسع لجسم آخر، أفلا يستطيع أحدكم أن ينزلق تحت العربة ويرفعها فوق ظهره؟ فهذه العملية لا تستغرق نصف دقيقة، وعندئذ يُمكن اجتذاب هذا الشيخ التعس، أليس بينكم رجل قوي العضلات؟ أليس بينكم من يريد أن يربح عشرة جنيهات؟

فأطرق السامعون برءوسهم وقال قائل:

- يجب أن يكون الإنسان قوياً جداً، لكي يرفع هذه العربة، ثم إنه سيكون عُرضة لأن يتهشم جسمه.

قال مادلين مرة أخرى:

- عشرون جنيهاً لمن يؤدي هذا العمل الكريم.

فساد الصمت.

قال جافير:

- إن القوم هنا لا تعوزهم الشجاعة وحسن النية بقدر ما تعوزهم القوة، والرجل يجب أن يكون على جانب عظيم من القوة البدنية لكي يتمكن من رفع هذه العربة فوق صدره.

ثم نظر إلى الأب مادلين بحدة، وقال ببطء كمن يُريد أن يؤكد كل كلمة ينطق بها:

- يا مسيو مادلين، إنني لم أر في حياتي غير رجل واحد يستطيع الاضطلاع بمثل هذه المهمة.

فرفع مادلين رأسه بحدة، واستطرد جافير بقلة اكتراث، ودون أن ينظر في عيني مادلين. وقد كان هذا الأخير سجيناً في ليمان طولون فامتقع وجه مادلين، وفي هذه الأثناء كانت العجلات تغوص في الأوحال، فصاح فوشليفان:

- إنني أختنق، إن ضلوعي تتمزق.. يا إلهي! أين الرافعة؟

فنظر مادلين حوله وهتف مرة أخرى:

- ألا يوجد رجل على استعداد لأن ينقذ هذا الشيخ ويربح عشرين

جنيها؟

فلزم الجميع الصمت، وقال جافير مُردداً:

- إنني لم أر بحياتي رجلاً يستطيع ذلك إلا ذلك السجين

فصاح فوشليفان:

- رباه! إن جسمي يتهشم.

فرفع مادلين رأسه، والتقت عيناه بعيني جافير اللتين ترمقانه كأنهما عينا صقر، ثُم تنهد في حزن، وركع على ركبتيه دون أن ينطق بكلمة أخرى، وقبل أن يُدرك الناظرون غرضه كان قد انزلق تحت العربة وانقضت لحظة انتظار مخيفة، وحاول الأب مادلين، وهو مُنبطح على بطنه، أن يرفع العربة فوق ظهره، وأن ينهض على يديه وركبتيه، وكرر هذه المحاولة مرة أخرى ولكن بغير جدوى، وصاح الناظرون:

- أخرج أيها الأب مادلين..

وقال فلوشليفان نفسه:

- اخرج ودعني أيها الأب مادلين، لقد أصبح موتي مُحققا، فلا تقتل تفسك معي.

فلم يُجب مادلين، وظلت العجلات تغوص بالتدريج، وصار من المستحيل على الأب مادلين نفسه أن يخرج من تحت العربة، وفجأة اهتزت العربة بعنف، وبدأت العجلات ترتفع من الأوحال، وهتف صوت مُختنق:

- النجدة.. أسرعوا!

كان ذلك صوت مادلين وهو يبذل جُهداً أخيراً، فهجم القوم على العربة، لأن شجاعة الرجل الواحد تُثير شجاعة الآخرين، وهكذا امتدت عشرات السواعد المفتولة، ورفعت العربة، فنجا فوشليفان، وبرز مادلين شاحب اللون، والعرق يتصبب على جبينه، وقد تمزقت ثيابه، وتلطخت بالأوحال، وأقبل فوشليفان على مُنقذه، وراح يُقبل ركبتيه، فيما تحول مادلين لجافير، ونظر إليه بهدوء وسكينة، وعلى وجهه مسحة من الألم النبيل، وأمر فنُقل فوشليفان للمشفى لمُعالجته، وفي صباح اليوم التالي، وجد فولشليفان في فراشه ورقة مالية ذات ألف فرنك، ورقعة بخط الأب مادلين عليها هذه الكلمات: «ثمن العربة والجواد اللذين ابتعتهما»

واندملت جراحه، ولكنه أصيب بعرج، فاستعان مادلين بقس المدينة، وأوجد لفوشليفان عملاً كبستاني في دير سان أنطوان بباريس.

الفصل الثالث

الهاوية

عادت فانتين لمونفورميل فلم تجد هناك من يتذكرها أو يعرفها، ومن حُسن حظها أنها وجدت مصنع الأب مادلين مفتوحاً أمامها كساعدي الصديق الحميم، وتقدمت إليه وطلبت عملاً، فأُرسلت في الحال لقسم العاملات، وكانت المهنة غريبة عليها، فمُنحت أجراً قليلاً يوازي خبرتها وإنتاجها، ولكنها قنعت بهذا الأجر، لأنها وجدت فيه الكفاية، واغتبطت الفتاة المسكينة حين شعرت بأنها تستطيع أن تعيش من كدها وعرق جبينها، وعاودها نشاطها السابق، وانتعشت فيها الرغبة في العمل، فابتاعت مرآة صغيرة لتنعم فيها بتأمل شبابها الغض وشعرها الذهبي وأسنانها اللؤلؤية.

ونسيت في غبطتها أشياء كثيرة، وأصبح كل تفكيرها مُنصبا على صغيرتها كوزيت، وعلى السعادة التي تستطيع أن توفرها لها من أجرها المحدود، واستأجرت غرفة صغيرة، وجليت لها أثاثا وعدت أن تدفع ثمنه من أجرها على أقساط، ولما لم يكن في استطاعتها أن تزعم أنها مُتزوجة، فإنها حرصت كل الحرص على كتمان أمر ابنتها، وراحت تُرسل إلى تيناردييه – بانتظام – الأجر الذي اتفقا عليه، وكان اسمها هو الكلمة الوحيدة التي تعرف كيف تكتبها، فاضطرت أن تلجأ لأحد الكتبة

العموميين، ولوحظ عليها ذلك بالمصنع فتهامست بعض الخبيثات، إن فانتين تكتب بانتظام إلى صاحب حانة في بولانجيه، ومن سوء حظها أن الكاتب العمومي كان من أولئك الذين لا يملأون بطونهم بالخمر دون أن يفرغوا جُبعتهم من الأسرار، وكانت النتيجة أن ذاع بين العاملات في المصنع أن لفانتين ابنة، ودفع الفضول إحدى العاملات فتطوعت للسفر إلى بولانجيه، وعادت تقول إنها رأت الطفلة بعيني رأسها، على أن ذلك كله استغرق وقتاً، وفي أحد الأيام بعد أن قضت فالنتين في المصنع أكثر من عام، جاءت رئيسة العاملات وأعطتها خمسين فرنكا باسم مادلين، عمدة المدينة، وصاحب المصنع، وقالت لها:

- إن المصنع في غنى عن عملك، وإن العمدة ينصحك بمغادرة المدينة.

حدث ذلك في الشهر نفسه الذي حتم فيه تيناردييه أن يكون الأجر خمسة عشر فرنكاً بدلاً من اثني عشر، فذُعرت فالنتين، ولم يكن في استطاعتها أن تبرح المدينة فهي تدين لصاحب المنزل ببعض المال، ولم تدفع من ثمن الأثاث غير القليل، والفرنكات الخمسون لا تكفي لسداد هذه الديون، فغمغمت ببضع كلمات على سبيل التوسل والاستعطاف، ولكن رئيسة العاملات طلبت إليها في خشونة أن تبرح المصنع في الحال، لأن المصنع ليس بحاجة إلى فتيات من طرازها، وانصرفت فالنتين، والعار يكاد يسحق جسمها النحيل، إذا قد افتضح أمرها، وعرف الجميع زلتها، فماذا تفعل؟ نصحتها إحدى صديقاتها أن

تُقابل العمدة وتستعطفه وتثير عاطفة الرحمة في نفسه الكريمة، ولكنها خجلت أن تفعل ذلك، وبعد.. ماذا تستطيع أن تقول له؟ ألا يكفي أن الرجل أعطاها خمسين فرنكاً على سبيل الإحسان؟! ثُم أليس الرجل حُراً في تطهير مصنعه من مثيلاتها؟ ولكن في الواقع إن الأب مادلين لم يكن يعلم من أمرها شيئاً، فإنه اعتاد أن يتجنب قسم العاملات، وقد أناط هذا القسم بامرأة جاءه بها القس وأوصاه بها خيراً، فأولاها ثقته، وترك لها حُرية التصرف، وقد ظنت هذه المرأة حين اتهمت فانتين وحاكمتها، وعرفت أمرها، أنها لم تفعل إلا ما يقضي به الواجب براً بالثقة التي وضعها مادلين فيها.

أما الخمسون فرنكا التي قدمتها إلى فانتين، فإنها اقتطعتها من مبلغ وضعه الأب مادلين بين يديها، ووقفه على عمل الخير والإحسان، ولم يكن لزاماً عليها أن تُقدم عنه حساباً، وحاولت فانتين أن تجد عملاً في أحد المنازل، ولكن الناس جميعاً تجنبوها، ونفضوا أيديهم منها، ولم تستطع مغادرة المدينة، فقد قال لها صاحب الأثاث:

- إذا حاولت الفرار، أبلغت أمرك إلى الشرطة كأنك سارقة.

وقال لها صاحب المنزل:

- إنك ما زلت صغيرة وحسناء، وباستطاعتك الدفع.

وزعت فانتين الفرنكات الخمسين بين صاحب المنزل وصاحب

الأثاث، واشتغلت بتطريز القمصان لجنود حامية المدينة، لقاء أجر زهيد لا يكاد يشبع جوعاً، وفي هذه الفترة، بدأ تخلفها عن إرسال النقود إلى تيناردييه، ولما قل ربحها، اضطرت أن تُشرك معها في الغرفة عجوزاً تُدعى مرجريت، وشعرت بالحنين إلى ابنتها، وخطر لها وسط هذا الشقاء أن ترسل في طلبها، ولكن كيف تأتي بها وهي تدين لتيناردييه بمبلغ جسيم، ولا تملك أجر المركبة التي تحمل إليها ابنتها؟! وكانت فانتين قد طردت من المصنع في نهاية الشتاء، فانقضى الصيف، وعاد الشتاء التالي حيث يتجمد ماء السماء، وتتحجر قلوب الناس، فضيق الدائنون الخناق على المرأة التعسة، لأن أرباحها تضاءلت، وديونها تضاعفت، وفي الوقت نفسه اشتد إلحاح تيناردييه، وتوالت رسائله، وكتب إليها في أحد الأيام يقول إن كوزيت عارية البدن، وإنها إذا أرادت أن تنقذ ابنتها من الموت برداً، فعليها أن تسارع إلى إرسال عشرة فرنكات على الأقل ثمناً لثوب من صوف، وقد ظلت فانتين ممسكة بهذه الرسالة طوال النهار. ولما هبط الليل قصدت إلى حانوت حلاق في ركن الشارع، وحلت جدائلها فانسدل شعرها البديع حتى مسّ فخذيها، فهتف الحلاق:

- ما أجمل هذا الشعر!

- كم تدفع ثماً له؟

- عشر فرنكات.

- قُصه إذا.

وابتاعت لابنتها ثوبا من الصوف بعثت به إلى تيناردييه، وأرغى تيناردييه وأزبد، لأنه كان يُريد الفرنكات العشر. وأعطى الثوب لابنته الكبرى، وظلت كوزيت ترتعد من البرد، وقالت فانتين لنفسها:

- لن تشعر ابنتي بقساوة البرد بعد الآن، فقد كسوتها بشعر رأسي.

ووضعت على رأسها قلنسوة صغيرة، أخفت جمجمتها الملساء التي لم تُقلل كثيراً من جمالها، ولما وجدت أنها لا تستطيع بعد الآن أن تعقص شعرها الجميل، تبدل شعورها، وأظلمت نفسها، وبرمت بالحياة، وبدأت تكره كل شيء حولها، فقبلا كانت تشاطر الناس احترامهم للأب مادلين، فلما طردها، أو توهمت أنه طردها، وكان سبباً في شقائها، استحال احترامها إلى احتقار، وحبها إلى كراهة، وأصبحت أشد مقتاً له من ألد أعدائه، فإذا مرّ بها بصقت على الأرض، وإذا مرّت ببابه ضحكت ساخرة، أو ترنمت بأغنية، وأبصرتها إحدى عجائز المصنع ذات ليلة وهي تغنى، فقالت:

- هذه الفتاة ستنتهي إلي أسوأ مصير.

واتخذت فانتين لنفسها عشيقاً من أول رجل راودها عن نفسها، رغم أنها لا تحبه، ولكنها فعلت ذلك غيظاً وغضباً، لتُسكت العاملات اللائي شمتن بشقائها وبؤسها، ولكن عشيقتها كان وغداً يُشبعها ضرباً،

فهجرته مشمئزة كما قبلته مشمئزة، ومحا الشقاء كل عاطفة نبيلة في نفسها إلا عاطفة الحنان والأمومة، وكانت تحب ابنتها كثيراً، وكلما انحدرت في قرارة الهاوية، تألق هذا الحب وأضاء جوانب نفسها المُظلمة المُفعمة باليأس والحنق، وقالت لنفسها: "متى أصبحت غنية، فإنني أبعث في طلب ابنتي كوزيت، ونعيش معاً، ولن تستطيع أية قوة أن تُفرق بيننا بعد ذلك".. وضحكت وسعلت.

بأحد الأيام، تسلمت فانتين رسالة من تيناردييه يقول فيها:

"لقد أصيبت كوزيت بالحمى الصفراء، والعقاقير الطبية قد كلفتنا كثيراً، ولم يعد في استطاعتنا دفع ثمنها بعد الآن. وإذا لم ترسلي أربعين فرنكاً قبل انقضاء أسبوع ماتت ابنتك".

قرأت فانتين هذه الرسالة، وانفجرت ضاحكة، ثم خرجت إلى الشارع وهي لا تزال تضحك وتغني، وسألها سائل عن سبب مرحها وسرورها فأجابت:

- أتسألني عما يُضحكنيّ؟! إن أحدهم يطلب مني أربعين فرنكاً فهل سمعت بأعجب من هذا؟!

مرت بسوق المدينة، ورأت جماعة من الناس يدورون بمركبة كبيرة قد وقف فيها رجل يرتدي ثوباً أحمر، وكان الرجل طبيب أسنان مُتجولاً، وكان يعرض على الجمهور العقاقير المُسكنة والمساحيق والأسنان

الاصطناعية ويُغري الناس بخلع أسنانهم المُتداعية، وأصغى الناس لحديثه اللبق وضحكوا وضحكت فانتين، فأبصر الطبيب أسنانها اللؤلؤية وهتف:

- ما أبدع أسنانك أيتها الحسناء الضاحكة! إذا فكرت في الخلاص من سنيك الأمامتين، فإنني على استعداد لأن أدفع جُنيهاً ثمنا لكل سن.

فهتفت فانتين بدورها:

- يا له من خاطر مُخيف!!

وقالت امرأة عجوز لها فم الطفل الرضيع:

- جنيهانّ ما أسعد هذه الفتاة!

فرت فانتين ووضعت أصابعها بأذنيها، لكي لا تسمع صوت الطبيب وهو يصيح في أثرها:

- فكري في الأمر أيتها العزيزة. جنيهان أفضل في هذا الزمن من الأسنان. وإذا وافقت فإنني في انتظارك الليلة في حانة «بياك دارجان».

عادت فانتين لغرفتها وهي تتميز غيظاً وغضباً وحدثت مرجريت بما حدث، وصاحت:

- هل رأيت في حياتك رجلاً أشر من هذا الطبيب؟! يُريد الشقي أن

ينتزع السنتين الأماميتين من فمي لكي أبدو قبيحة دميمة مُخيفة المنظر، الخير لي أن ألقى بنفسي من النافذة وأموت، ذلك أفضل ألف مرة من ضياع أسناني.

فسألتها مرجريت:

- وما الثمن الذي عرضه عليك؟

- إنه عرض عليَّ جنيهين.

- أي أربعين فرنكاً.

وهنا ظهرت على وجه فانتين علامات الهم والتفكير. وتناولت رسالة تيناردييه، وأعادت قراءتها، ثم قالت: .

- هل تعرفين ما هي الحُمى الصفراء؟ وهل تتكلف هذه الحمى كثيراً من العقاقير والأدوية؟

- أظن ذلك.

- وهل تعتقدين أن هذه الحمى تصيب الأطفال؟

- إنها تفتك بهم أشد مما تفتك بالكبار.

فأعادت فانتين قراءة الرسالة. ولما هبط الليل تسللت من غرفتها

وخرجت إلى الشارع، وفي الصباح، دخلت مرجريت إلى غرفة فانتين لتوقظها كالمعتاد لأنهما كانتا تشتغلان بالتطريز معاً، ولكنها وجدتها جالسة في فراشها وخُيل إليها أنها كبرت في تلك الليلة عشرة أعوام، فهتفت:

- يا إلهي ماذا دهاك يا فانتين؟!

- إنني في خير حال. ولكن الحاجة إلى الأدوية والعقاقير الطبية سبباً في موت ابنتي بالحمى الصفراء، إنني مُطمئنة ناعمة البال.

قالت ذلك، وأشارت إلى جنيهين يلمعان فوق المائدة، وابتسمت، ولكنها كانت ابتسامة مُخيفة، فقد انفجرت شفتاها عن هوة عميقة مُظلمة، ومال من ركن فمها خيط من الدم، وأرسلت أربعين فرنكا إلى تيناردييه. وفرك تيناردييه كفيه ارتياحاً لأن كوزيت لم تكن مريضة، فقذفت فانتين بمرآتها من النافذة، واستعاضت عن غرفتها الفسيحة بركن مُظلم في الطابق الأرضي، وأفقدتها العجز خيلاءها، كما أفقدها حياءها، فراحت تسير في الشارع في خرق مُهلهلة، إما لإهمالها وإما لضيق وقتها، واستبد بها الدائنون، فكانوا يُرابطون لها في الشارع، ويقتحمون عليها غرفتها، واشتد عليها وطأة السُعال، وشعرت بألم مزمن كامن تحت ضلعها الأيسر، ولكنها ظلت تعمل سبع عشرة ساعة في النهار، إلى أن خطر لذوي الشأن أن يستخدموا السجينات لصنع أقمصة الجنود، وعندئذ سُدت في وجهها جميع أبواب الرزق، وفيما هي في هذا الضيق

القاتل، إذ بها تتسلم رسالة من تيناردييه يقول فيها إنه انتظر طويلاً، حتى ضاق صدره، وإنها إذا لم تبعث إليه بمائة فرنك في الحال، فإنه يُلقى ابنتها – التي لم تبرأ من مرضها بعد – على قارعة الطريق.

قرأت فانتين هذه الرسالة وهتفت:

- مائة فرنك.. يا إلهيّ أين المهنة التي أستطيع أن أربح منها مائة سنتيم في اليوم؟! يجب أن أبيع كُل ما تبقى

ونزلت الفتاة التعسة للشارع لتعرض للبيع أثمن ما تحرص عليه المرأة الشريفة.

الفصل الرابع

الملاك

بعد ثمانية أو عشرة أشهر، في ليلة شديدة البرد والصقيع، كان أحد المتبذلين يسير متسكعاً في الطريق، وقد دس يديه السمينتين في جيوب معطفه السميك، ووقع بصره على امرأة تسير جيئة وذهاباً، أمام نافذة مقهى الضُباط، وكانت المرأة ترتدي ثوباً رقيقاً كثياب المراقص، ينحسر عن صدرها، ويكشف عن ساعديها، وكانت من أولئك المخلوقات التعسات اللائي يتسللن تحت جنح الظلام وتتسكع أمام المقاهي والحانات، لتُغري المارة وتلفت إلى نفسها الأنظار، وأراد الرجل أن يداعبها ولكنه كان سمجاً، فكانت دُعاباته كالقذائف، فقال لها:

- ما أشد بشاعتك! أليست لك أسنان؟!

لم تلق المرأة إليه بالاً، بل لم تنظر إليه. واستمرت تروح وتجيء بانتظام، فوق الأرض المُغطاة بالثلوج، ومضى الرجل في وقاحته، وراح يرميها بوابل من السُخرية اللاذعة والدعابات السمجة، وكأنما ضايقه ألا تحفل المرأة به، فانتظر حتى دارت على عقبيها، ثم تسلل وراءها بخفة، والتقط حفنة من الثلج، ودسها بين كتفيها العاريين، وأفلتت من فم المرأة صرخة مُزعجة، ووثبت على الرجل كالفهد وراحت تغرز أظافرها في وجهه بوحشية، وتُرسل من فمها المُجرد من الأسنان سيلًا من الشتائم، بصوت

أكسبته الخمر خشونة مُخيفة، كانت هذه المرأة فانتين. وكان الرجل من الموسرين المعروفين في المدينة، ويُدعى «باماتابوا»، وامتلأ الجو بصراخ المرأة، وشتائم الرجل، فازدحم المارة وخرج الضباط من المقهى، ودار الجميع بالرجل والمرأة وراحوا يُصفقون ويضحكون.

كان الرجل يحاول عبثاً أن يتخلص من براثن المرأة، وقد سقطت قبعته، وتهدلت ثيابه. والمرأة تضرب بيديها، وتركل بقدميها وقد انكشف رأسها، فبدت بلا شعر، وانفجرت شفتاها، فبدت بشعة مقيتة مخيفة، وفجأة برز رجل طويل القامة، وراح يشق طريقه وسط الزحام حتى وصل إلى حيث كانت المرأة، فأمسك بثوبها الحريري المُلوث بالأوحال وقال لها بلهجة الآمر:

- اتبعيني.

رفعت المرأة رأسها، وأبصرت الرجل، فاختنق صوتها وشحب لونها وارتجفت خوفاً وفزعاً، وعرفت في هذا الرجل المفتش جافير، أما غريمها فإنه انتهز تلك الفرصة، وتوارى عن الأنظار، وسار جافير نحو مكتب الشرطة، وهو مُمسك بثوب المرأة، وتبعته المرأة كالآلة الصماء، ولم ينطق أحدهما بكلمة، وكان مكتب الشرطة قائماً في غرفة ضيقة، مُنخفضة السقف، لها باب من زجاج يحرسه شرطي مُسلح، فدخل جافير تلك الغرفة، واجتذب فانتين، وأغلق الباب في وجه الفضوليين الذين تبعوهما، وقبعت فانتين بأحد أركان الغرفة كالكلب المذعور، وجلس

جافير أمام مكتبه وتناول ورقة وقلماً، وراح يكتب، وفي ذلك العهد كانت مصائر هذه الطبقة من النساء رهن إرادة رجال الشرطة، وكانت القضية واضحة، فهناك بغي تحرشت بأحد المارة، واعتدت عليه وشهد مفتش الشرطة بعينه هذا العنوان، واستمر جافير يكتب وهو صامت، ثم ذيل الورقة باسمه، وطواها وقدمها لأحد رجال الشرطة قائلاً:

- اذهب بها إلى السجن.

وتحول إلى فانتين وأردف:

- ستقضين في السجن ستة أشهر.

فرفعت الفتاة التعسة رأسها في دهشة، وصاحت:

- ستة أشهر في السجن، حيث لا أربح سوى سبعة سنتيمات كل يوم؟ وماذا يكون من أمر كوزيت؟ ماذا يكون من أمر ابنتي؟ ثم إنني أدين لتيناردييه بمائة فرنك ونيف، أفتعلم ذلك يا سيدي.

وعقدت يديها فوق صدرها متوسلة، واجتازت الغرفة سيراً على ركبتيها حتى وصلت إلى مكتب المفتش وهتفت:

- أسألك الرحمة يا مسيو جافير. أؤكد لك أنني لم أذنب. لو أنك رأيت البداية لاقتنعت بأنني لم أذنب. إنني لا أعرف هذا الرجل، وقد وضع الثلج بين كتفي، فجن جنوني، وقبل ذلك كان يهزأ بي، ويسخر مني،

فقلت لنفسي: صبراً، هذا رجل يريد أن يلهو، فلا ضير عليه. ولزمت جانب الصمت. ولكنه مضى في عبثه وبغيه، حتى وضع الثلج بين كتفي، ألا يوجد من يشهد على صدق كلامي يا مسيو جافير؟ إنني أخطأت حين وطئت قبعة الرجل وأتلفتها، ولكن أين ذهب الرجل؟ إنني على استعداد أن أطلب منه الصفح والمغفرة.. اعف عني هذه المرة يا مسيو جافير! لا شك أنك لا تجهل أن السجين لا يربح أكثر من سبعة سنتيمات، ويجب عليّ أن أدفع مائة فرنك، وإلا طردت ابنتي، وتركت على قارعة الطريق.. أواه يا كوزيتّ يا ابنتي العزيزةّ ماذا يكون من أمرك أيتها الصغيرة المسكينة؟! رحمة بي يا مسيو جافير.

- لقد أصغيت، اذهبي الآن.. ستقضين في السجن ستة أشهر.

وأولاها ظهره، فاقترب الشرطي من الفتاة وأمسك بساعدها، وكان الباب قد فُتح في هدوء قبل بضع دقائق ودخل منه رجل لم يشعر به أحد، وقد وقف هذا الرجل لصق الباب، فحجبه جسم الشرطي من عيني جافير، وسمع الرجل توسلات فانتين وضراعتها، ولم يأت بحركة أو ينطق بكلمة، ولما أمسك الشرطي ساعد الفتاة واجتذبها بعنف، والفتاة تأبى أن تنهض من مكانها، برز الرجل من الظلام، وقال مُحدثا الشرطي:

- أرجوك أن تنتظر لحظة.

نظر جافير إلى المتكلم، وعرف فيه الأب مادلين، فرفع قبعته

وأحنى قامته في احترام وغمغم:

- طاب مساؤك يا سيدي العمدةّ

أحدثت كلمة العمدة تأثيراً عجيباً في فانتين، فإنها نهضت من مجتمعها في الحال كأنها شبح يبرز من الأرض، وانتزعت ساعدها من قبضة الشرطي بقوة، ووثبت لحيث كان الأب، فرمقته بنظرة وحشية وهتفت:

- أهذا أنت أيها العمدة؟!

وقهقهت ضاحكة، وبصقت على وجهه، فمسح الأب مادلين وجهه بيده، وقال:

- أيها المفتش جافير أطلق سراح هذه المرأة.

مرت بجافير لحظة خيل إليه فيها أنه سيفقد عقله، أتبصق بغي على وجه العمدة؟ تلك في نظره جريمة مُستحيلة الوقوع، ولما رأى العمدة يمسح وجهه في هدوء وسمعه يقول: أطلق سراح هذه المرأة. استولى عليه ذهول ألجم لسانه، وشل تفكيره، وجعله يجمد في مكانه كالصنم، وكذلك أحدثت عبارة العمدة تأثيراً عجيباً بفانتين، فرفعت ساعديها العاريين، وتعلقت بالباب كمن يخشى السقوط، ثُم أجالت حولها نظرة شاردة، وراحت تقول بصوت خافت:

- أنا حرة طليقةٌ ولن أقضي في السجن ستة أشهر؟! من ذا الذي قال ذلك؟ لا يمكن أن يكون القاتل هو هذا العمدة الشرير. أنت الذي قلت ذلك يا مسيو جافير الطيب القلب. سأصارحك إذاً بالحقيقة، وستُطلق سراحي. لقد كان هذا العمدة الأثيم علة مصائبي، فإنه أصغى إلى وشاية الواشين فطردني من مصنعه، ومنذ ذلك العهد لم أربح ما يكفيني، وبهذه المُناسبة يجب أن ألفت رجال الشرطة إلى أمر جدير بالاهتمام، وهو ضرورة منع نزلاء السجون من الإضرار بأرزاق الفقراء. فالنساء في السجون يصنعن أقمصة الجند بأجر زهيد جعل عملنا مُستحيلا، وقد كان يتعين عليَّ أن أنفق على ابنتي الصغيرة كوزيت. فاضطررت أن أسلك طريق الفساد وأضرب بالشرف عرض الأفق، وجريمتي الآن هي أنني وطئت بقدمي قُبعة ذلك الرجل. ولكن الرجل أتلف ثوبي بالثلج الذي دسه في ظهري. ومثيلاتي لا يملكن في الغالب غير ثوب واحد. وأؤكد لك يا مسيو جافير أنني لم أتعمد قط الإضرار بأحد، وإني أعرف نساء أشد مني رداءة، ولكنهن أسعد مني حظاً، فهلا قُلت إنني حرة طليقة يا مسيو جافير؟

أصغى إليها الأب مادلين بانتباه شديد حتى فرغت من الكلام فسألها:

- قلت إنك مدينة ببعض المال، فكم يبلغ دينك؟

فتحولت إليه فانتين وهتفت:

- هل تحدثت إليك؟

ثُم نظرت إلى الشرطي واستطردت:

- حدثني أيها الشرطي، ألم تر كيف بصقت على وجهه؟ إنك جئت لتُخيفني أيها العمدة الشرير، ولكني لا أخشاك، ولا أخشى أحداً غير مسيو جافير الطيب القلب.

نظرت إلى المفتش مرة أخرى وأردفت:

- لقد أدركت الآن أنك رجل منصف يا مسيو جافير، والواقع أن الحادث في غاية البساطة، فقد وضع الرجل الثلج بثوبي لإضحاك الضابط في المقهى، وللضبّاط كل الحق في أن يلهوا ويضحكوا، فنحن معشر النساء لم نُخلق إلا لإدخال المسرة إلى قلوب الرجال. وحضرت أنت في هذه الأثناء يا مسيو جافير، ولما كان الواجب يقضي عليك بأن تصون الأمن والنظام، فإنك جئت بي إلى هنا، ظناً منك أنني المخطئة. ثم فكرت في الأمر، وتبينت الحقيقة، فأطلقت سراحي، من أجل ابنتي الصغيرة، لأن وجودي في السجن يغل يدي، ويمنعني من أن أعولها، وإنني أعاهدك يا مسيو جافير ألا أفعل في المستقبل ما يستوجب إحضاري لهنا، وليفعل بي الناس ما شاءوا، فلن أتذمر ولن أحرك ساكنا، وإذا كانت الليلة قد صرخت، وأحدثت هذه الضجة، فما ذلك إلا برودة الثلج أزعجتني، وأنا مريضة كما يجب أن تعلم إنني أسعل باستمرار وأشعر كأن ناراً تستعر بصدري، ناولني يدك

أدلك على موضع الألم، ولا تخف.

تناولت يده الخشنة، ووضعتها على صدرها الضعيف وهي تبتسم، ثُم أصلحت ثوبها بسرعة، وقصدت إلى الباب، وقالت وهي تُحيي الشرطي بابتسامة:

- لقد قال مسيو جافير أنني أستطيع الانصراف، وها أنذا أنصرف.

وألقت بيدها على مقبض الباب وهمت بالخروج، وكان جافير حتى هذه اللحظة مُطرقاً رأسه لا يُبدي حراكاً، فلما سمع مقبض الباب يتحرك، رفع رأسه كمن يستيقظ من نوم عميق، وصاح بالشرطي بلهجة صارمة:

- أيها الشرطي ألا ترى أن المرأة تهم بالفرار؟ من ذا الذي أمرك بإطلاق سراحها؟

فقال مادلين:

- إنني أمرته.

وسمعت فانتين صوت جافير، فارتجفت وتركت مقبض الباب، ثُم سمعت صوت مادلين فتحولت إليه، ولم تنطق بكلمة بعد ذلك، بل راحت تنقل البصر بين مادلين وجافير كلما تكلم أحدهما، وقال جافير:

- يا سيدي العمدة، ذلك لا يمكن أن يكون، فهذه المخلوقة قد أهانت

رجلاً محترماً.

فأجاب مادلين بصوت هادئ رقيق:

- أصغ إليَّ يا مسيو جافير. إنك رجل أمين، ويقيني أنني لن أجد صعوبة بإقناعك. والحق أنني مررت بمكان الحادث بعد انصرافك بهذه الفتاة، فرأيت زحاماً فاستفسرت عن سببه وعرفت الحقيقة، لقد كان الرجل مُخطئاً، وكانت العدالة تقضي بأن تقبض عليه بدلاً منها.

- لكن هذه المخلوقة التعسة قد أهانتك سيدي العمدة منذ لحظة.

فأجاب مادلين:

- ذلك من شأني وحدي.

- عفواً يا سيدي! إنها جريمة ليست من شأنك ولكنها من شأن المحكمة.

فقال مادلين:

- يا مسيو جافير، إن الضمير هو المحكمة العليا. لقد سمعت كلام المرأة، وإني أعرف ما أنا صانع.

- أما أنا يا سيدي العمدة فإنني لا أكاد أفهم ما أرى.

- في هذه الحالة يكفيك أن تُطيع.

- إنني أطيع واجبي الذي يقضي بأن أرسل هذه المرأة للسجن ستة أشهر.

فأجاب مادلين في لطف:

- أصغ إليَّ جيداً يا مسيو جافير. هذه المرأة لن تقضي في السجن يوماً واحداً!

وسمع جافير هذه الكلمات الحاسمة فنظر إلى العمدة بحدة قائلا:

- يؤسفني أن أعارضك، وهذه أول مرة بحياتي أعارض فيها أحد رجال السلطة، ولكني أرجو أن تلاحظ أنني لم أتخط حدود واجباتي فهذه المرأة قد أهانت مسيو باماتابوا، وهو رجل معروف يملك ذلك القصر الشاهق الكائن بأطراف المدينة، وأثبتُ في هذه القضية إذا من اختصاص شرطة المدينة وأنا مُصر على معاقبة هذه المرأة.

فعقد مادلين ساعدين فوق صدره، وقال بصوت صارم لم يسمعه أحد في المدينة من قبل:

- بل إن هذه القضية من خصائص شرطة الضواحي، لأن الرجل يقطن طرف المدينة. والمواد ٩و ١١و١٥و ٦٦ من قانون العقوبات تجعل من حقي وحدي أن أقضي فيها، وقد قضيت بإطلاق سراح المرأة.

حاول جافير أن يبذل مجهوداً أخيراً وقال:

- ولكن يا سيدي العمدة.

فقاطعه مادلين:

- وإني ألفت نظرك إلى المادة ٨١ من القانون الصادر في ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ بشأن حجز الأبرياء بغير حق.

- عفواً يا سيدي.. أرجو أن تسمح لي.

- إنني لا أسمح لك أن تزيد كلمة أخرى.

- ومع ذلك.

- أترك هذه الغرفة.

فأحنى جافير قامته باحترام عظيم وانصرف. كانت فانتين لا تزال واقفة بالباب ترقب ما يحدث وهي ذاهلة، مذعورة، شهدت ذلك النضال العجيب بين رجلين يسيطران على مصيرها، وبين أيديهما حريتها وحياتها، ومصير ابنتها، وسمعت أحد الرجلين يتكلم كالشيطان والآخر يتكلم كملاكها الحارس، ورأت الملاك يهزم الشيطان، بيد أن الأمر الوحيد الذي أذهلها وجعلها ترتجف من قمة رأسها لأخمص قدميها هو أن منقذها وملاكها الحارس كان الرجل نفسه الذي تمقته أكثر مما تمقت

أي إنسان آخر في الوجود، وكان هو العمدة الذي طالما ظنته سبب شقائها وأصل محنتها وقد أنقذها في الوقت الذي لطخت فيه وجهه بتلك الإهانة المخيفة.

شعرت مع كل كلمة من كلمات الأب مادلين كأن ظلام الكرامة ينقشع من قبلها لكي يُفسح سبيلاً لعاطفة جديدة، هي مزيج من الارتياح والثقة والحب والإجلال، وما إن انصرف جافير حتى تحول إليها مادلين، وقال بصوت خافت، هو صوت الرجل الرزين الذي يبذل جهداً كبيراً ليحبس دموعه:

- لقد سمعت قصتك ولا أعرف شيئا عما ذكرت، ولكني أعتقد وأشعر بأنك ذكرت الحقيقة، ولم يكن لي علم بأنك تركت المصنع فلماذا لم تلجأي إليَّ؟! ولكن أصغي إلي، سأحدثك بما سأفعله من أجلك، سأقوم على سداد ديونك، وسأحضر ابنتك، أو اذهبي إليها إذا أردت وفي استطاعتك أن تعيشي هنا، أو في باريس، أو في أي مكان تريدين. وسأمدك بالمال أينما كُنتِ، لكي تستردي سعادتك المفقودة وتعودي إلى حياة الشرف والكرامة.. بل إنني أقول لك أكثر من ذلك.. أقول لك إذا صح كُل ما ذكرت، ولا شك عندي في صحته، فإنك لم تكوني قط في نظر الله إلا امرأة طاهرة فاضلة كريمة، مسكينة أنت أيها المراة.

وكان ذلك أكثر ما تستطيع فانتين التعسة أن تحتمل، أتعود إليها

فانتين؟ وتنفض عن حذائها تُراب الرذيلة، وتعيش مع ابنتها حُرة سعيدة مُحترمة موفورة الحاجة؟ ألا إن هذا هو النعيم الذي ليس في الدنيا مثله.. ونظرت في ذهول إلى الرجل الذي يتحدث إليها، ولم تستطع إلا أن تُردد:

- آه.. آه.

وترنحت وسقطت على ركبتها أمام الأب مادلين، وقبل أن يمنعها تناولت يده وألصقتها بشفتها، ثم أغمى عليها، وأمر بها الأب مادلين، فنقلت للمُستشفى المُلحق بمنزله، والذي أعده خصيصاً لإيواء المرضى من العُمال، وأوصى الراهبتين اللتين تقومان على العناية بالمرضى أن تعنيا بها أشد عناية، وقضت فانتين شطراً كبيراً من الليل، وهي تهذي وتصيح بصوت مُرتفع، ثم هبطت وطأة الحمى، فنامت نوماً عميقاً، ولما فتحت عينيها قبيل ظهر اليوم التالي، شعرت بأنفاس تتردد على مقربة منها، فأطلت من الفراش، ورأت الأب مادلين ينظر إلى شيء على الجدار فوق الفراش وفي عينيه نظرة إشفاق ورجاء وألم، فتتبعت نظراته، ووقع بصرها على تمثال السيد المسيح، فسألت بخجل:

- ماذا تصنع؟!

كان الأب مادلين قد قضى بالقرب من الفراش ساعة أو بعض ساعة في انتظار أن تستيقظ، فتناول يدها وجس نبضها، وسأل:

- كيف حالك؟

- إنني في خير حال، فقد نمت نوماً عميقاً.

فأجاب عن سؤالها الأول:

- لقد كنت أبتهل للشهيد المصلوب.

وكان الرجل قد قضى الليل كله في البحث والاستفسار حتى علم حقيقة الخبر وعرف قصة فانتين المؤلمة، وقال:

- مسكينة أنت أيتها الأم، لقد تألمت كثيراً، ولكن لا تحزني فآلامك من النوع الذي يجعل من البشر ملائكة، والجحيم الذي صليت فيه هو الدهليز الموصل إلى النعيم.

وذاع نبأ الجدل العنيف الذي دار بين مفتش الشرطة والعمدة، فلما وقع بصر موظف البريد في اليوم التالي على رسالة بخط جافير، وعليها اسم مدير الشرطة في باريس، أيقن أن المفتش أرسل يستقيل من منصبه.

أما الأب مادلين، فإنه كتب فوراً إلى تيناردييه، وكان قد علم من فانتين أنها تدين لصاحب الحانة بمائة وعشرين فرنكا، فأرسل إليه ثلاث مائة فرنك وأمره بأن يبعث بكوزيت في الحال، لأن أمها المريضة تنتظرها، وتسلم تيناردييه هذا المبلغ، فدهش، وقال لامرأته:

- يجب ألا نترك هذه الطفلة، فسوف تكون لنا كالبقرة الحلوب. وأكبر ظني أن أحدهم قد وقع في غرام أمها.

أجاب علي رسالة مادلين بأن مرض كوزيت كلفه مائة فرنكا أخرى، فبعث لمادلين بهذا المبلغ مُضافاً إليه مائتا فرنك، وألح عليه أن يُرسل كوزيت على عجل، فقال تيناردييه:

- كلا، كلا، يجب أن نحتفظ بالفتاة، إنها منجم يُدر علينا ذهباً.

ولم تبرأ فانتين من سقمها، وكانت الراهبتان قد استقبلنها أولاً بشيء من النفور والاشمئزاز، ولكن لم تمض أيام قلائل حتى محا لطف فانتين نفورهما، وأثار حنانها وأمومتها الرقيقة عاطفة الرحمة والإشفاق في قلبيهما، وراح مادلين يزورها مرتين كل يوم، فتسأله فانتين في كل مرة:

- هل أرى ابنتي قريباً؟

- ربما غداً، إنني أنتظرها في أية لحظة.

فيُضيء وجهها الشاحب، وتهتف:

- كم أكون سعيدةّ..

ولم تتبدل حالتها، فقد أضرت بها حفنة الثلج التي دسها الرجل في ظهرها، واشتد سعالها، وفحصها الطبيب وهو رأسه، فنظر إلى مادلين

مستفسراً، فقال الطبيب:

- هل قلت إن لها ابنة تريد أن تراها؟

- نعم.

- إذا فأحضرها على عجل.

فقطب مادلين حاجبيه، وسألته فانتين:

- ماذا قال الطبيب؟

فابتسم مادلين على كُره منه وأجاب:

- إنه طلب أن أعجل بإحضار الطفلة، لأن وجودها يُبرئك من سقمك.

فصاحت:

- لقد صدق الطبيب! ولكني لا أدري لماذا أبطأ تيناردييه.

لم يُرسل تيناردييه الطفلة، والتمس لذلك أسخف الأعذار. فقد قال إن كوزيت لا تزال مريضة، ومن المجازفة بصحتها أن يسمح لها بالسفر في الشتاء.

ضاق مادلين ذرعاً، فقال:

- سأبعث من يأتي بكوزيت، وإذا قضت الضرورة فإنني أذهب أنا بنفسي.

طلب إلى فانتين أن توقع باسمها على رسالة جاء فيها:

«مسيو تيناردييه.. أريد أن تعهد بابنتي كوزيت إلى حامل هذه الرسالة، وسيتولى عني سداد ما علي من ديون».. وفي صباح أحد الأيام، بينما كان الأب مادلين في مكتبه يستعد للسفر إلى بولانجيه ويُرتب أوراقه الرسمية، إذا بالخادم يُنبئه بأن المفتش جافير يرجو مُقابلته، وشعر الأب مادلين بانقباض حين سمع هذا الاسم، ولكنه قال:

- دعه يدخل.

فدخل جافير وأحنى قامته للأب مادلين، ولم يكن في نظراته شيء من الحقد، أو الريبة، ولكن مسحة من الحزن كانت واضحة على سحنته الصارمة التي كأنما نُحتت من «الجرانيت».. وضع مادلين القلم من يده، وتحول إلى المفتش وسأل:

- ماذا وراءك يا جافير؟

فظل جافير صامتاً كأنه يُفكر، ثُم قال بصوت مرتفع:

- لقد حدث أمر مُنكر يا سيدي. فقد أخل أحد صغار الموظفين بواجباته حيال رجل من رجال السلطة، وقد جئت بحكم واجبي

لإبلاغك بالأمر.

- ومن هو هذا الموظف؟

- أنا.

- ومن هو رجل السلطة الذي يشكو الموظف؟

- أنت يا سيدي العمدة. وقد جئتك الآن لأنبهك إلى المطالبة بفصلي من العمل.

ففتح مادلين فمه في دهشة وعجب، واستطرد جافير:

- ستقول إنه في استطاعتي أن أقدم استقالتي، ولكن الاستقالة لا تكفي، فإنني تورطت في خطأ أستحق عليه العقاب، ولذلك يجب أن أطرد من الخدمة طرداً.

وصمت لحظة ثم أردف:

- يا سيدي العمدة، إنك قسوت في معاملتين منذ أيام بغير حق فكن قاسياً اليوم بحق.

فهتف مادلين:

- ما معنى كل هذا؟! إنك تتهم نفسك وتريدني أن أطلب نقلك و...

- بل أرجو أن تطلب طردي، ولكني لا أفهم شيئاً من كل هذا.

فتنهد جافير وقال بحزن:

- اعلم إذاً يا سيدي العمدة أن الخلاف الذي شجر بيننا قد أغضبني وأثار حقدي عليك، فوشيت بك إلى مدير الشرطة في باريس.

لم يتعود الأب مادلين أن يضحك، ولكنه انفجر الآن ضاحكاً وهتف:

- هل وشيت بي بصفتي عمدة طغى بسلطته على سلطة رجال الشرطة؟

- بل بصفتك سجينا سابقا في ليمان طولون.

فامتقع لون الأب مادلين. ومضى جافير في حديثه دون أن يرفع بصره عن الأرض، لقد حسبتك ذلك السجين، فإن ما بدا من قوة عضلاتك بحادث فوشليفان والشبه العجيب الذي لمحته بتقاطيع وجهك، والمعلومات التي ذهبت تستقيها من قرية «فافيرول» كل ذلك حملني على الارتياب بأنك جان فالجان، وهو سجين سابق رأيته منذ عشرين سنة حين كُنت حارساً في ليمان طولون. وقد علمت أن أمر هذا السجين فيما بعد أنه سرق أمتعة أحد الأساقفة، واغتصب قطعة نقود أحد الغلمان، وضاع أثره مُنذ ثمانية أعوام رغم الجهود التي بذلت في البحث عنه، فقال الأب مادلين بقلة اكتراث وهو يتصفح دفتراً بين يديه:

- وماذا كان الرد الذي تلقيته من باريس؟

- جاءني الرد بأنني مجنون، وهي الحقيقة.

- من حسن الحظ أن تعترف بذلك.

- هل أستطيع الإنكار... وقد قُبض على جان فالجان الحقيقي؟

فأفلت الدفتر الذي كان بين يدي مادلين، ورفع رأسه ونظر لجافير دهشاً مُستفسراً، قال جافير:

- الواقع، أنه كان في مدينة «إيلي» رجل رقيق الحال متقدم في السن يدعى «شاتماتيو» وقد ضبط هذا الرجل أخيراً مُتلبساً بسرقة تفاح من إحدى الحدائق، وأُرسل لسجن «أراس» وصادف أن كان بذلك السجن سجين قضى بضعة أعوام في ليمان طولون. فما كاد يبصر شاتمانيو حتى صاح: "إنني أعرف هذا الرجل لقد رأيته بليمان طولون، ألست أنت جان فالجان؟" فأنكر شانماتيو وأصر على الإنكار، بيد أن سجينين آخرين عرفاه في الحال، فلما وشيت بك، جاءني الرد بأنني معتوه، وأن جان فالجان مسجون فعلاً رهن المحكمة، ولكني أردت أن أتحقق من الأمر بنفسي. فاتصلت بذوي الشأن في «أراس» وسمحوا لي بمقابلة السجين.

- وهل قابلته؟

- الحق أن ذلك السجين هو جان فالجان، وقد رأيته وعرفته، فأرجو

صفحك.

فلم يُجبه مادلين، بل سأل بسرعة:

- وماذا يقول هذا الرجلّ؟!

- إن موقفه زاد حرجاً يا سيدي العمدة، لأن قضيته لم تعد قضية شيخ مسكين سرق بضع تفاحات، بل قضية مُجرم ذي سوابق سطا قبلاً على منزل أحد الأساقفة واغتصب عنوة مال غلام ضعيف، وهو لن يُحاكم الآن أمام محكمة الشرطة، بل سيُقدم لمحكمة الجنايات وسيكون جزاؤه السجن المؤبد، على أن جان فالجان رجل ماكر، وأي إنسان في موقفه كان لا بد أن يحتج، ويقاوم، ويُقسم أنه ليس جان فالجان. أما هذا الشقي فإنه يزعم أنه لا يدري ما حوله شيئاً، ويقول إنه شانماتيو، ويرفض الإقلاع عن زعمه. ويتظاهر إلى جانب ذلك بالبلاهة والغباء، ولكن الأدلة كافية، ويوجد أربعة شهود – أنا واحد منهم – يؤكدون أنه جان فالجان، وقد دُعيت فعلاً لأداء الشهادة في محكمة جنايات «أراس».

كان الأب مادلين قد عاد إلى عمله، فراح يكتب تارة ويقرأ تارة أخرى، ثُم قال فجأة:

- كفى! كفى يا جافير. هذه التفاصيل لا تهمني كثيراً. ووقتنا أثمن من أن يُصرف في غير أعمالنا. متي ستذهب لأداء الشهادة في محكمة أراس؟

- غداً.. وسأبدأ رحلتي إلى أراس الليلة.

- هل تستمر المُحاكمة طويلاً؟

- يوماً على الأكثر وقد يصدر الحُكم في المساء! ولكني لن أنتظر صدوره، بل سأعود أدراجي بعد أداء الشهادة مُباشرة.

قال مادلين ببساطة:

- حسناً.

وكان المُنتظر بعدئذ أن ينصرف جافير ولكنه لم يبرح مكانه، وقال الأب مادلين:

- ماذا عندك أيضاً؟

- أريد أن أذكرك بأن تطلب طردي.

فنهض مادلين واقفا وقال:

- إنك رجل شريف يا جافير. وأنا أقدرك وأعتقد أنك تُبالغ في تجسيم هفوتك، وأصر على بقائك في منصبك.

فقال جافير في هدوء:

- إنني لا أسمح بذلك يا سيدي العمدة.

- دعني أقل لك مرة أخرى، إن هفوتك من شؤوني الشخصية.

ولكن جافير لم يسمع غير صوت ضميره فقال:

- يا سيدي العمدة، إنني أعامل نفسي، كما يجب أن أعامل الآخرين، وكثيراً ما شعرت بقسوتي على المُذنبين والخاطئين فكنت أقول: كُن على حذر يا جافير فالويل لك إذا هفوت. ولقد هفوت فحقت على العقوبة، إن من مصلحة المُجتمع أن يكون خُدامه مثلاً عُليا في النزاهة، وقد أصبحت بعد هذه الهفوة غير جدير بخدمة المجتمع، إنني قوي الساعدين يا سيدي العمدة، وسأفلح الأرض أو أصبح عاملاً، وكل ما أُطالب به الآن، هو طرد المفتش جافير.

فقال مادلين:

- سوف ننظر في ذلك.

وبسط إليه يده، ولكن جافير تراجع خطوة وقال في حزم:

- عفواً يا سيدي! ينبغي للعمدة ألا يضع يده في يد جاسوس إنني أصبحت جاسوساً فحسب مُنذ أسأت استخدام سلطة وظيفتي.

وأحنى رأسه باحترام ومشى إلى الباب، وهناك نظر وراءه، وقال دون أن ينظر في وجه العمدة:

- سأستمر في عملي حتى يأتي خلفي.

سمع مادلين وقع أقدامه الثقيلة وهو يبتعد بخطوات متئدة رزينة.

الفصل الخامس

العاصفة

ذهب مادلين بعد ظهر ذلك اليوم لزيارة فانتين كالمعتاد، وكانت تنتظره دائماً بفارغ الصبر كما لو كان يحمل إليها الدفء والضوء. وقد اشتدت الحمى عليها، فلم تكد ترى الأب مادلين حتى هتفت:

- أين كوزيت؟

فأجابها وهو يبتسم:

- ستأتي قريباً.

طالت زيارته أكثر من المعتاد وقضى في غرفتها ساعة وأوصى الراهبتين أن توفرا لها أسباب الراحة ما استطاعتا إلى ذلك سبيلاً، ولوحظ عليه الاكتئاب حين همس الطبيب في أذنه كلاماً، وعاد مادلين بعد ذلك إلى مكتبه، ولاحظ أحد الموظفين أنه يُطيل النظر إلى خريطة مُثبتة بالجدار، تُبين طرق فرنسا، وبالمساء قصد العمدة إلى بيت رجل يُدعى سكوفلير، عُرف أنه يؤجر المركبات والجياد للراغبين في استئجارها، فسأله مادلين:

- هل أجد لديك جواداً كريماً يا...؟

فأجابه الرجل:

- **كُل جيادي من كرام الخيل يا سيدي. فماذا تعني بجواد كريم؟**

- **إني أريد جواداً يقوى على قطع عشرين مرحلة في اليوم، ويبقى محتفاظا بنشاطه في اليوم التالي.**

- **لدي جواد أبيض صغير يفي بغرضك يا سيدي العمدة، ولكنه عنيد لا يُمكنك أن تمتطيه، ومن الخير أن تشده لمركبة، فهل تستطيع قيادة المركبة؟**

- **نعم.**

- **يجب كذلك أن تُسافر بمفردك وبغير أمتعة حتى لا تُثقل كاهل الجواد.**

- **اتفقنا.**

- **أجر هذا الجواد ثلاثون فرنكاً يومياً.**

فنقده مادلين ثلاثة جنيهات وهو يقول:

- **إليك أجر ثلاثة أيام.**

- **حسناً متى تريد الرحيل؟**

- أرسل الجواد والمركبة إلى منزلي في منتصف الساعة الرابعة من صباح غد.

كان القس العُمدة مادلين أو يُمكنك أن تقول المُجرم السابق "جان فالجان" الذي تغير من الشر إلى الطيبة ينظر إلى الأمور التي مرت به نظرة العقلاء الأتقياء العادلين، الذين يرون أن واجبهم الأول ليس حيال أنفسهم، ولكن ينبغي أن نقول إن مأزقا كمأزقه الحالي لم يعرض له قط فيما مضى، وقد أذهله وأدهشه أن يسمع بأذنيه ذلك الاسم الذي دفنه مُنذ زمن بعيد، وأحس بالسماء تبرق وترعد فوق رأسه، وخطر له وهو يصغي لكلام جافير أن ينطلق في التو فيشي بنفسه، ويُنقذ شانماتيو، ويحل في السجن محله، وآلمه هذا الخاطر كما لو كان جرحاً في لحمه، ثم زال الألم، وقال لنفسه: "لننتظر..."

وأحنقه ذلك الشعور الفطري الكريم، وتراجع عن موقفه البطولي وقضى بقية ذلك النهار في تلك الحالة، هدوء في الظاهر وعاصفة في الباطن، واضطرب ذهنه، وتلاطمت خواطره، فلم يتبين فكرة واحدة واضحة، ولم يكن في استطاعته أن يقول عن نفسه أكثر من أنه أصيب بلطمة أفقدته الوعي، وبعد تناوله للعشاء في المساء راح يستعرض موقفه، ولاحظ أنه لا يزال سيد الموقف رغم حرجه، وقال لنفسه:

"ومم أخاف؟ كان يوجد باب واحد يستطيع ماضي أن يقتحم منه حاضري. وقد أغلق هذا الباب، وأغلق إلى الأبد. ولن يُزعجني جافير بعد

الآن، لأنه اطمأن لمكان غريمه جان فالجان، ومن المُحتمل كذلك أن يغادر جافير هذه المدينة، وقد حدث كُل ذلك دون أن يكون لي فيه أصبع، فلماذا اليأس والتشاؤم؟! إن العناية الإلهية دبرت كُل شيء، فلماذا لا أدع الأمور تسير بمجراها الطبيعي؟"

ولكن خُيل إليه أن الأسقف ينظر إليه من القبر، وأنه يرى في الأب مادلين العُمدة إنساناً مقيتاً، ويرى في جان فالجان السجين إنساناً طاهراً تقي الضمير جديراً بالإعجاب والإكبار، سيرى الناس قناعة الزائف ويرى الأسقف وجهه على حقيقته، وسيرى الناس حياته، أما الأسقف فسيرى ضميره ... كلا ... كلا ... يجب أن ينطلق إلى «أراس» ويُنقذ جان فالجان الزائف، ويُرشد إلى جان فالجان الحقيقي، وا أسفاه! ستكون هذه أعظم تضحياته، وأمر انتصاراته، وآخر خطواته، ولكنه يجب أن يخطوها، فما أشقاه! وما أتعسه! إنه لن يُطهر نفسه في عين الله حتى يتلوث بالأوحال في عيون الناس. قال:

- يجب أن أؤدي واجبي، وأنقذ ذلك الرجل.

قال ذلك بصوت مُرتفع، دون أن يُلاحظ أنه رفع صوته، وعمد إلى دفاتره، فراح يُراجعها ويُرتبها، وألقى في النار طائفة من صكوك الديون التي عجز المدينون عن أدائها، وكتب رسالة بعنوان «مدير بنك لافيت بشارع داتروا بباريس»، ولما فرغ من ذلك، كان الليل قد انتصف، فتهالك في مقعده، وبذل جهداً عنيفاً كي يجمع شتات أفكاره، وغمغم:

"نعم، لقد حزمت أمري على أن أشي بنفسي". ثُم انتبه فجأة وهتف:

- ولكن.. صبراً ماذا يكون في أمر هذه المرأة التعسة؟!

هُنا هبت عاصفة جديدة وبدت له فانتين كشعاع غير مُنتظر، وخُيل إليه أن كل شيء حوله قد تغير، وهتف:

- صبراً.. صبراً إنني لم أفكر حتى الآن إلا في نفسي، ولم أسأل إلا ضميري ولم أعبأ إلا بمصيري، ولكن لنفرض أنني فكرت قليلاً في مصائر غيري؟ إذا وشيتُ بنفسي، أطلق سراح شانماتيو وأرسل للسجن. فماذا يكون بعد ذلك؟ ماذا يحدث بعد ذلك؟ هنا مدينة ومصانع ومتاجر، ورجال ونساء، وشيوخ وأطفال، وأنا الذي أوجدت ذلك كله، وحينما توجد نار تستعر، فأنا الذي أشعلتها، وأنا الذي وضعت اللحم في الآنية التي فوقها، أنا الذي أوجدت هذا النشاط، وهذا الرخاء، وهذه الحركة، وهذا الثراء، فإذا ذهبت أقفرت المصانع، وأغلقت المتاجر، وأجدبت الحياة وتفرق الناس، ثُم هنالك تلك المرأة التعسة التي تألمت كثيراً، وكنت على الرغم مني علة ألمها وشقائها، والطفلة التي اعتزمت البحث عنها، وردها لأمها، أفليس لهذه المرأة عليّ حق؟ أليس من حقها عليَّ أن أُرفه من آلامها، وأمحو إساءتي إليها؟ فإذا ذهبت فماذا يكون؟ ستموت الأم، وتتشرد الابنة. نعم، ذلك سيحدث إذا وشيت أنا بنفسي"

وتردد، وارتجف ثم أردف:

- إذا لم أش بنفسي قضى ذلك الرجل بقية حياته في الليمان، وهو جدير بهذه العقوبة، لأنه سرق، فليذهب إذاً، ولأبق هُنا، وأواصل أعمالي. ومتى انقضت عشرة أعوام، أصبحت صاحب ملايين كثيرة أستثمرها هنا وهناك. فتنشط الصناعة والتجارة، وتتضاعف الأسر السعيدة، ويعم الرخاء ويختفي الشقاء. ومع الشقاء تختفي الجرائم والرذائل بأنواعها، وتتوفر هذه الأم التعسة على تربية ابنتها، حقا، إنني كُنت مجنوناً حين فكرت في الوشاية بنفسي، أأكون سبباً في خراب مدينة، وموت أم، وتشرد طفلة، لا لشيء إلا لرغبتي في أن أقوم بدور الرجل الكريم النبيل، لكي أنقذ من السجن لصاً مجهولاً، لا قيمة له في الحياة ولا وزن؟ هُناك اعتبارات جديرة بإنقاذ المجرم وتضحية البرئ، ومن هذه الاعتبارات أن أنتشل كوزيت الصغيرة من البؤرة التي تنتظرها والتي انزلقت إليها أمها من قبل، كلا.. كلا يجب أن أترك الأمور تسير بمجراها الطبيعي، سأظل الأب مادلين، والويل لجان فالجان!

أخذ يسير في الغرفة جيئة وذهابا، ثم وقف وقال:

- لقد حزمت أمري، ويجب ألا أتردد. وهناك بعض خيوط لا تزال تربطني بجان فالجان ومن الضروري فصمها، نعم، في هذه الغرفة شاهدان صامتان يجب إعدامهما.

وتناول شمعداني الأسقف، وقذف بهما في النار المستعرة بالموقد،

ووقف يرقب الفضة وهي تذوب، وفجأة، سمع في أعماقه صوتاً يهتف به:

- جان فالجان.. جان فالجان.

فانتصب شعر رأسه، وتصبب العرق على جبينه، ومضى الصوت يقول:

- أحسنت صنعاً يا جان فالجان، فامض فيما بدأت، أبد الشمعدانين فإن ذكراهما لا تسرّ، وانس الأسقف، إنس كل شيء، واقض على شانماتيو. هذا حسنٌ لقد انتهى كل شيء الآن، فهنئ نفسك. إن هذا الرجل العجوز الذي لا يعلم ما يُراد به، والذي كل ذنبه أن اسمه يُخيم فوقه كالكابوس، هذا الرجل العجوز سيؤخذ بجرائمك وآثامك، وسيقضي ما بقى من أيامه في هوان ومذلة. هذا حسن! كُن أنت رجلاً أميناً، وابق عمدة كما أنت، واستمتع بالاحترام والمجد والغنى، واجلب الرخاء لهذه المدينة، وساعد الفقراء، وتعهد اليتامى بالعطف والإحسان. وعش سعيداً، كريماً ناعم البال، بينما يحمل البريء وزرك، ويرزح تحت ثقل اسمك ويقضي حياتك مُكبلاً بأغلالك. نعم، كُل هذا حسن أيها الوغد!

وانحدرت حبات العرق على جبينه، واستقرت نظراته الشاردة على الشمعدانين، ومضى الصوت يقول:

- جان فالجان، سوف ترتفع من حولك أصوات كثيرة تطريك وتباركك، وسينبعث من الأعماق صوت واحد خافت يلعنك، فأصغ أيها الأثيم، كل هذه البركات سوف تسقط إلى الأرض، أما اللعنة فستصل وحدها إلى السماء..

كان هذا الصوت الذي انبعث من أعماق ضميره هادئاً خافتاً في البداية قد أصبح الآن هائلاً مدوياً، حتى خُيل إليه أنه ليس صوته ولا صوت ضميره. فنظر حوله بذعر وصاح:

- هل يوجد أحد هنا؟

ثم ضحك وأجاب:

- ما أشد غباوتي! فما من أحد.

ولكنه كان مخطئا، كان يوجد واحد لا تراه العيون. واجتذب الشمعدانين من النار، وردهما إلى مكانهما فوق المائدة ثم راح يمشي في الغرفة مشية الثمل، وما زال هذا شأنه حتى دقت الساعة الثالثة، قضى خمس ساعات وهو يروح ويجيئ ولم يقر له قرار إلى أن أنهكه التعب، فارتمى في مقعده واستغرق في النوم، واستيقظ بعد قليل على وقع حوافر جواد أمام المنزل، ثم سمع طرقاً بباب غرفته.. سأل:

- من هذا؟

قال الخادم:

- أنا يا سيدي.. لقد جاءت المركبة.

- أية مركبة؟

- المركبة التي أمرت بإعدادها.

- آه ... نعم.

ولو رآه الخادم في تلك اللحظة لهاله انقلاب سحنته، وقضى بضع دقائق صامتاً، ثُم سأل الخادم:

- ماذا أقول للسائق يا سيدي؟.

- قل له أنني سأحضر في الحال.

وصل الأب مادلين إلى «أراس» في الساعة الثامنة مساءً، ولم يكن يعرف شوارعها ومسالكها. فسأل أحد المارة:

- هل لك أن ترشدني لمحكمة الجنايات؟

- سر معي فأرشدك إليها، وإذا كان في نيتك أن تشهد المُحاكمة فاعلم أنك جئت مُتأخراً. لأن المحكمة تُغلق أبوابها في الساعة السادسة.

اجتاز بعض الشوارع ثُم أومأ لدار المحكمة وقال:

- ها هي، ولكنك حسن الحظ، فالنور ينبعث من النوافذ ومعنى هذا أن المُحاكمة مستمرة حتى الساعة.

قصد الأب مادلين إلى الغرفة التي ينبعث النور من نوافذها، ووجد أحد الحجاب واقفا ببابها، فسأله:

- ألا أستطيع الدخول؟

- كلا، فالقاعة غاصة بالناظرين، وليس فيها متسع للمزيد.

ثم أردف بعد لحظة:

- ثمة مقعدان خاليان خلف رئيس المحكمة، ولكن لا يسمح لغير موظفي الحكومة بالجلوس فيهما.

أطرق مادلين رأسه، وبدت على وجهه علامات التفكير، ثُم أخرج من جيبه ورقة وقلماً وكتب اسمه ووظيفته، ودفع بالورقة إلى الحاجب وهو يقول:

- أرجو أن تذهب بهذه الورقة إلى رئيس المحكمة.

فتناول الحاجب الورقة، وألقى عليها نظرة سريعة، وتوارى خلف الباب! كان الأب مادلين يستمتع بشهرة لا يعرف مداها، وكان رئيس المحكمة كغيره من أهل «أراس» قد سمع عنه الشيء الكثير، فلما قرأ

اسمه على الرقعة سمح له بالدخول في الحال، وعاد الحاجب له فوجده حيث تركه، وقال له:

- هل لسيدي أن يتبعني؟

فتبعه مادلين لغرفة فسيحة، في وسطها مائدة مستطيلة، تحيط بها طائفة من المقاعد، وعلى المائدة مصباح زيتي ضعيف مُمتقعاً، قال الحاجب:

- هذه هي غرفة المشورة يا سيدي، وهذا الباب يؤدي لقاعة الجلسة.

أومأ بإصبعه إلى باب ركن الغرفة، وتركه وانصرف، وبقي مادلين وحده في الغرفة، حاول أن يجمع شتات أفكاره، ولم يوفق. فقد جرت العادة أن يضل عقل الإنسان حين يكون الإنسان في أشد الحاجة إلى التفكير السليم، وأرسل بصره للباب الذي يفصل بينه وبين قاعة الجلسة، وتصبب العرق على جبينه، نظر إلى الباب كما ينظر الحمل إلى عين الذئب، ولو أصغى لسمع جلبة شديدة مُنبعثة من القاعة المجاورة. ولكنه لم يصغ ولم يسمع، وفجأة تقدم من الباب، وفتحه ودخل، ولم يشعر به أحد لأن جميع العيون كانت تنظر إلى رجل جالس بين شرطيين عن يسار رئيس المحكمة، وكان ذلك الرجل هو ضالته. لم يبحث عنه، بل ذهب إليه بصره بالفطرة كأنه كان يعرف سلفا أين يجده، وخُيل إليه أنه يرى نفسه مع اختلاط بسيط بالملامح. أما المظهر والثياب فمظهره وثيابه يوم دخل مدينة برينول، وفي قرارة نفسه ذلك الكنز المقيت من الكراهة التي

نمت وترعرعت خلال تسعة عشر عاماً قضاها في الليمان.

قال لنفسه وهو يرتجف: "يا إلهي، هل أصبح هكذا مرة أخرى؟"

كان المتهم يناهز الستين من عمره وعلى وجهه المُتجعد مسحة من الذهول والبلادة والغباء، كان رئيس المحكمة قد شعر بالباب حين فُتح، فحول رأسه، ورأى القادم، وأدرك أنه عمدة مونفورميل، فحياه بإحناء رأسه، وكذلك حياه المدعي العمومي، وكان قد قابله مراراً في مونفورميل حين ذهب إليها بحكم وظيفته، وجلس الأب مادلين على مقعد خلف رئيس المحكمة، ووجد نفسه ينظر إلى قاضٍ وكاتب شرطة وعدد لا يحصى من الوجوه، ورأى كل ذلك قبلاً، منذ سبعة وعشرين عاماً، وهكذا، بدأ الماضي ينبعث من مرقده، وكان المحامي يتكلم ويحاول دفع التهمة عن المتهم، فأثبت أن جريمة السرقة لم تثبت مادياً وأن أحداً لم ير المُتهم حين تسلق الشجرة وانتزع غُصن التفاح، وقد ضُبط الغصن معه، ولكنه أقر أنه عثر عليه مُلقى على الأرض فتناوله فأين إذاً الدليل على أنه سارق، وعبر الدفاع عن أسفه لأن المتهم ينكر أنه جان فالجان، ويصر على الإنكار رغم شهادة الشهود الأربعة. وكان أحرى به أن يعترف بما لا يمكن إنكاره لكي يحظى برحمة القاضي، ومضى المحامي في دفاعه فقال:

- إذا سلمنا بأنه جان فالجان فكيف يقوم ذلك دليلاً على أنه سرق غصن التفاح؟

ثم تكلم عن شخصية المتهم، وقال: إنه نصح له أن يعترف بحقيقة أمره ولكنه رفض، وكان مخطئاً، فهل تشفع له حالته العقلية في هذا الخطأ؟

إن مظاهر البلاهة بادية عليه، فقد مكث في شقاء الليمان تسعة عشر عاماً، كانت كافية بأن تعصف بقواة العقلية وليس أدل على سفاهته وفساد تفكيره من إصراره العجيب على إنكار اسمه وشخصيته، ولكنه على كل حال جدير بالشفقة والرحمة، ثُم تكلم المدعى العمومي، فشكر للدفاع إنصافه وسلامة تقديره وسجل عليه تسليمه بأن المتهم هو جان فالجان. ثم سأل:

- ومن هو جان فالجان هذا؟

وأجاب عن هذا السؤال فوصف جان فالجان بأنه وحش في صورة إنسان، ومجرم ذو سوابق لم يصلحه الليمان. وأسهب في وصف جرائمه، وذكر كيف اغتصب نقود الغلام جرفيه. ثم سأل:

- أية رحمة يستحقها رجل كهذا أقدم على هذا الجرائم، وضُبط مُتلبسا بالسرقة. ثُم هو بعد ذلك ينكر جرائمه وينكر سرقاته، بل ينكر اسمه وشخصيته؟ إن هناك مائة دليل ودليل على أنه جان فالجان. وهناك أربعة شهود يقرون أنه جان فالجان. وهو مع ذلك ينكر، ويصر على الإنكار ظناً منه أن الإنكار يمحو شخصيته ويمحو ماضيه ويمحو جريمته!

وكان المتهم يصغي لمرافعة المدعي العمومي، وهو مفتوح الفم وعلى وجهه علامات الدهشة المقرونة بالإعجاب، وفي بعض الأحيان كان يهز رأسه ذات اليمين وذات اليسار، على سبيل الاحتجاج الصامت، ولكنه لم يُحاول الكلام، ولفت المدعي العمومي نظر المُحلفين لحركات المُتهم، وإلى صمته وجموده. وقال إنه جمود مُصطنع لا يدل على البلاهة والغباء بقدر ما يدل على المكر والدهاء والرغبة في تضليل العدالة، وختم المدعى مرافعته بأنه يحتفظ بقضية جرفيه ويطالب بتشديد العقوبة على المتهم.

ونهض الدفاع، فهنأ المدعي العمومي على مرافعته البارعة، ورد في كثير من الفتور على قليل من نقط الاتهام، وحان وقت الفصل في أمر المُتهم فتحول إليه الرئيس، وطلب إليه أن يصغى بانتابه، وأردف:

- إنك في مركز دقيق حقيق بالتفكير، وأدلة الاتهام واضحة ساحقة، ولكني أطلب للمرة الأخيرة أن تجيب في صراحة عن هذين السؤالين: هل تسلقت الشجرة وقطعت غصن التفاح؟ وهل أنت جان فالجان؟

فهز المتهم رأسه ببطء، وتكلم قائلاً:

- أما السؤال الأول..

وهز رأسه مرة أخرى ونظر إلى قبعته، وكان مُمسكا بها، ثم نظر لسقف القاعة، ثم عاد إلى الصمت، فقال المدعي العمومي بلهجة صارمة:

- أيها المتهم، إنك مضطرب لا تستطيع الإجابة عن الأسئلة التي تُطرح عليك، واضطرابك هذا يدينيك وصمتك يفضحك. مما لا شك فيه أن اسمك هو جان فالجان وليس شانماتيو، وأنك ولدت في فافيرول، وكُنت تشتغل بالتحطيب، ومما لا شك فيه كذلك أنك تسلقت الشجرة وقطعت الغصن وأردت أن تفر به. وهذه كلها حقائق ليس في استطاعتك أن تنكرها وليس في استطاعة السادة المحلفين أن يغفلوها.

كان المتهم قد جلس. فما إن فرغ المدعي العمومي من كلامه، حتى وثب من مكانه وهتف:

- إنك رجل شرير.. هذا كل ما أردت أن أقول فخانني التعبير، إنني لم أسرق شيئاً، وقد وجدت الغصن مُلقى على الأرض فالتقطته ولم يدر بخلدي أنه سيجلب علي كل هذه المتاعب، لقد قضيت في السجن ثلاثة أشهر ولا أدري لماذا. وسمعتك تحمل علي الآن، ولا أعلم لماذا. وهذا الشرطي الواقف بجانبي يضربني بمرفقه بين الفينة والأخرى ويقول لي: لماذا لا تُجيب؟ ولكنني لا أستطيع التعبير عما يدور بخلدي، لأنني لم أتلق العلم في المدرسة وما أنا إلا رجل فقير، إنني لم أسرق، ولقد التقطت شيئاً وجدته مُلقى على الأرض، أما جان فالجان الذي تُحدثني عنه فإنني لا أعرفه، وأما اسمي فهو شانماتيو، وإن من البراعة حقاً أن تذكر لي اين ولدت، لأنني لا أعرف أين ولدت، ولا أعلم عن أبويّ إلا أنهما كانا يجوبان الآفاق، ويضربان في

الأرض على غير هدى، وقد ذهبت إلى فافيرول في أحد الأيام، ولكن لا يستطيع الإنسان أن يذهب إل فافيرول دون أن يذهب إلى الليمان؟ أنا أؤكد أنني لم أسرق، وأن اسمي شانماتيو، ولكنني واثق من أنك ستمضي في مضايقتي، ولست أدري لماذا يتخذني الجميع هدفاً لغضبهم.

فصاح المدعى العمومي:

- إن دفاع المتهم وعباراته الملتوية التي تنطوي على إنكار صريح، ورغبة أكيدة في تضليل العدالة، وإيقاع الشك في نفوس المُحلفين، والتظاهر بالبلاهة والسفه، تضطرني أن أرجو سيدي الرئيس في دعوة شهود الإثبات ومناقشتهم مرة أخرى للتحقق من شخصية المتهم وإزالة كل شك من نفوس المحلفين.

فقال الرئيس:

- يجب أن ألفت نظر الاتهام إلى أن الشاهد الرابع، وهو المُفتش جافير، قد انصرف عقب أداء الشهادة لمباشرة عمله في إحدى القرى المُجاورة.

فقال المدعي العمومي:

- إذا فبحسبي أن ألفت حضرة المحلفين إلى الأقوال التي أدلى بها لي المفتش في هذه المحكمة منذ بضع ساعات، فقد أكد أنه يعرف

المتهم، وأنه رآه في ليمان طولون، حيث قضى تسعة عشر عاماً بتهمة السطو، ومحاولة الفرار، ووصفه بأنه رجل شرير، عنيف الخلق، مطبوع على الإجرام، وقال إن هناك جريمة أخرى منسوبة إليه فضلا عن سرقة التفاح، وتلك هي جريمة اغتصاب قطعة نقود من غلام صغير يُدعى جرفيه، ويظن كذلك أنه سرق بعض الأمتعة من منزل أسقف كيم في برينول.

تركت هذه العبارة الصريحة أثرها العميق في نفوس السامعين فنظروا إلى المتهم نظرتهم إلى رجل كتب له الضياع، ثم طلب الاتهام دعوة الشهود الثلاثة الآخرين، فأصدر الرئيس أمره إلى الحجّاب، وما هي إلا لحظة حتى فتح باب غرفة الشهود، ودخل الشاهد الأول، وهو رجل في الستين من عمره يدعى بريفيه، قال له الرئيس:

- إنك لا تستطيع أن تحلف اليمين القانونية يا بريفيه لأنك استهدفت فيما مضى لعقوبة جردتك من اعتبارك.

فأطرق الشاهد رأسه، واستطرد الرئيس:

- ولكني أعتقد أن الله قد وهب كل إنسان – حتى ذلك الذي جرده القانون من اعتباره – بقية من الشعور بالشرف والإنصاف، وإني أستنجد فيك هذا الشعور في هذا الموقف الدقيق. ولا حرج عليك أن تعدل عن شهادتك إذا خامرك شك في أنك أخطأت. أيها المتهم قف. وأنت يا بريفيه، انظر إلى المتهم وأنبئنا، أما زلت تعرف فيه

زميلك في الليمان المدعو جان فالجان؟!

نظر بريفيه إلى المتهم، ثم تحول إلى الرئيس وأجاب: .

- نعم يا سيدي، وكنت أول من عرفه. فهذا الرجل هو جان فالجان الذي قضى في ليمان طولون تسعة عشر عاماً، وهو يتظاهر الآن بالبلاهة ولكنه كان في الليمان داهية ماكراً.

جيء بالشاهد الثاني، ويدعى شنيلديو، فدخل القاعة وهو في ثياب السجن وكان لا يزال من نزلاء الليمان، وتحدث إليه الرئيس كما تحدث لبريفيه، وأوصاه أن يُفكر ويحاسب نفسه، ثم طلب إليه أن يقول ما عنده، فقال الشاهد:

- نعم، إنني أعرفه وكيف لا أعرفه حق المعرفة وقد كُنا مشدودين إلى سلسلة واحدة؟!

وجيء بالشاهد الثالث ويدعى كوشياي، وقد كان كذلك من نزلاء الليمان فهو من أولئك التعساء الذين صبتهم الطبيعة في قالب الوحوش وتركت للمجتمع أن يصنع الأقفاص لهم، وسأله الرئيس عما إذا كان يصر على شهادته الأولى. فأجاب بالإيجاب في غير تردد وقال:

- نعم هذا الرجل هو جان فالجان، وكنا نلقبه بالرافعة نظراً لقوته الهائلة.

هكذا دق الشهود آخر مسمار في تابوت المتهم، وقد أصغى

المتهم إلى أقوالهم في دهشة بينة حتى سأله الرئيس بقوله:

- هل سمعت أيها المتهم؟ هل لديك ما تريد أن تقوله؟

- أقول إن هذا كله عظيم.

فانفجر بعض النظارة ضاحكين.

- لم يكن ثمة شك في ضياع الرجل.

وفي هذه اللحظة حدثت حركة بالقرب من رئيس الجلسة، وقال قائل بصوت واضح جلي:

- بريفيه! شنيلديو! كوشباي! انظروا هنا!

ومرت رعدة في أجساد الذين سمعوا هذا الصوت، وكانت نبراته مؤلمة مخيفة، وتحولت جميع الأبصار لمصدره، ورأت رجلاً واقفا وراء الرئيس في المكان الذي يُخصصونه للنظارة الممتازين، وهتف الرئيس والمدعي العمومي وعشرات ممن يعرفون عُمدة مونفورميل:

- الأب مادلين.

كان مُرتب الثياب كالعادة، ولكنه شديد شحوب الوجه، وقد استحال شعر رأسه الذي كان سنجابيا في الصباح إلى كُتلة بيضاء كالثلج، وحدث هذا التحول خلال الساعة التي قضاها في قاعة الجلسة، وسادت

في القاعة جلبة أعقبها صمت عميق وحبس الناس أنفاسهم وانتظروا بأعصاب توشك أن تنفصم، ولم يُصدق أحدهم أن هذا الرجل الهادئ هو صاحب الصوت المؤلم الذي رن بجنبات القاعة منذ لحظة، وقبل أن يتمكن رئيس الجلسة والمدعي العمومي من الكلام، وقبل أن يأتي الحراس والحجاب بحركة، اقترب من الشهود الثلاثة، ذلك الرجل الذي عرفه الجميع حتى الآن باسم مادلين وسألهم:

- ألا تعرفونني؟

فذُهل الثلاثة وهزوا رؤوسهم سلباً، وتحول مادلين للمُخلفين وقال بصوت رقيق:

- أيها المُحلفون، أطلقوا سراح المُتهم. يا سيدي الرئيس، مر بالقبض عليَّ.. إن الرجل الذي تبحثون عنه ليس هو هذا المُتهم ولكنه أنا، أنا جان فالجان.

خُيل كأن قاعة الجلسة قد استحالت لركن في مدينة الموتى فلا حس ولا حركة ولا صوت. بل لا نفس يتردد؛ فقد شعر الجميع بذلك الذعر المقدس الذي يستولي على قلوب الجماهير حين تقع أبصارهم على شيء لا تُدركه عقولهم، وكان رئيس الجلسة أول من ملك نفسه، فارتسمت على وجهه آية من آيات الحزن والشفقة، وتبادل مع المدعى العمومي بضع كلمات في همس، ثُم تحول إلى النظارة، وسأل بلهجة فهم الجميع مغزاها:

- أليس بينكم طبيب؟

قال المدعى العمومي:

- أيها السادة المُحلفون، كلكم تعرفون ولو سمعاً مسيو مادلين المُحترم، عمدة مونفورميل. فإذا كان بالقاعة طبيب فإننا نضم أصواتنا لصوت الرئيس ونرجوه أن يُشرف على مرافقة مسيو مادلين لمنزله.

لكن الأب مادلين تحول إليه، وقال بلطف:

- شكراً لك يا سيدي، ولكني لست مجنوناً وسأثبت ذلك في الحال.

إنني أؤدي واجبي؛ فأنا السجين موضوع المناقشة في هذه القضية، وفي استطاعتكم أن تُلقوا القبض علي؛ فإنني لم أقل غير الحقيقة والله شاهد على ما أفعل وأقول، إنني تواريت تحت اسم مستعار، وصرت غنياً، وأصبحت عمدة، وكنت أريد أن أعيش شريفاً بين الشرفاء، ولكن يُخيل إليّ أن ذلك مستحيلاً، وتوجد أشياء كثيرة لا أستطيع أن أبوح بها، لأنها تنصب على حياتي الخاصة، ولكني أقول لكم إنني سرقت الأسقف حقاً، وسطوت على نقود جرفيه، وقد صدقوا حين قالوا لكم إن جان فالجان مجرم خطر، أصغوا إليّ أيها السادة، إن رجلاً انحدر إلى قرارة الهوة الموحلة التي انحدرت إليها لا حق له بأن يُسدي النصائح إلى المجتمع، ولكني أقول لكم إن السجون تخلق المُجرمين، لقد دخلت ليمان طولون فلاحاً مسكيناً ساذجاً قليل الذكاء، فجعل الليمان مني رجلاً

آخر، كُنت غبياً، إلى أن حدث حادث ردني إلى سواء السبيل، ولكن معذرة فإنكم لا تستطيعون أن تفهموا كل كلامي. بيد أنكم ستجدون في منزلي قطعة النقود التي سرقتها من جرفيه منذ ثمانية أعوام، وليس عندي ما أقول أكثر من ذلك. فألقوا القبض عليّ. إن المدعى العمومي يهز رأسه، ولعله يقول لنفسه إن الأب مادلين قد جُن، ولكن هذا كثير، أطلقوا سراح هذا الرجل على الأقل. كيف هذا، ألا يعرفني هؤلاء الشهود. ليت جافير كان موجوداً، لكان عرفني في الحال، وليس باستطاعة كاتب أن يصف نبرات الحزن والأسف التي امتزجت بصوته حين نطق بهذه العبارات.

وتحول مادلين إلى الشهود الثلاث وقال:

- ولكني أعرفكم.. ألا تذكرني يا بريفيه؟

وتردد قليلا ثم أردف:

- ألا تذكر الشق الذي أحدثتُه في قيودك في أحد الأيام، تمهيداً للفرار؟

فنظر إليه بريفيه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه في ذعر وهلع. واستطرد مادلين:

- وأنت يا شنيلديو ألم تحترق كتفك اليُمنى بأحد الأيام.. أجبني؟

فأجاب الشاهد:

- هذا صحيح.

- وأنت يا كوشياي. ألم تكتب بالوشم الأخضر على ساعدك الأيسر تاريخ عودة الإمبراطور نابليون؟ اكشف عن ساعدك.

فكشف كوشباي عن ساعده، ورأى القوم ذلك التاريخ موشوماً عليه، وعندئذ تحول مادلين للنظارة ثم للمحلفين وارتسمت على شفتيه ابتسامة تركت أثراً دائماً في نفوس جميع الذين رأوها، وكانت ابتسامة فوز، ولكنها كانت كذلك ابتسامة يأس، وقال:

- هل اقتنعتم بأنني جان فالجان؟

في هذه اللحظة لم يكن في القاعة قضاة ومحلفون، ونظارة وشرطة، وكانت هُناك فقط عيون تُحملق وصدور ترتفع وتهبط، وقال جان فالجان:

- ليس في نيتي أن أشغل المحكمة بأمري أكثر من ذلك ما دامت المحكمة لم تأمر بالقبض عليّ فإنني سأنصرف الآن لتصفية بعض الشؤون، والمدعي العمومي يعرفني ويعرف المكان الذي سأذهب إليه، وله متى شاء أن يأمر بالقبض عليّ.

ومشى إلى الباب، فلم يرتفع صوت، ولم تمتد يد لمنعه، وجمد القوم جميعاً في مقاعدهم، فقد كان الموقف من نوع تلك المواقف العظيمة النبيلة التي تحمل الجموع على الانكماش، وإفساح السبيل لرجل واحد!

ولما وصل إلى الباب تحول إلى النظارة وقال:

- لعلكم جميعا ترونني جديراً بالشفقة، يا إلهيّ. كُلما فكرت فيما كان بمقدوري أن أفعله، خُيل إلي أنني جدير بالحسد! مهما يكن الأمر، فإنني كنت أفضل لو أن شيئا من كل ذلك لم يحدث.

الفصل السادس

المُتخاصمان

أشرقت الشمس، وكانت فانتين قد قضت ليلة مسهدة محمومة، ثم استغرقت قُبيل الصبح فيما يُشبه الإغماء، فانتهزت الراهبة «سميليس» هذه الفرصة وتسللت للغرفة المجاورة، لكي تعد جرعة أخرى من الدواء، وفيما الراهبة في عملها بين القناني والعقاقير، إذ بها ترى ظلاً يحجب عنها ضوء المصباح، فحولت رأسها، وأفلتت من بين شفتيها آهة دهشة، وكان الأب مادلين قد دخل دون أن تشعر به، وهتفت:

- أهذا أنت يا سيدي؟

فأجابها بصوت خافت:

- كيف حال المرأة التعسة؟

- إنها قضت ليلة هائلة ولكنها اطمأنت حين استفسرت عن سبب غيابك، فقلت لها: إنك ذهبت إلى بولانيجه لإحضار ابنتها.

وأدركت الراهبة من نظراته أنه لم يحضر الابنة فاستطردت:

- ولكنها ستراك الآن يا سيدي، ولا ترى ابنتها، فماذا تقول لها؟

ففكر لحظة ثم قال:

- سوف يُلهمنا الله ما يجب عمله.

وحانت من الراهبة نظرة إلى وجه مادلين وهتفت:

- يا إلهي.. ماذا حدث لك يا سيدي لقد ابيض شعرك.

- ماذا تقولين؟

فقدمت إليه الراهبة مرآة صغيرة، فتناولها وأطل فيها ونظر لشعر رأسه، وقال:

- هذا صحيح.

قال ذلك بقلة اكتراث، وبلهجة الرجل الذي يُفكر في أمر آخر، وسأل:

- هل أستطيع أن أراها؟

- هل في نيتك أن تأتيها بابنتها يا سيدي؟

- طبعاً، ولكن ذلك يستغرق يومين أو ثلاثة.

- ريثما كان من الخير ألا تراها قبل أن تأتيها بابنتها، وبذلك تظل على اعتقادها بأنك لم تعد، ويسهل علينا إقناعها وتهدئتها، ولا تكون بحاجة إلى الكذب.

ففكر مادلين قليلا ثم قال في هدوء:

- كلا، يجب أن أراها، لأن الوقت ضيق.

- في هذه الحالة تستطيع أن تذهب إليها يا سيدي، ولو أنها نائمة.

فدخل إلى غرفة فانتين، وقصد إلى الفراش، وكانت فانتين نائمة، وأنفاسها تضطرب في صدرها بصوت كالحشرجة وقد استحال اصفرارها لبياض، وارتجفت أهدابها الطويلة الجميلة، ذلك الأثر الوحيد الذي بقي لها من جمالها الغابر، بل ارتجف جسدها كُله كأن لها أجنحة توشك أن تمتد وتطير بها، ووقف الأب مادلين أمام الفراش بغير حراك وراح ينقل البصر بين المريضة وتمثال المسيح المصلوب كما فعل منذ شهرين، يوم جاء لزيارتها للمرة الأولى، وكانا في الموقف نفسه، هي نائمة وهو يبتهل، ولكن في خلال الشهرين انقضيا بين الوقتين، كان شعرها قد خطه الشيب، وشعره قد استحال لكتلة من الثلج، وفتحت فانتين عينيها وابتسمت بهدوء وقالت بابتسامة:

- وكوزيت؟

نطقت بهذا الاسم بلهجة الثقة والإيمان والطمأنينة فلم يجد مادلين ما يقوله، استطردت:

- لماذا لم تضعها في فراشي لكي أراها حالما أفتح عيني؟

فتمتم كلاماً غير مسموع وغير مفهوم، ومن حُسن الحظ أن الطبيب جاء في تلك الساعة، وكان مادلين قد أرسل في طلبه، قال الطبيب:

- رفهي عن نفسك يا ابنتي، فطفلتك هنا.

فلمعت عينا فانتين وأشرق وجهها، وضمت يديها بحركة تُعبر عما تُعبر عنه الصلاة من قوة وحرارة ودعة. وهتفت:

- أواه.. احملها إلي إذاً.

كانت لا تزال تتخيل كوزيت تُحمل على السواعد، فقال الطبيب:

- صبراً.. صبراً، ليس الآن، إن منظر الطفلة يُثيرك، فيؤذيك، يجب أن تبرأي من سقمك أولاً.

- لقد برأت منه، قلت لك إنني برأت من سقمي، إنني أصر على رؤية ابنتي.

فقال الطبيب:

- تأملي كم أنت مضطربة، وكم أنت عنيفة، متى هدأت ثائرتك حملتها إليك بنفسي.

فسقط رأسها فوق صدرها وقالت:

- عفواً يا سيدي الطبيب، أنا لست غضبى، فأنا أعلم تماماً أنني سأكون سعيدة، وقد رأيت الليلة بأحلامي أشياء كثيرة بيضاء ووجوهاً باسمة، وفي استطاعة سيدي الطبيب أن يأتيني بابنتي كوزيت متى شاء، فأنا لست محمومة، إنني شُفيت تماماً، ولكني سألزم الهدوء كما لو كُنت مريضة، حتى إذا رأيتني هادئة قلت: "يجب أن أرد إليها ابنتها".

ثُم التفتت إلى مادلين، وكان قد جلس على حافة فراشها، وراحت تُلقي عليه عشرات الأسئلة:

- هل كُنت موفقاً في رحلتك يا سيدي؟ ما أكرمك إذ تجشمت متاعب السفر من أجلي؟ فقط أخبرني كيف حال كوزيت هل احتملت عناء السفر؟ وا أسفاه لا شك أنها لن تعرفني، لا شك أنها نسيتني خلال هذه السنوات الطويلة، فيا للمسكينة، هل وجدت ثيابها نظيفة؟ هل كانت مدام تيناردييه تُعنى بها؟ أوه.. كم أود أن أراها، ألم تر كيف هي جميلة يا سيدي ألا يُمكن إحضارها هنا، ولو دقيقة واحدة؟ في استطاعتك أن تأتي بها متى شئت لأنك العمدة هنا.

فتناول يدها بين يديه، وأجاب:

- إنها جميلة، وهي بخير حال، وسترينها بأسرع ما يُمكن، فقط هدئي روعك، الانفعال يؤذيك، ويُنشط نوبة السعال.

الواقع أنها أخذت تسعل بشدة، ثم لزمت الصمت لكي توهم القوم بأنها غير مُنفعلة وغير مريضة، فيحملوا إليها ابنتها، وظل مادلين مُمسكا بيدها وراح ينظر إليها بقلق، ولم يكن هناك شك في أنه جاء ليقول لها شيئاً، ثُم غلب عليه التردد، وانصرف الطبيب فلم يبق بالقرب منها سوى الراهبة سميليس، وفجأت أومأت فانتين بيدها تطلب الصمت وهتفت:

- إنني أسمع صوتها، إني أسمع صوتها.

وحبست أنفاسها، وأرهفت أذنيها وأصغت، وسمعت صوت طفلة تلهو أمام المنزل، لعلها ابنة أحد العمال، وكانت المصادفة من نوع تلك المُصادفات الخفية التي تسوقها الأقدار في الوقت المناسب لتخلق بها جو المآسي في هذه الحياة، وكانت الطفلة تعدو في الشارع لتدفئ جسمها، وهي تضحك بصوت مرتفع.

صاحت فانتين:

- إنها كوزيت، لقد عرفت صوتها، إنها...

صمتت، وكان صمتها فُجائياً، فرفع مادلين رأسه ونظر إليها، ووجد أنها كفت عن التنفس وقد انقلبت سحنتها انقلاباً مُخيفاً وابتسمت في عينيها نظرة ثابتة يُخالطها ذعر لا يوصف، فصاح:

- يا إلهي! ماذا دهاك يا فانتين؟

فلم تُجبه ولم تحول عينيها عن الشيء الذي كانت تنظر إليه، فقط مست ساعده بيدها، وأومأت إليه أن ينظر إلى الوراء، ففعل، ورأى جافير..

أما ما حدث في محكمة أراس فهو أن الأب مادلين ما كاد يبرح قاعة الجلسة حتى أفاق المدعي العمومي من ذهوله؛ فنهض واقفا على قدميه، وصرح بأن المفاجأة الغريبة التي حدثت لا تُغير وجهة نظره بحال. وعبر عن أسفه للنوبة العصبية الغريبة التي أصابت عُمدة مونفورميل المُحترم، ثُم أصر على إدانة شانمانيو، بصفته جان فالجان، وكان إصراره يتعارض مع الشعور العام، شعور الجمهور وشعور المحكمة وشعور المحلفين.

ولم يُفوت الدفاع هذه الفرصة، ولم يجد صعوبة في التدليل على براءة المُتهم بعد اعتراف الأب مادلين، واختفى المُحلفون، وأصدروا حكمهم ببراءة المتهم، على أن المُدعي العمومي كان لا يزال يطلب إنسانا باسم جان فالجان، فلما أفلت شانمانيو من قبضته، حول بصره إلى الأب مادلين وبعد مُداولة قصيرة مع رئيس المحكمة أصدر أمره باعتقال عمدة مونفورميل وأرسل الأمر إلى المفتش جافير لإنفاذه، وكان من المتعذر على الذين رأوا المفتش جافير حين دخل غرفة فانتين أن يشعروا بما يعتمل بنفسه؛ فقد كان الرجل هادئا رزيناً كعادته، ولم يُلاحظ عليه الجنود الأربعة الذي رافقوه إلى منزل العمدة ورابطوا ببابه أنه أوسع الخطى أو أبدل مشيته المتئدة الرزينة، ووقع بصر خادم مادلين على

رجال الشرطة، ولم يُخامره شك فقد اعتاد رجال الشرطة زيارة العمدة لأعمال تتصل بمهام وظيفته، ووصل جافير لغرفة فانتين. وفتح الباب بخفة ووقف وقبعته على رأسه ويده مدفونة في صدر معطفه، والتقت عينا مادلين بعيني جافير. ولم يأت المُفتش بحركة، ولم تتقلص عضلة من عضلات وجهه، ولكن الكراهة التي تعتمل بأعماقه طفت على وجهه، فتركت على ملامحه مسحة مُخيفة، جعلته أقرب إلى الأبالسة منه إلى الآدميين..

ولم تكن فانتين قد رأت جافير مُنذ خلصها العمدة من قبضته، فصور لها عقلها السقيم أنه جاء لإلقاء القبض عليها، ولم تقو على رؤية سحنته المُخيفة، فدفنت وجهها بين كفيها وصاحت في ألم:

- أنقذني يا مسيو مادلين.

فنهض مادلين أو يُمكنك أن تقول قام "جان فالجان"، وقال للمرأة في رقة ولطف:

- لا تنزعجي، إنه لم يأت في طلبك.

ثم تحول إلى جافير وقال:

- إنني أعرف ما تُريد.

فأجاب جافير:

- هلم، وأسرع.

كان في نبرات صوته شيء، وحشي ولم ينتظر الجواب بل تقدم خطوة أخرى واستطرد:

- ألا تأتي؟

فأجالت فانتين البصر حولها، فلم يكن في الغرفة سوى الراهبة والعمدة، فإلى من يتحدث جافير إذاً بهذه اللهجة المهينة؟ وصور لها الوهم أن جافير يوجه إليها هذا الكلام، ومرت في جسدها رعدة قوية، ولكنها ما لبثت أن رأت شيئاً عجيباً، شيئاً لم تر أعجب منه في أسوأ أحلامها، فلقد رأت جافير يقبض على عُنق العمدة، ورأت العمدة يطرق رأسه وخُيل إليها أن نهاية العالم قد دنت، فصاحت:

- سيدي العمدة!

ضحك جافير ضحكة مُخيفة قائلاً:

- لا يوجد عُمدة هنا.

ولم يحاول جان فالجان التخلص من اليد التي تقبض على عُنقه، فقال:

- يا جافير.

ولكن المفتش قاطعه بقوله:

- قُل يا سيدي المفتش!

فقال جان فالجان:

- أود أن أتحدث إليك على انفراد يا سيدي.

- تكلم.. إن الناس يتحدثون إليّ بصوت مُرتفع.

- إن لي رجاءً لا يجب أن يسمعه سواك.

- ماذا يهمني رجاؤك؟

فقال جان فالجان بسرعة وبصوت شديد الخفوت:

- إنني على استعداد لأن أدفع أي مبلغ تُريده، وأن تأتي معي في رحلة مهمة لثلاثة أيام، وأن تقبض عليّ بعدها.

فصاح جافير:

- أنت تهذي بغير شك. في الحق لم يخطر لي قط أنك على مثل هذه البلاهة. هل تريدني أن أمهلك ثلاثة أيام لكي تلوذ بالفرار؟ تريد أن تذهب لإحضار ابنة هذه المرأة؟ وما أوسع حيلتك، وأخصب خيالك!

ارتجفت فانتين وهتفت:

- ابنتي! لإحضار ابنتي! وإذا فهي ليست هنا، أجيبيني أيتها الراهبة، أجيبيني أيتها الأخت، أين كوزيت؟ إنني أريد ابنتي يا سيدي العُمدة.

فضرب جافير الأرض بقدمه وصاح:

- ألا تكفين عن الثرثرة أيتها المرأة؟ ما أعجب بلداً عُمدته من المُجرمين وبغاياه يخدمن ويعنى بهن كالنبيلات! ولكن الأوان قد آن لتغيير ذلك كُله.

نظر لفانتين واستطرد قائلاً:

- لا يوجد هنا مسيو مادلين، ولا يوجد عمدة، وإنما يوجد لص وقاطع طريق وسجين سابق يُدعى جان فالجان.

فنهضت فانتين على مرفقها ونظرت لجان فالجان، ونظرت لجافير ونظرت إلى الراهبة وفتحت فمها كأنها تُريد الكلام، ولكن لم ينبعث من شفتيها سوى حشرجة خشنة، واصطكت أسنانها وانبسطت أصابع يديها، ثم انقبضت وسقط رأسها فجأة على الوسادة وبقيت كذلك مفتوحة العينين والفم، ومد جان فالجان يده إلى اليد المُمسكة بخناقه ورفعها كما لو كانت يد طفل، وقال مُحدثا جافير:

- إنك قتلت هذه المرأة.

فصاح جافير في غضب:

- كفى! كفى! إنني لم أجيء كي أصغى لهذا الإسفاف، فرجال الشرطة بانتظارك بالباب، فهلم بنا وإلا اضطررت لتصفيد يديك.

كان في ركن الغرفة فراش قديم اعتادت الراهبتان أن ترقدا فيه كُلما أنهكهما السهر، فمشى جان فالجان لهذا الفراش ومد يده القوية وانتزع إحدى قوائمه ونظر إلى جافير، فتراجع مفتش الشرطة حتى التصق بالباب، ومشى جان فالجان ببطء والقائمة الحديدية لا تزال في يده، إلى أن وقع بجانب الفراش وهُناك أدار رأسه، وقال بصوت خافت لا يكاد يُسمع:

- إنني أنصحك بألا تُزعجني في هذه اللحظة.

ارتجف جافير من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وخطر له أن ينطلق فيدعو رجال الشرطة، ولكنه خاف أن ينتهز جان فالجان هذه الفرصة ويلوذ بالفرار، أما هذا الأخير، فإنه أسند مرفقيه على حافة الفراش، ووضع رأسه بين كفيه، وراح يتأمل فانتين وقد سكنت حركتها، وألقى الموت على وجهها قناعاً مُمتقعاً رهيباً، وظل يتأمل الجثة المُسجاة وتقاطيع وجهه تُعبر عن إشفاق لا وصف له، ثُم انحنى فوق فانتين وتحدث إليها بصوت خافت، ولم يسمع أحد حديثه الطويل إلى المرأة الميتة، فتُرى هل سمعته؟

قالت الأخت سمبليس فيما بعد أن جان فالجان ما كاد يكف عن الكلام، حتى تلاعبت ابتسامة عجيبة على شفتي فانتين وفي عينيها اللتين

أذهلهما الموت، وتناول جان فالجان رأس فانتين ووضعه على الوسادة كما تفعل الأم الثكلى برأس طفلها، ثُم زرر قميصها بإحكام وأغمض عينيها، وكانت إحدى يديها تتدلى من جانب الفراش فتناولها ورفعها لشفتيه، ونهض واقفاً بعد ذلك، وتحول إلى جافير وقال له:

- أنا الآن رهن إشارتك.

أُلقي جان فالجان في سجن المدينة، وأحدث نبأ القبض عليه ضجة عجيبة. ولكن ما يُؤسف له أن جميع الناس أنكروه وتنكروا له حين علموا أنه كان في أحد الأيام من نُزلاء الليمان. فما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى نسي الناس كُل ما قدم من خير. ولم يذكروا من أمره إلا أنه سجين سابق، وهكذا تلاشى الشبح الذي عرفه الناس باسم مادلين. وأغلق المصنع وأقفر الشارع. ولم يبق في منزله مساء ذلك اليوم، سوى خادمته العجوز والراهبتين الساهرتين على جثة فانتين، وقد ذُهلت الخادمة ورفضت حواسها أن تُصدق شيئاً مما يحدث. فلما كان المساء، حملت المصابيح إلى غُرفة الأب مادلين كما اعتادت أن تفعل، غير أنها ما كادت تدخل الغرفة، حتى رأت يداً تدفع النافذة من الخارج، ثم أبصرت الأب مادلين يثب منها، وعقد الخوف لسانها لحظة، ثم هتفت:

- يا إلهي! يا سيدي العمدة، كنت أظن أنك...

- إنني في السجن! إنني كُنت هناك حقاً، ولكني انتزعت أحد قضبان النافذة، ووثبت منها، وهأنذا، ابعثي إليّ بالأخت سمبليس. ستجدينها

حتماً في غرفة تلك المرأة المسكينة.

وتناول الشمعدانين، ولفهما في أحد أقمصته ثُم جلس يكتب، وفُتح الباب في هدوء ودخلت الراهبة سميليس، وكانت ممتقعة اللون، محمرة العينين، والشمعة ترتجف في يدها، وكانت في الصباح راهبة يعصمها الزهد والإيمان عن سائر الانفعالات التي تعصف بطمأنينة الإنسان في هذه الحياة الدنيا، ثم جاءت أعاصير ذلك النهار فردتها امرأة تبكي وترتجف، وكان جان فالجان قد فرغ من كتابة رسالتها، فدفعها إلى الراهبة وقال:

- يا أختاه، هل لك في أن تحملي هذه الرسالة إلى القس؟

لم تكن الرسالة مُغلقة فقلبتها، فقال جان فالجان:

- اقرأيها إذا شئت.

فقرأت فيها: "إنني أعهد للقس مونفورميل بكل ما أملك، وأرجوه أن يوزع على الفقراء كل ما يتخلف من ثروتي بعد نفقات دفن المرأة التي ماتت هذا الصباح".

حاولت الراهبة أن تتكلم فعجزت، ثم تمتمت بعد صمت قصير:

- ألا تريد أن تُلقى نظرة أخيرة على تلك المرأة التعسة؟!

- كلا، إنهم يُطاردونني وإذا قُبض عليَّ بغرفتها فقد تنزعج طمأنينتها.

ما كاد ينطق عبارته حتى سمع وقع خطوات على السلم، ثم سمع الخادمة وهي تصيح بصوت ثاقب:

- أقسم لك يا سيدي أن أحداً لم يدخل المنزل هذه الليلة.

فقال صوت رجل:

- ولكني أرى ضوءًا في تلك الغرفة.

عرف جان فالجان صوت جافير، وكانت الغرفة مُشيدة بحيث إذا فتح بابها أخفى وراءه ركناً ضيقاً. فأسرع جان فالجان إلى هذا الركن وتوارى فيه، وخرت الراهبة سميليس على ركبتيها بجانب المائدة، وفُتح الباب ودخل جافير فلم ترفع إليه الراهبة عينيها، فكانت تُصلي، ورآها جافير فجمد في مكانه، واستولى عليه الارتباك، وكان مطبوعاً على احترام مصادر السلطة والنفوذ بأنواعها، ويرى أن السلطة الدينية أعلى السلطات. فالراهب في نظره رجل طاهر لا يعرف الخداع، والراهبة بنظره مخلوقة طاهرة لا يكذب، فلما رأى الراهبة خطر له أن ينسحب ثم خطر له أن يبقى وأن يُلقي سؤالاً واحداً على الأقل، ولم تكن الراهبة سميليس قد كذبت في حياتها. وقد كان جافير يعلم منها ذلك ويجلها من أجله، فسأل:

- هل أنت وحدك في هذه الغرفة يا أختاه؟

فرفعت الراهبة رأسها وأجابت:

- نعم.

- معذرة إذا ألححت في السؤال. ولكن ألم يقع بصرك في هذا المساء على مُجرم هارب يدعى جان فالجان؟

- كلا.

وكذبت الراهبة مرتين وبسرعة، وبغير تردد، فقال جافير:

- أرجو المعذرة إذا.

وأحنى قامته باحترام وانصرف، وبعد ساعة، كان رجل يشق طريقه وسط الضباب في الطريق لباريس. وقال الذين أبصروه إنه كان يحمل حزمة وعصا، وكان هذا الرجل هو جان فالجان.

وفي صباح اليوم التالي رُدت فانتين لأمها الأرض، وظن القس أنه يؤدي واجبه على أكمل وجه إذ احتفظ لنفسه بأكبر قسط من المال الذي تركه جان فالجان للفقراء، فعمد إلى تبسيط إجراءات الدفن بقدر الإمكان، ووارى فانتين في أحد أركان المقبرة العامة حيث تضيع مقابر الفقراء.

بعد فرار جان فالحان بقليل أُعتقل في باريس وأعيد إلى الليمان، وجاءت فقرة عن اعتقاله تم نشرها في «جورنال دي باري»، وقالت الجريدة:

حوكم أخيراً أمام محكمة «فار» مُجرم خطر يُدعى جان فالجان،

ألقي القبض عليه في ظروف تلفت النظر، فقد استطاع هذا الشقي أن يفلت من رقابة الشرطة. وكان من الدهاء والبراعة بحيث عُين عمدة لإحدى مدن الشمال حيث ابتكر صناعة جديدة درت عليه أرباحاً طائلة، ولكن السلطات ذات الشأن ما لبثت أن أزالت النقاب عن وجهه وألقت القبض عليه وكان قد اتخذ لنفسه عشيقة هي فتاة من أهل المدينة، وقد توفيت هذه الفتاة أثر نوبة أصابتها ساعة القبض عليه، ويستمتع هذا الشقي بجسم المارد وقوة العمالقة، وقد استطاع بفضل قوته أن يفر من سجن المدينة، ولكنه اعتقل في باريس بعد ثلاثة أو أربعة أيام في اللحظة نفسها التي كان يهم فيها بركوب إحدى عربات البريد لمدينة بولانجيه، ويظنون أنه انتهز فرصة تلك الأيام الثلاثة أو الأربعة التي قضاها حُراً طليقاً، فسحب من أحد المصارف الكُبرى مبلغاً جسيماً يتراوح بين ستمائة وسبعمائة ألف فرنك، يُقال أنه أخفاها في مكان لا يعرفه سواه، وضاعت سُدى جميع الجهود التي بذلك لاكتشافه، وقد حوكم جان فالجان أمام محكمة «فار» بجريمة سرقة ارتكبها منذ ثمانية أعوام وقضت عليه المحكمة بالسجن المؤبد، وأرسل في الحال إلى ليمان طولون، وفي أحد أيام أكتوبر من ذلك العام نشرت صحف تولون النبأ التالي:

"غرق أمس أحد المسجونين الذين يشتغلون في ترميم السفينة أوريون، وذلك أثناء محاولته العودة للسفينة بعد أن أنقذ أحد بحارتها من الغرق، ولم يُعثر على جثته. ويظنون أنها غاصت تحت السفينة، ورقم هذا السجين هو ٩٤٣٠ واسمه جان فالجان».

الفصل السابع

المنقذ

كان تيناردييه بالخمسين من عمره، وكانت زوجته بالأربعين، فالتوازن بين الزوجين حاصل في السن، ولكنه مفقود فيما عدا ذلك، وكانت المرأة طويلة القامة عريضة المنكبين، لها جسم الفيل وقوة الثور ونشاط النمر، فهي التي تنظف الحانة، وترتب الأسرة. وهي التي تضع الطعام وتغسل الثياب وترتق الخرق الممزقة، ولا مساعد لها في ذلك سوى كوزيت، وكانت إذا صحت اهتز ما حولها من أثاث وآدميين، وإذا سمعها الناس تتكلم قالوا هذا شرطي، وإذا رأوا كيف تُعامل كوزيت قالوا إنها جلاد، أما الرجل فكان قصيراً هزيلاً صغير الجسم بارز العظام، يُخيل للناظر إليه أنه مريض وما هو بمريض، ولكن ذلك سر دهائه وحيلته، ويسره أن يُفاخر بأنه لا يثمل أبداً، وكان شعاره تجريد الزبون من ماله بأية طريقة، ولذلك لم يكن عجيباً أن تسوء حاله، وأن تتزايد ديونه على ألف وخمسمائة فرنك، ورفعت مدام تيناردييه غطاء آنية الماء وأطلت عليها، فانكمشت كوزيت وارتجفت، فهذه الآنية قد علمت الابنة المسكينة أن تهتم وتكتئب، ولما تبلغ الثامنة من عمرها فقد جعلت مدام تيناردييه من واجبات كوزيت أن تجلب الماء للحانة، وجلب الماء للحانة معناه اجتياز مسافة شاسعة في أية ساعة من ساعات الليل والنهار للوصول إلى عين الماء التي تستقي منها القرية، ونظرت مدام تيناردييه في آنية الماء،

فحبست كوزيت أنفاسها، وساد الصمت لحظة، وكانت الفتاة خلالها تتطلع إلى شفتي المرأة كما يتطلع المتهم إلى شفتي القاضي في انتظار الحُكم، وأخيراً هزت المراة كتفيها وقالت:

- هذا الماء يكفي.

فتنفست كوزيت الصعداء، وعادت إلى عملها، ولكنها راحت تعد الدقائق بفراغ صبر في انتظار أن تسمح لها سيدتها أن تذهب لتنام، وفجأة دخل أحد نزلاء الحانة وقال مُزمجراً:

- إن جوادي يحترق ظمئاً ولم يُقدم له أحد ما يروي ظمأه.

فقالت مدام تيناردييه:

- بل قدمنا له حاجته من الماء.

- أؤكد لك أنه لم يتناول قطرة واحدة من الماء.

فتسللت كوزيت من تحت المائدة حيث كانت تتوارى لستر جسدها الذي لا يستره ثوبها المُهلهل، وقالت:

- نعم.. نعم.. إني قدمت له الماء بنفسي وداعبته وربت على عنقه الطويل.

وكانت كاذبة.

صاح الرجل:

- ها هي فتاة كالفأر تعرف كيف تُرسل كذبة أضخم من الجبل إن الجواد لم يشرب على الإطلاق، وإنه يتنفس بطريقة أعرفها كُلما حل به الظمأ.

فأصرت كوزيت على كذبها، وقالت بصوت لا يكاد يُسمع:

- بل إنه شرب كثيراً.

فقال الرجل بصوت أجش:

- كفى.. أريد ماء لجوادي، وإلا رحلت به في الحال.

فنامت كوزيت تحت المائدة وترك هذا التهديد أثره الفعال في نفس مدام تيناردييه فقالت:

- هذا هو الحق، إذا كان الجواد ظمآن فمن الإنصاف أن يشرب.

نظرت حولها واستطردت:

- أين ذهبت الشيطانة الصغيرة؟!

فخرجت كوزيت من مخبئها كالفأر المبلل بالماء، وقالت المرأة:

- قدمي للجواد حاجته من الماء.

فأجابت كوزيت بصوت خافت:

- ولكن لا يوجد ماء يا سيدتي.

- احملي الآنية وانطلقي بها إلى الينبوع.

فتناولت آنية أكبر منها حجماً وسارت نحو الباب ببطء، وقالت المرأة:

- صبراً.. عرجي في عودتك على حانوت الخباز وابتاعي رغيفاً. إليك خمسة عشر سنتيما.

وألقت إليها قطعة النقود، فوضعتها كوزيت في جيب مئزرها، ووقفت في الباب لا تُبدي حراكاً لعلها كانت تأمل أن يأتي من يُنقذها من ورطتها، وأبصرتها المرأة فصرخت بصوت كالرعد: .

- ألا تذهبي أيتها التعسة؟!

فخرجت كوزيت وأغلقت الباب وراءها، ووقع بصرها أمام الحانة على حانوت لبيع لعب الأطفال. وكان الحانوت لا يزال مفتوحاً لأن الليلة هي ليلة عيد الميلاد، وصاحب الحانوت يضع ببابه دمية كبيرة ترتدي ثوباً مزركشاً، لم تسنح لها الفرصة لمشاهدته عن كثب، وكانت هذه الدُمية موضع إعجاب سكان القرية جميعاً ممن تقل أعمارهم عن عشرة أعوام، ولكن أحداً منهم لم تكن عائلته من سعة المال بحيث تستطيع إهداء

هذه الدمية بمناسبة العيد، ووقفت كوزيت ذاهلة أمام تلك الدمية البديعة، وتأملت ثوبها الحريري وشعرها الناعم، وقالت لنفسها:

- ما أسعد هذه الدمية!

بينما كانت تملأ عينيها الواسعتين بجمال الدمية وقد ذهب بها الخيال كل مذهب، إذ بها تسمع صوتاً يردها للحقيقة كان صوت مدام تيناردييه، وقد أبصرت بها من النافذة، وصاحت:

- ألم تذهبي بعد أيتها الضفدعة القذرة؟ صبراً حتى ألحق بك!

أغلقت النافذة بعنف، فأطلقت كوزيت ساقيها للريح، وما زالت تعدو والآنية الكبيرة بين يديها حتى خرجت من القرية، وتوغلت في ظلام الحقول، وكانت كلما ابتعدت عن القرية زاد إحساسها بالوحشة وشعورها برهبة الليل. فراحت تنقر بأصابعها على الآنية لتحدث صوتا يؤنسها ويشدد من عزيمتها، وانطلقت من القرية عدواً وأوغلت في الحقول عدواً وأحست وهي تعدو برغبة شديدة في أن تصرخ وتستغيث، ولم تكن تفكر، ولم تكن ترى، فقد احتوى الليل جسدها الصغير واحتلت ذهنها صورة واحدة هي صورة تلك المرأة الجهنمية رابضة في انتظارها لتتهمها بالإبطاء وتشبعها ضرباً وركلاً، وانحنت وملأت الآنية بالماء، ولم تشعر وهي تفعل ذلك بأن قطعة النقود انحدرت من جيب مئزرها وسقطت في الينبوع، وأرادت أن تحمل الآنية المُمتلئة فعجزت، وكان إسراعها قد أنهك قوتها فتريثت قليلاً لتلتقط أنفاسها، ثم حملت الآنية وسارت بها

بضع خطوات وتريثت مرة أخرى لتستريح، وحملت الآنية للمرة الثالثة ومشت بها محدوبة الظهر مُطرقة رأسها كعجوز في سن السبعين. واضطرت مراراً أن تتوقف، وفي كل مرة كان الماء المُثلج ينسكب على صدرها ويُبلل قدمها، وحدث ذلك بين الحقول الموحشة في جوف ليلة من صميم الشتاء ولم تره عين غير عين الله، ولم تجرؤ الطفلة على البكاء خوفاً من سيدتها. فقد تعودت أن تشعر بسيدتها على مقربة منها في كل وقت وفي كل مكان، وأنهكها التعب أخيراً فوقفت وهتفت دون أن تشعر، وبصوت الإنسان الذي يئس من كل رحمة في الأرض أو في السماء: "يا إلهي!"

وفجأة أحست بالآنية يخف وزنها، فرفعت رأسها ورأت شبحاً ضخما يتناول الآنية من بين يديها، وكان شبح رجل كبير الجسم تبعها دون أن تشعر وأراحها من حملها الثقيل، ومن العجب أن كوزيت لم يُخالجها في تلك اللحظة شعور بالخوف أو الفزع، فقال لها الرجل بصوت هادئ خافت:

- إن حملك ثقيل!

فأجابت في مذلة وتواضع:

- نعم سيدي.

- كم عمرك أيتها الصغيرة؟

- ثمانية أعوام يا سيدي.

- وهل حملت هذه الآنية مسافة طويلة؟

- إنني ملأتها من الينبوع.

- وإلى أين تقصدين؟

- إلى القرية، يا سيدي.

- كم تبعد من هنا؟

- إنها تبعد مسيرة ربع ساعة.

فوقف الرجل في مكانه، ثم سأل فجأة:

- إذاً فأنت لا أم لك؟

فأجابت كوزيت:

- لا أعلم.

استطردت قبل أن يتمكن الرجل من الكلام:

- لا أظن أن لي أماً إن لغيري من البنات أمهات، أما أنا فلا أم لي

وأردفت:

- أظن أنه لم تكن لي أم قط.

فوضع الرجل الآنية على الأرض، وألقى يديه الكبيرتين على كتفيها وحاول أن يرى وجهها في الظلام، وسأل:

- ما اسمك يا بنية؟

- كوزيت.

فمرت في جسد الرجل رعدة قوية ونظر للفتاة مرة أخرى ثُم رفع يديه عن كتفيها وحمل الآنية واستأنف السير، وسأل بعد قليل:

- من الذي أرسلك لإحضار الماء في مثل هذه الساعة؟

- مدام تيناردييه.

فقال الرجل بقلة اكتراث وبصوت يرتجف قليلاً:

- ومن هي مدام تيناردييه؟

- إنها سيدتي زوجة صاحب الحانة.

- صاحب الحانة؟! إنني سأقضي ليلتي هناك، فأرشديني إلى الطريق.

وعلى الرغم من أن الرجل كان يمشي بخطى واسعة فإن كوزيت لم تجد صعوبة في مُرافقته، فهي لم تعد تشعر بالتعب، وراحت تنظر إلى الرجل من وقت لآخر بشيء كثير من الثقة والطمأنينة. سألها الرجل:

- أليس لمدام تيناردييه خدام؟! أليس في الحانة أحد سواك؟

- بل هناك فتاتان صغيرتان هما إبونين وأزيلما.

- وهل تخدمان مثلك؟

- إنهما ابنتا مدام تيناردييه.. إنهما تلهوان وتلعبان بالدمى

- وأنت؟

- إنني أقوم بالخدمة كُل النهار؟!

فرفعت إليه الفتاة عينيها الواسعتين، ولم ير الرجل في الظلام دمعة ترقرقت فيهما، وأجابت بصوت خافت:

- نعم يا سيدي.

ثم أردف بعد قليل:

- إنني ألهو في بعض الأحيان بعد الفراغ من عملي، ولكنني لا أملك شيئاً من الدمى.

ووصلا القرية وسارا بين شوارعها المظلمة، ومرا بحانوت الخباز ونسيت أمر الرغيف واقتربا من الحانة، فقالت كوزيت:

- لقد اقتربنا فدعني أحمل الآنية، خوفاً من أن تضربني سيدتي، إذا أبصرتك تحملها.

فأعطاها الآنية، وبعد لحظة كانا بباب الحانة، ولم يتمالك كوزيت قبل دخولها من أن تختلس نظرة للدمية المعروضة بالحانوت، وأقبلت مدام تيناردييه على الفتاة وهي تصيح:

- أين كنت أيتها الشقية؟ ولماذا أبطأت حتى الآن؟

فقالت لكي تتقي غضبها:

- هذا السيد يطلب غرفة يا سيدتي.

فاستحالت قسوة المرأة إلى دعة، وصعدت الرجل بعين فاحصة، ولكنها ما كادت ترى رثاثة ثيابه حتى قالت بشيء من الخشونة:

- ادخل يا سيدي.

فدخل الرجل وأرسلت المرأة بصرها إلى حيث كان زوجها كأنما تستطلع رأيه وكان جواب الزوج أن قلب شفتيه باحتقار وأومأ برأسه بإشارة معناها: "اطرديه".

قالت للرجل:

- من دواعي الأسف يا سيدي أنه ليس لدينا غرفة خالية.

- إذاً دعيني أقضي ليلتي في الإسطبل سأدفع الأجر الذي تطلبينه.

- هل تدفع أربعين سنتيما؟

- نعم.

وسمع أحد الزُبن هذا الحديث فنظر إلى تيناردييه في دهشة وهتف:

- أربعون سنتيما؟ إن الأجر عشرون سنتيما فقط!

فأجابه تيناردييه في همس:

- نعم، ولكنه أربعون سنتيما لأمثال هذا الرجل. إنني لا أريد فقراء في حانتي.

- صدقت، فذلك يسيء إلى سمعة الحانة.

أما الرجل فإنه وضع عصاه، والحزمة التي عليها، وجلس أمام إحدى الموائد، فخفت كوزيت، وقدمت له قدحاً وزجاجة نبيذ، وبينما كانت تصب النبيذ في القدح، راح الرجل ينظر إليها باهتمام عجيب، ولم

تكن كوزيت جميلة، ولكن كان يُمكن أن تكون أجمل لو أنها تذوقت طعم الراحة والسعادة، وكانت عيناها الواسعتان غائرتان في محجريهما وقد انطفأ بريقهما لكثرة البكاء، وسقط ضوء المصباح على جسمها فأبرز نحولها ونحافتها المخيفة. ولم يكن ثوبها سوى خرقة قذرة مهلهلة تكشف ثقوبها عن بشرتها الشاحبة المحتقنة في بعض المواضع بتأثير الضرب والركل، وكان منظر الفتاة وصوتها ونظراتها وحركاتها تُعبر عن شيء واحد هو الخوف، وقد بلغ من خوفها أنها لم تجرؤ على الاقتراب من نار الموقد رغم ارتجافها وتساقط قطرات الماء من ثوبها، واستأنفت كوزيت عملها في سكون. والرجل الغريب لا يحول عينيه عنها إلى أن صاحت مدام تيناردييه فجأة:

- أين الرغيف أيتها الضفدعة القذرة؟

كانت كوزيت قد نسيت الرغيف تماماً، فلجأت للمعقل الوحيد الذي يعتصم به الأطفال الخائفون وهو الكذب، قالت:

- إنني وجدت حانوت الخباز مُغلقاً.

- كان يجب أن تطرقي بابه.

- إني فعلت ذلك، ولكنه لم يفتح الباب.

فقالت المرأة بصوت رهيب:

- سأتحقق من ذلك غداً، والويل لك إذا كُنت كاذبة! والآن، أين النقود؟

فدست كوزيت يدها في جيب مئزرها، واخضر لونها في الحال لم تجد قطعة النقود، وقلبت جيبها مراراً، وبحثت فيه باهتمام مؤلم، ولكن بغير جدوى، فصاحت المرأة:

- هل أضعتها أو لعلك تريدين سرقتها؟!

ومدت يدها نحو عصا في أحد الأركان فصرخت كوزيت:

- رحماك يا سيدتي.. لن أفعل ذلك مرة أخرى.

لم يفت الرجل الغريب شيء مما حدث، فراح يبحث في جيوبه بسرعة دون أن يلفت إليه الأنظار، وفي هذه الأثناء، كانت كوزيت تتراجع وتنكمش لتقي جسمها العاري. ورفعت المرأة العصا بيدها، فصاح الرجل الغريب:

- عفواً يا سيدتي، لقد رأيت شيئاً يسقط من جيب الفتاة، ولعله قطعة النقود المطلوبة.

وأحنى قامته وتظاهر بأنه يبحث ويفتش في أرض المكان، ثم نهض على الأثر وهو يقول:

- ها هي يا سيدتي.

- نعم. إنها هي.

كانت قطعة من ذوات العشرين سنتيما، فأخذتها المرأة بغير تردد، وربحت بهذه الصفقة خمسة سنتيمات، وحدجت كوزيت بنظرة صارمة وقالت مهددة:

- حذار أن تعودي إلى مثل هذا.

وتسللت الفتاة لمكانها المألوف تحت المائدة، بعد أن رمقت الرجل الغريب بنظرة تفيض بالشكر والثقة وعرفان الجميل، وفتح أحد الأبواب الجانبية بعد قليل، ودخلت منه إيبوتين وأزيلما، وكانتا فتاتين بديعتين حقاً على شيء قليل من الجمال والأناقة، وكل منهما ترتدي ثوباً من الصوف السميك يقيها شر البرد، ويبرز في الوقت نفسه تناسق أعضائها ورشاقة قامتها، وألقت الأم على ابنتيها نظرة حنان وإعجاب، واستمرت بعملها، أما الفتاتان فوضعت كبراهما على الأرض دُمية جميلة كانت في يدها، وشرعت مع أختها في مطاردة هرة سوداء صغيرة، ولاحظت مدام تيناردييه أن كوزيت لا تصنع شيئاً، وأنها ترقب ابنتيها في عبثهما فصاحت بها:

- أهكذا تشتغلين؟ سأعرف كيف أجعلك تُقلعين عن هذا الخمول.

- دعيها تلعب يا سيدتي، هذه ليلة عيد الميلاد.

ولو أبدى هذه الرغبة زبون مُحترم يُمكن أن تُفيد الحانة منه، إذاً

لرحبت به مدام تيناردييه وعملت على تحقيقها، أما والمُتكلم هو هذا الزبون الوضيع، فالأمر مُختلف، فصاحت المرأة بحدة:

- ما دامت تأكل فيجب أن تعمل، إنني لا أستطيع إطعامها وإيواءها لوجه الله.

فسألها الرجل بلهجة رقيقة:

- وماذا تريدينها أن تصنع يا سيدتي؟

- أن تصنع جورباً لابنتي.

فنظر الرجل إلى قدمي كوزيت العاريتين، وسأل:

- كم من الوقت يستغرق صنع هذا الجورب؟

- ثلاثة أيام أو أربعة.

- وكم يساوي بعد أن يتم صنعه؟

فقلبت المرأة شفتها باحتقار، وأجابت:

- يساوي ثلاثين سنتيما على الأقل.

- هل تقبلين خمسة فرنكات ثمنا للجورب؟

كان تيناردييه قد سمع هذا الحديث، فوجد من واجبه الآن أن يتكلم، قال:

- نعم يا سيدي ما دامت هذه رغبتك إننا لا نُنكر على زبائننا شيئا ولا نرفض لهم رغبة.

قالت الزوجة:

- والدفع فوراً.

فوضع الرجل الفرنكات الخمسة على المائدة، وتحول إلى كوزيت وقال:

- في استطاعتك أن تلعبي يا بُنية.

فدس تيناردييه قطع النقود في جيبه وعضت زوجته على شفتيها، ورمقت الرجل بنظرة بغض وكراهة، وهتفت كوزيت وهي ترتجف:

- أصحيح هذا يا سيدتي؟! هل أستطيع حقاً أن ألعب؟

فأجابت المرأة بصوت رهيب:

- نعم.

فشكرتها الفتاة بشفتيها، وشكرت الزائر بقلبها، وغاصت تحت

المائدة، واقتربت مدام تيناردييه من زوجها، وهمست في أذنه:

- من تظنه هذا الرجل؟

- لقد رأيت أصحاب ملايين يرتدون ثياباً عتيقة خشنة كهذا الرجل.

رأت كوزيت الدمية التي وضعتها إبونين على الأرض حين شرعت في مطاردة الهرة فتسللت من مخبئها بسرعة. واختطفت الدمية لتلهوا بها، وهمت بالعودة إلى مكانها، ولكن إبونين لمحتها وصاحت:

- انظري يا أماه.

فنظرت الأم، ورأت كوزيت ممسكة بالدمية، فصرخت مستنكرة:

- كوزيت!

فذعرت كوزيت، ووضعت الدمية على الأرض في رفق بحركة تدل على القنوط. وعادت إلى مخبئها دون أن تحول عينيها عن الدمية وما لبثت أن انفجرت باكية بصوت مسموع، ونهض الرجل من مكانه وسأل: "ماذا حدث؟!"

فأجابت المرأة:

- قد تجاسرت هذه الشقية على لمس دمية ابنتي.

فقصد الرجل إلى الباب، وفتحه وخرج، وانتهزت مدام تينادرييه هذه الفرصة، وركلت كوزيت بقدمها ركلة جعلتها تصرخ، وعاد الرجل بعد دقائق وبين يديه تلك الدمية الكبيرة الجميلة التي أسالت لُعاب الأطفال جميعاً في القرية، وقال وهو يضع الدمية بين يدي كوزيت: "هذا لك!"

فوجمت الفتاة، وذهلت ولم تستطع الكلام، بل ولم تستطع التنفس.

أما مدام تيناردييه فإنها جمدت في مكانها، وتذكرت كلام زوجها، وراحت تسأل نفسها:

- تُرى من يكون هذا الرجل؟ أسائل هو أم صاحب ملايين؟ ربما كان هذا وذاك. نعم، ربما كان لصاً.

شعرت مدام تيناردييه بأنها لم تمقت إنساناً في الوجود كما أصبحت تمقت هذا الرجل المجهول الذي أرسلته العناية الإلهية إلى كوزيت، وكأنما كانت سعادة كوزيت أكثر مما تطيق هذه المرأة رؤيته، لأنها ما لبثت أن أرسلت ابنتيها إلى مرقدهما، ثُم استأذنت الرجل المجهول في إرسال كوزيت لمخدعها، لأن المسكينة مُتعبة منهكة القوى، وانصرفت كوزيت بدميتها المحبوبة، وبقي الرجل المجهول مكانه، وقد وضع مرفقيه على المائدة، وأسند رأسه بين كفيه، وانصرف إلى التفكير، وانقضت بضع ساعات، وانتصف الليل، وانصرف رواد الحانة، والرجل الغريب قابع في مكانه، لا يتكلم، ولا يحرك ساكنا..

وأخيراً ضاقت المرأة زرعاً، فهمست في إذن زوجها:

- هل في نيته أن يقضي الليل كله هكذا؟ سأنطلق إلى غرفتي، ولك أن تصنع به ما تشاء.

فذهب إليه تيناردييه، وسأله باحترام:

- ألا تشعر بالحاجة إلى النوم يا سيدي؟

- نعم.. نعم. إنك على حق. أين الأسطبل؟

فقال تيناردييه وهو يبتسم:

- سأدلك إليه يا سيدي.

تناول شمعة مضاءة، وحمل الرجل عصاه وحزمته، وصعدا إلى الطابق الأول، وانتهيا إلى غرفة أنيقة فاخرة الأثاث، فهتف الرجل: "ما هذا؟"

فأجاب تيناردييه:

- هذه غرفتنا الشخصية، وقد ظلت مُغلقة مُنذ زفافنا.

فأجاب الرجل بخشونة:

- كنت أفضل أن أنام في الإسطبل.

قبل بزوغ الشمس، كان الرجل المجهول مُرتدياً ثيابه حاملاً عصاه، وأبصرته مدام تيناردييه، فهتفت:

- أترحل بهذه السرعة يا سيدي؟

- نعم. كم يجب أن أدفع؟

فلم تُجب مدام تيناردييه، وقدمت إليه قائمة حساب مرهق، فتناولها، وألقى عليها نظرة شاردة. كان اهتمامه مُنصرفاً إلى شيء آخر؛ فسألها:

- كيف حال العمل هنا؟

فأجابت، وقد أدهشها إنه لم ينفجر غاضباً ساخطاً أن رأى قائمة الحساب:

- إن العمل لا بأس به.

واستدركت قائلة:

- ولكن الأزمة شديدة على كل حال، ومن حسن الحظ أن بعض الزُبن الكرام من أمثالك يختلفون إلى الحانة من وقت لآخر، إن النفقات هنا باهظة يا سيدي، والفتاة الصغيرة وحدها تُكلفنا أكثر مما نطيق.

- من تعنين؟ أية فتاة صغيرة؟

- أعني كوزيت.

فقال الرجل بصوت هادئ، وبقلة اكتراث:

- إذا افترضنا أنك تخلصت منها.

فصاحت، وفي عينيها نظرة بُغض وكراهية:

- خذها، بالله يا سيدي. خذها وأرحنا. فأباركك وأبتهل لله من أجلك ليل نهار. هل تريد أن تأخذها في الحال؟

- نعم، ادعيها.

فصاحت المرأة تنادي الفتاة: "كوزيت".

فقال الرجل:

- كم يجب أن أدفع؟

نظر لقائمة الحساب مرة أخرى، وغمغم في دهشة:

- ثلاثة وعشرون فرنكاً؟!

في هذه اللحظة دخل تيناردييه وقال:

- الحساب ستة وعشرون سنتيما فقط.

نظرت المرأة لزوجها مُستنكرة، وصاحت:

- ستة وعشرون سنتيما فقط؟

فأجاب تيناردييه ببرود:

- نعم.. عشرون سنتيما من أجل الفراش، وستة ثمن النبيذ. أما مسألة الفتاة، فإن لي فيها كلاماً سأقوله لهذا السيد على انفراد.

فانسحبت المرأة، وقدم تيناردييه مقعداً للرجل، وقال بسذاجة مصطنعة:

- يجب أن أقول لك يا سيدي إني أحب الفتاة حب عبادة.

فنظر إليه الرجل المجهول بحدة، وسأل:

- أية فتاة؟

- أية فتاة! كوزيت طبعاً. أليس في نيتك أن تأخذها؟ دعني أقول لك في صراحة إنني لا أوافق لأنني لا أطيق فراقها.

لقد تعهدتها بالعناية مُنذ كانت طفلة، لأنها يتيمة لا أب لها ولا أم. أما زوجتي، وإن كانت ضيقة الصدر سريعة الغضب فإنها تعطف كذلك على الفتاة وتحبها، إنها كابنتينا، وليس أحب لي من أن أسمع صوتها يدوي بين جدران الحانة، وكان الرجل لا يزل ينظر بإمعان. فاستطرد:

- ثُم إنني لا أتركها هكذا لأول عابر سبيل، هب أنني قسوت على نفسي وتركت الفتاة تذهب معك، أفلا يكون من واجبي أن أعرف حتى اسمك. فيجب على الأقل أن أرى أوراقك الشخصية أو جواز المرور الذي تحمله أو أي شيء من هذا القبيل.

فأجاب الرجل في رزانة دون أن يحول عينيه عن وجه تيناردييه:

- أصغ إلي! إن الإنسان لا يحتاج لجواز مرور كي يبتعد عن باريس أربعة فراسخ، وأنا إذا أخذتها فإنني آخذها وأمضي في سبيلي ولا حاجة بك لأن تعرف اسمي وعنواني إنني لا أريد أن يقع بصرها عليك بعد ذلك، إنني سأقطع الخيط الذي يُقيد قدميها، وأتركها تطير، فهل يرضيك هذا؟

وأدرك تيناردييه منذ اللحظة الأولى أنه أمام رجل قوي الإرادة بقدر ما هو قوي العضلات، وكان قد اهتم بمراقبته في الليلة السابقة فلم تفته حركة من حركاته، وأدهشتها النظرات الغريبة الفاحصة التي كان يحدج بها الفتاة، فسأل نفسه:

- تُرى ما سر اهتمامه بها؟ ومن هو هذا الرجل. ولماذا يرتدي هذه الأسمال البالية وجيوبه عامرة بالمال؟

ألقى على نفسه هذه الأسئلة، ولم يهتد إلى جواب، وقضى الليل كله في سهد وتفكير، وكان من المستحيل أن يكون الرجل والد كوزيت.

وإذا لعله جدها! وإذا كان كذلك، فلماذا لا يُعلن شخصيته وصفته؟ وإذا كان لإنسان حق، فإنه لا يتردد في إثباته والحصول عليه، إذاً فهذا الرجل لا صلة له بكوزيت، ولا حق لها عليها، وكان تيناردييه من الرجال الذين يفهمون حقيقة الموقف بنظرة واحدة، وقد رأى الفرصة سانحة للعمل بسرعة وصراحة، فقال:

- أصغ إلى يا سيدي، إنني أطلب ألفاً وخمس مئة فرنكا.

فأخرج الرجل من جيبه حقيبة سوداء عتيقة، وتناول منها ثلاث ورقات مالية وضعها على المائدة وقال:

- جئني بالفتاة.

وما هي إلا لحظة حتى جاءت كوزيت، وأخرج الرجل من حزمته ثوب حداد لفتاة في السابعة من عمرها، وقال مُحدثا كوزيت:

- انطلقي بهذا الثوب إلى غرفتك أيتها العزيزة وارتديه على عجل

ولما تنفس الصبح، شاهد بعض أهل القرية شيخاً رث الثياب، وفتاة في ثياب الحداد يسيران جنبا إلى جنب في الطريق المؤدية إلى باريس، وقد أمسك الشيخ يد الفتاة، وأمسكت الفتاة دمية كبيرة جميلة، فأما الشيخ فلم يكن يعرفه أحد، وأما كوزيت فلم يعرفها في ثوبها الجديد إلا القليلون، وكانت مدام تيناردييه قد أطلقت يد زوجها في العمل وتوقعت نتائج باهرة، وانتظر تيناردييه نصف ساعة بعد رحيل كوزيت، ثُم انتحى

بزوجته، وأبرز لها الألف والخمسمائة فرنك، فسألته:

- هل هذا كل ما حصلت عليه؟

ورمقته شزراً فأطرق رأسه لحظة ثم قال:

- إنك على حق، لقد كنت مُغفلاً، إليَّ بقبعتي!

دس النقود في جيبه وانطلق في أثر الرجل وكوزيت، وهو يقول لنفسه:

نعم.. إنني حمار عجوز، وهذا الرجل من أصحاب الملايين بغير شك. فقد أخرج من جيبه أولاً عشرين سنتيماً، ثم خمسة فرنكات، ثم خمسين فرنكاً ثم ألفاً وخمسمائة وفعل ذلك بكل بساطة، ولو طلبت خمسة عشر ألف فرنكا لأعطانيها بغير تردد، ولكني سألحق به، وتذكر الثوب الذي أعده الرجل سلفاً لكوزيت، وحار في فهم هذا اللغز، ولحق بالرجل والفتاة في دغلٍ بعيد عن القرية، وكان الرجل قد جلس تحت شجرة هناك ليسمح للفتاة ببعض الراحة، واقترب تيناردييه بخفة، وفاجأ الرجل بظهوره، وقال وهو يلهث:

- عفواً، إليك الألف والخمسمائة فرنكا.

فنظر إليه الرجل في هدوء وسأل:

- ماذا يعنى هذا؟

فأجاب تيناردييه باحترام:

- معنى هذا يا سيدي أنني أريد العودة بكوزيت.

فذُعرت الفتاة وتعلقت يساعد الرجل، أما هذا فإنه نظر إلى تيناردييه بحدة، وقال وهو يتمهل بعد كل كلمة:

- تريد.. العودة.. بكوزيت؟

- نعم يا سيدي، ويجب أن أقول لك أنني فكرت في الأمر ملياً، والواقع أنه ليس من حقي أن أترك الفتاة لك، فأنا رجل شريف كما ترى، فهذه الفتاة ليست ابنتي، وقد استودعتنيها أمها، وإلى أمها يجب أن أردها، وستقول لي إن أمها ماتت، حسناً في هذه الحال لا أسلم الفتاة إلى غير الشخص الذي يحمل تفويضاً من أمها، فالأمر واضح كما ترى

فلم يُجبه الرجل، ودس يده في جيبه، وأخرج حافظة النقود، وهُنا وثب قلب تيناردييه بين ضلوعه، وقال لنفسه:

- لقد صدقت ظنوني.. ها هو يسعى إلى إرضائي وابتياع سكوتي.

أما الرجل فإنه أجال النظر حوله، وتحقق من إقفار المكان من المارة. ثم فتح حافظة النقود ولم يخرج منها رزمة الأوراق المالية كما توقع تيناردييه، بل أخرج قصاصة ورق صغيرة قدمها إلى تيناردييه وهو

يقول:

- اقرأ هذه الورقة.

قرأ تيناردييه الورقة، وجاء فيها ما يلي: "مسيو تيناردييه، أرجو أن تعهد بابنتني إلى حامل هذه الرسالة، وسيتولى عني سداد ما علي من ديون" فانتين.

سأله الرجل:

- هل تعرف هذا التوقيع؟

كان توقيع فانتين، فلم يستطع تيناردييه إنكاره، وقال الرجل:

- في استطاعتك أن تحتفظ بهذه الرسالة لوقت الحاجة.

فطوى تيناردييه الورقة، وقال:

- ربما كان التوقيع مُزوراً ببراعة، ولكن ذلك لا يهمني كثيراً. المهم أن تدفع الديون وهي كثيرة.

فنهض الرجل واقفاً، وقال:

- في يناير الماضي كانت والدة هذه الفتاة مدينة لك بمائة وعشرين فرنكاً. وفي فبراير أرسلت أنت إليها قائمة حساب بمبلغ خمسمائة فرنك، فبعثت إليك بثلاثمائة فرنكا في نهاية الشهر، وبمثلها بداية

شهر مارس، وانقضت تسعة أشهر مُنذ ذلك العهد، والأجر المُتفق عليه هو خمسة عشر فرنكا، فيكون المجموع ١٣٥ فرنكاً، ولكني أعطيتك منذ ساعة ألفاً وخمسمائة فرنكا.

فشعر تيناردييه كأنه ذئب وقع في فخ، ولكنه اعتصم بالجرأة والقحة، قال:

- أنا لا أعرف اسمك يا سيدي، فإذا لم تُعطني ثلاثة آلاف فرنكا فإني أعود بكوزيت.

فلم يزد الرجل على أن قال بهدوء:

- هلمي بنا يا كوزيت.

وحمل عصاه بيُمناه، وتأبط ساعدها بيسراه واستأنفا السير، ولاحظ تيناردييه ضخامة العصا وإقفار المكان، فقال وهو يدور على عقبيه:

- إنني مازلت مغفلاً كان يجب أن أتسلح بمسدسي.

الفصل الثامن

الدير

في حقيقة الأمر لم يمت جان فالجان غرقاً كما أذاعت الصحف، لأنه في الواقع ما كان ينقذ البحار الذي أشرف على الغرق حتى ألقى بنفسه في الماء وغاص حتى ابتعد عن السفينة، ثُم اعتصم بأحد القوارب، وتوارى هناك حتى أرخى الليل سدوله، وقد رأينا كيف ذهب إلى بولانجيه، وأنقذ كوزيت من براثن تيناردييه وزوجته، وعاد بها إلى باريس، وقد كان ذلك اليوم من الأيام المشهودة في حياة كوزيت. وكان سرورها لا حد له بالرغم من المرحلة العظيمة التي قطعتها إلى جانب مُنقذها، ولم تشك تعباً ولا نصباً، ولكن الرجل الطيب القلب شعر بتعبها فأشفق عليها وحملها فوق ظهره، وغلبها الإعياء فاستسلمت لنوم عميق.

كانت الغرفة التي استأجرها جان فالجان تكاد تكون بمعزل عن سائر المنازل، في مكان مقفر تنقطع فيه أقدام الناس، وهي غرفة حقيرة متواضعة الأثاث، ليس فيها غير فراش بسيط ومنضدة ومقعدين وموقد، ووضع جان فالجان الفتاة في الفراش، ثم أضاء شمعة ولبث برهة يتأمل وجهها، وقد انعكست كل مشاعره الرقيقة على صفحة وجهه، وكاد حنانه الشديد وعطفه الأشد يسيلان من عينيه دموعاً، وما تمالك إلا أن انحنى على يدها الممدودة، وقبلها كما قبل يد أمها منذ تسعة أشهر حين نامت نومها الأبدي.

استيقظ في صباح اليوم التالي وهي ما تزال تستمتع بنومها العميق حتى إذا مرت إحدى عربات النقل الثقيلة، وأزعجها دوي عجلاتها، انتفضت ونهضت واثبة من مرقدها وعلى وجهها علامات الرعب وصاحت:

- هأنذا يا سيدتي!

راحت تدور بعينيها حولها، فوقع بصرها على جان فالجان، ووجدته ينظر إليها مشفقا وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة فهدأ روعها، وسألته قائلة:

- هل يجب أن أكنس؟

- كلا، العبي.

فانصرفت إلى دميتها تناجيها وتدللها وهي أشد ما تكون سعادة وغبطة، وتتابعت الأيام، وهذان المخلوقان يستمتعان بالسعادة في غرفتهما الصغيرة. وبدأ يُعلمها القراءة والكتابة، وشعر بغبطة لا حد لها وهو يُلقنها كيف تُصلي ويُحدثها عن أمها، ويُراقبها وهي تُداعب دُميتها، وكانت المرأة التي يقيم في بيتها عجوزاً ثرثارة، ولطالما حاولت أن تكشف أمره باستدراج كوزيت سائلة أسئلة مقتضبة، ولكن الصغيرة كانت لا تعلم من أمره وأمرها أكثر من أنه هبط عليها من السماء فانتشلها من الجحيم.. وخطر للمرأة يوماً أن تراقب جان فالجان، بعد عودته، من ثقب القفل، فرأته يخرج ستره، ثم جاء بمقص وقطع خيوط البطانة

وأخرج منها ورقة مالية صفراء وضعها في جيبها، وتناول إبرة وخاط البطانة وأعادها كما كانت، وبعد لحظة دعاها إليه، وأعطاها تلك الورقة، وطلب إليها أن تصرفها.

نظرت المرأة إلى الورقة ووجدتها من ذوات الألف فرنك فدهشت وتضاعف فضولها، وذات ليلة، خيل إلى جان فالجان أنه يسمع وقع أقدام تنتقل بخفة أمام باب غرفته، وكان قد أطفأ المصباح وهم بالرقاد، فاعتدل في فراشه وأصغى، وما لبث أن رأى شعاعاً ينبعث من ثقب الباب، ولاحظ في الوقت نفسه انقطاع صوت الأقدام. فأدرك أن هناك من ينظر إلى داخل الغرفة خلال الثقب، ثُم تلاشى الشعاع فجأة، وساد السكون، وشعر بالقلق والجزع، وقضى ليلته أرقاً مُسهداً. وفي اليوم التالي قالت له العجوز:

- أظن أنك سمعت صوت أقدام أمام غرفتك ليلة أمس يا سيدي.

فأجاب متظاهراً بقلة اكتراث:

- أظن ذلك.

- إنه الساكن الجديد، والظاهر أنه اعتاد التأخر ليلاً، والنهوض مُبكراً.

- الساكن الجديد؟ ما اسمه؟

- لا أذكر. ديمون أو درمون.

- وماذا يصنع؟

فنظرت إليه المرأة بعينين ضيقتين وأجابت:

- أظن أنه يعيش من إيراده مثلك.

ربما لم تعن المرأة شيئاً خاصاً، ولكن جان فالجان لم يطمئن إلى نظراتها وصوتها وعبارتها الأخيرة، ولم يبرح جان فالجان الغرفة في ذلك النهار، وما إن هبط الليل، حتى خرج من المنزل، وأجال البصر حوله، واستوثق من خلو الطريق من الرقباء، ثُم عاد أدراجه إلى كوزيت، وقال لها:

- هلمي بنا.

وانصرف معها، واتخذ من الظلام ستراً، وما زال يتنقل بالفتاة بين الأزقة الملتوية، وينظر وراءه بين الفينة والأخرى كالجواد الطريد إلى أن بلغ زقاق "بيركاس" وهو زقاق ضيق مُظلم، وهناك خُيل إليه أنه يسمع وراءه وقع خطوات كثيرة، وسمع صوتاً كقصف الرعد يهتف:

- ابحثوا عنه في هذا الزقاق، جميع الشوارع المجاورة موضوعة تحت المراقبة.

وجمد جان فالجان في مكانه؛ فقد عرف صوت جافير، وسمع وقع الأقدام تقترب بسرعة، ونظر الطريق حوله، وسقط في يده، فلقد كان

الزقاق موصداً وتُحيط به من كل ناحية جدران مُرتفعة لا منفذ فيها، وكأنما أحست كوزيت بخطورة الموقف فقالت وهي ترتجف خوفاً وفزعاً:

- إني خائفة، يا أبيّ.

فأجابها في همس: "اطمئني".

ووقع بصره على المصباح الذي يضيء الزقاق، وكان المصباح يتدلى من حبل طويل، فأسرع جان فالجان إلى المصباح فأطفأه وانتزع الحبل، وعقده حول خصر كوزيت. فما إن استوى فوق حافة الجدار، حتى شرع يجتذب الفتاة بواسطة الحبل ثم أدلى بها في الناحية الأخرى من الجدار، ووثب في أثرها، وجد نفسه في حديقة مترامية الأطراف، ينهض في نهايته بناء مُنخفض مُظلم، وكانت كوزيت تلهث من التعب والخوف فاحتواها بين ساعديه وأرهف أذنيه، فسمع جلبة وراء الجدار، ولكنه لم يتبين حرفاً مما يُقال..

ولما نظر إلى كوزيت بعد ذلك، وجدها تغط في نومها، وفيما هو حائر لا يدري ماذا يفعل، سمع رنين جرس صغير، ورأى رجلاً يتحرك في الحديقة وبيده مصباح، وكان الجرس يرن كُلما تحرك الرجل، ويقف على الرنين كُلما كف الرجل عن الحركة. فعجب لهذه الظاهرة، ثم أدرك أن الرجل والجرس لا بد أن يكونا كُتلة واحدة، ومس يد كوزيت، فإذا بها باردة مثلجة، وناداها، فلم تُجب، فذُعر وأشفق على الصغيرة أن يقتلها البرد وغمغم:

- يا إلهي، ألا يوجد ملجأ؟!

مدد كوزيت على الأرض، وقصد الرجل الذي رأه يتحرك في الحديقة، ولما اقترب منه، رأى على ضوء المصباح جرساً معدنيا صغيراً مشدوداً إلى منطقته، ولم يشعر به الرجل، ففاجأه جان فالجان بقوله:

- هل لك في أن تربح مائة فرنكا؟

فذعر الرجل ورفع رأسه، واستطرد جان فالجان:

- إنني أعطيك مائة فرنكا، إذا وجدت لي مأوى أقضي فيه هذه الليلة.

فرفع الرجل المصباح في يده، ونظر إلى وجه جان فالجان طويلاً ثم هتف:

- من ذا الذي أرى.. الأب مادلين؟

فذعر فالجان، وتراجع خطوة إلى الوراء، وكان يتوقع كل شيء إلا أن يعرفه هذا الرجل الغريب، في تلك الظروف الغريبة، فغمغم:

- من أنت؟ وما هذا المنزل؟

فصاح الرجل:

- يا إلهي! ألا تعرفني؟ إنك أنقذت حياتي، وأوجدت لي هذا العمل.

فحملق جان فالجان في وجه محدثه وعرف فيه فوشليفان، فغمغم:

- آه.. أهذا أنت؟ لقد عرفتك الآن.. ماذا تصنع هنا؟

- إنني أشفقت على الزرع من الصقيع ولم يطب لي نوم، فجئت لتغطيته حتى لا يُصيبه التلف، ولكن كيف استطعت الوصول إلى هنا؟

رأى جان فالجان من الحكمة أن يلزم جانب الحذر؛ فأجاب عن هذا السؤال بسؤال آخر، وقال:

- وما هذا الجرس المشدود إلى منطقتك؟

- إنني أحمله خصيصا لكي يجتنبنني؟

- ماذا تعني؟ إنني لا أفهم شيئا بحق السماء.

فغمز فوشليفان بعينيه وقال:

- ذلك أنه لا يوجد في هذا المكان غير نسوة وبنات، والظاهر أنه من الخطر عليهن أن يقابلنني، فحملت هذا الجرس لكي يعرفن مكاني فيجتنبنني.

- وما هذا المنزل؟

- ألا تعرفه؟ أنت الذي أوجدت لي عملي هنا!

- أجنبي كما لو كنت لا أعرف شيئا.

- هذا دير سان أنطوان.

فتذكر جان فالجان، وقال فوشليفان:

- ولكن، بالله كيف استطعت الدخول؟ إنك قديس حقاً. ولكنك رجل على كل حال ودخول هذا الدير ممنوع على الرجال.

- ولماذا دخلت أنت؟

- إنني البستاني، وليس هنا من الرجال سواي.

فاقترب منه فالجان، وألقى بيده على كتفه، وقال بصوت رزين:

- أصغ لي، إنني أنقذت حياتك ذات يوم، فهل تنقذ الليلة حياتي؟ إنني أنوي البقاء هنا.

- أنقذ حياتك؟ يا إلهي، ماذا تقول أيها الأب مادلين. إنني لا أنقذ حياتك فحسب، ولكنني أفتديها بحياتي. فتكلم. ماذا تريدني أن أفعل؟

- هل لك غرفة خاصة؟

- بل إن لي ثلاث غرف في خرائب الدير في مكان لا يذهب إليه أحد.

- حسناً.. إنني أطلب منك أمرين: الأول ألا تتحدث عني إلى أحد، والثاني ألا تحاول معرفة المزيد من أمري.

- على رسلك: أنا أعلم أنك لا تفعل غير ما هو كريم ونبيل.

- إذاً سأجيء بالفتاة.

فهتف فوشليفان:

- أية فتاة؟

- إنها طفلة صغيرة.

- هل هي ابنتك؟

- إنني جدها، واسمها كوزيت.

اهتدى جافير بمخبأ جان فالجان بعد أن كان هو أول من اعتقد بموت غريمه غرقا بذكائه وفطنته وحرصه على أداء واجباته، وكل ذلك لفت الأنظار إليه في إدارة الشرطة فنُقل مُفتشا للشرطة في باريس. وانتهى إليه عن طريق أعوانه وعيونه نبأ شيخ رقيق الحال اشتهر بهباته للفقراء وبأعماله الخيرية، رغم ما يبدو من رثاثة حاله. ومن أنه أجدر بالإحسان ممن يحن هو عليهم، فتحركت ريبته وذهب به الظن إلى أن هذا الرجل ربما كان من اللصوص، وقد اتخذ الإحسان والأعمال الخيرية

ستاراً يحجب به شروره، فعمد لمُراقبته، وخُيل إليه أنه عرف فيه جان فالجان، ولكنه حار في أمر الفتاة الصغيرة التي رآها تخرج برفقة الشيخ، وكان يعرف أن جان فالجان لم يتزوج، ولكنه عاد فتذكر فانتين، وتذكر يوم أراد اعتقال جان فالجان، فاستمهله هذا ثلاثة أيام ليرد إلى المرأة التعسة ابنتها، ثم تذكر أنه ألقى القبض عليه آخر مرة وهو يهم بركوب عربة البريد إلى بولانجيه حيث توجد ابنة فانتين، وزالت شكوكه وريبته حين علم من العجوز صاحبة المنزل أن كوزيت لا تعرف من أمرها ومن أمر هذا الشيخ الغريب إلا أنه أخذها من حانة في بولانجيه

أما فوشليفان، فإنه لم يُخلص منقذه فحسب، بل عمل على إقناع رئيسة الدار بحاجته إلى مساعد، وقدم إليها جان فالجان بصفته أخاه فألحقه بالعمل، وضمت كوزيت إلى بنات الدير.

وفي الدير قضى جان فالجان وكوزيت ثمانية أعوام، تثقفت كوزيت في خلالها وكبرت وترعرعت وبلغت مبلغ النساء.

الفصل التاسع

الفخ

لم يكن ماريوس يعرف من أمر جاره شيئاً، ولم يهتم قط بأن يعرف، وكل ما علمه من أمر هذا الجار هو أنه يُدعى «جوندريت». وأنه يعيش مع زوجته وابنتيه في غرفة حقيرة قذرة لا تكاد تصلح للخنازير، ولكن حدث هذا اليوم أن سمع ماريوس في غرفه جاره جلبة غير عادية. ووصل لأذنيه صوت جوندريت وهو يصيح بامرأته:

- هلمي! أطفئي النيران، وحطمي زجاج النافذة، وارقدي في الفراش واملأي الدنيا أنيناً.

فدهش ماريوس، وعجب لماذا يأمر الرجل زوجته بإطفاء النار وتحطيم زجاج النافذة وملء الدنيا أنيناً، وكان يفصل بين غرفته وغرفة جوندريت جدار في أعلاه كوة صغيرة مُشبكة بالقضبان الحديدية، فجاء بمقعد صعد عليه، وأطل من تلك الكوة. ورأى جوندريت يسير في الغرفة الضيقة جيئة وذهاباً وهو يفرك كفيه بارتياح ويقول:

- كُنت واثقاً من أنه سيأتي. فقد كتبت الرسالة بأسلوب يُذيب الصخر، فكيف بقلب شيخ مُتقدم في السن، عُرف بحبه للخير.

ثم التفت إلى ابنته الكبرى وقال:

- هل أنت واثقة من أنه سيأتي يا إيبونين؟

فأجابت إيبونين وهي تلهث:

- أؤكد لك أنه سيأتي. إنه قرأ الرسالة، وهز رأسه، وسألني عن عنوان المنزل، وأمر سائق مركبته أن ينطلق به إلى هنا.

فانقلبت سحنة جوندريت، وقال:

- إذا صح ذلك وجب أن يكون هنا الآن، وإلا كيف لك أن تسبقي المركبة، وتصلي قبله؟

فأجابت إبونين:

- إنني انطلقت أعدو بين الأزقة، وسلكت أقرب السبل إلى هنا.

فتحول جوندريت لزوجته وصاح:

- هل سمعت أيتها المرأة إنه قادم فاطفأي النار وتمددي على الفراش وأنت يا إيبونين مزقي هذا المقعد وحطمي هذا الزجاج

فأطاعته المرأة والفتاة، وهتف جوندريت وهو يفرك كفيه:

- هذا حسن، هذا حسن! ها نحن على استعداد لاستقبال المُحسن الكريم.

ما هي إلا دقائق، حتى سمع جنودريت طرقاً على الباب فأشار إلى امراته وابنتيه أن يلزمن الصمت، وقال:

- تفضل بالدخول يا سيدي!

وفتح الباب، فدخل رجل متقدم في السن، أشيب الشعر، وبرفقته فتاة حسناء في مقتبل العمر، ورأى ماريوس، من مخبئه، ذلك الشيخ وتلك الفتاة، فوثب قلبه بين ضلوعه، ولم يصدق عينيه، وكان قد رأى الفتاة للمرة الأولى في حدائق لكسمبورج منذ ستة أشهر، فأعجب بجمالها واحتشامها، ثُم لاحظ أنها تتردد إلى الحدائق كُل يوم بصحبة ذلك الشيخ الذي أطلق عليه فيما بينه وبين نفسه اسم مسيو «لبلان» أي «الأبيض» نظراً لبياض شعره. فراح بدوره يتردد إلى تلك الحدائق، ولفت تردده نظر الفتاة، كانت تشعر به كُلما اقترب، فيصعد الدم إلى وجنتيها، ثُم بادلته النظرات والابتسامات، وتبعهما ذات يوم إلى منزلهما، وأراد أن يستفسر من بواب المنزل عن حقيقة أمرهما وظنه البواب جاسوساً. فلم يرفض إجابته فحسب، بل أنبأ مسيو لبلان بأمره. وكانت النتيجة أن ماريوس لم ير الرجل والفتاة في لكسمبورج بعد ذلك. وعندما ذهب إلى المنزل، أنبأه البواب بأنهما رحلا وأنه لا يعرف مقرهما، وقضى ماريوس بضعة أسابيع في البحث عن صاحبته، حتى استولى عليه اليأس. ولذلك كانت دهشته لا حد لها حين أبصرها أمامه فجأة كأنها هبطت من السماء، ووقف مسيو لبلان بباب الغرفة، وأجال حوله نظرة إشفاق ورثاء وكانت غرفة صغيرة مُظلمة تنبعث العفونة من جدرانها، قال مسيو لبلان

وهو يقدم لجوندريت حزمة كبيرة:

- ستجد في هذه الحزمة يا سيدي ثياباً جديدة وجوارب وأغطية.

فبسط جوندريت ساعديه، وهتف ببراعة الممثل المقتدر:

- جزاك الله عنا خير الجزاء أيها المحسن الكريم.

ولكنه قال لنفسه:

- هذا ما كنت أخشاه: ثياب ولا شيء من النقود.

قال مسيو لبلان:

- أرى أنكم جديرون بالشفقة حقاً، يا مسيو جوندريت.

- إنني كُنت ممثلاً عظيماً يا سيدي. إنني من تلاميذ تالما المشهور، وقد عرفت معنى النجاح والسعادة ولكن وا أسفاه فالحظ قلب لي ظهره فأصبحت أنا وزوجتي وابنتاي بلا طعام ولا ثياب ولا نار في هذا البرد القاتل، وها هي زوجتي المسكينة طريحة الفراش منذ شهرين. وهذه الغرفة لم أدفع أجرها منذ ستة أشهر.

كان جوندريت يتكلم وينظر لمسيو لبلان بحدة، وقد تغضن جبينه، وكأنه يُفكر ويبحث بين ذكرياته القديمة، وبحث مسيو لبلان في جيوبه، ولم يجد غير قطعة من ذوات الخمسة فرنكات فدفعها له وهو يقول:

- يا مسيو جوندريت يؤسفني أنني لا أجد معي الآن غير هذا المبلغ التافه. ولكني أعدك بزيارة أخرى في الساعة السادسة من مساء اليوم. كم يبلغ دينك لصاحب المنزل؟

- ستون فرنكاً يا سيدي.

- حسناً! إلى اللقاء في هذا المساء!

دار مسيو لبلان على عقبيه، فأسرع جوندريت للمرأة وهمس بأذنها:

- انظري إليه جيداً أيتها المرأة.

كان لبلان قد تأبط ساعد الفتاة وانصرف بها، وعندئذ لاحظت إيبونين أنه ترك معطفه، فصاحت:

- إنك نسيت معطفك يا سيدي!

فأجابها وهو يبتسم:

- كلا.. إنني لم أنس، ولكني تركته.

فصاح جوندريت:

- يا لك من مُحسن كريم، إن جسمي يكاد يذوب دموعاً.

ما كاد الرجل والفتاة ينصرفان، حتى وثب ماريوس من مخبئه وانطلق في أثر مركبتهما. ولما عاد بعد ربع ساعة، كان وجهه يتهلل بشراً، ذلك أنه عرف منزل الشيخ والفتاة.

قال جوندريت لزوجته وهو يُجادلها:

- سأقول لك شيئا آخر، هو أنني وضعت يدي اليوم على كنز ثمين، وأننا سنشبع اليوم بعد جوع، ونروى بعد ظمأ.

- ماذا تعني؟

- إليك ما أعني فأصغ إلي.

وصمت لحظة، ثم استطرد بصوت خافت، ولكنه ليس من الخفوت بحيث لا يصل إلى سمع ماريوس:

- لقد وقع المليونير في الفخ هذه المرة. إنه سيعود في الساعة السادسة، وفي هذه الساعة يكون جارنا قد انطلق لتناول طعام العشاء، وتكون صاحبة الدار في شغل بغسل الصحاف. فلم يفطن إلينا أحد متى أنفذنا الخطة التي بسطتها لك.

- ولكن هب أنه أنكر ورفض؟

- في هذه الحالة أرغمه على الرضوخ، وإذا أصر قتلته.

أدرك ماريوس من هذه الكلمات أن الرجل وامرأته يُدبران فخاً لمسيو بلان. فاضطرب وفزع، ثُم تجلد وتشجع، وحزم أمره على إنقاذ الرجل إرضاءً للفتاة التي يُحبها، ولكن ماذا يصنع؟ وفكر الشاب في الأمر ملياً. وانتهى من تفكيره إلى حل. فغادر غرفته، وقصد ليقابل أحد مفتشي الشرطة في مركزه، وحدثه بما سمع، وأصغى إليه المفتش في سكون ووجوم ثُم سأل:

- وهل تعتقد أن جوندريت ينوي الفتك بالرجل الذي أحسن إليه؟

فأجاب ماريوس:

- جميع الأدلة تحمل على سوء الظن بهذا الرجل وأكبر ظني أنه سيستعين على إنفاذ خطته بآخرين على شاكلته، لأنه هزيل ضعيف البنية.

- هل معك مُفتاح للباب الخارجي؟

- نعم.

- أعطنيه.

فأطاع ماريوس، وقال المُفتش:

- والآن، حاول أن تعود لغرفتك، وأن ترقب ما يحدث دون أن تُشعر

جارك، ومتى وجدت أن الفخ قد أحكم، وأن الجريمة توشك أن تتم، أطلق رصاصة من هذا المسدس، فأخف إلى نجدتك واعتقال الأشقياء

وناوله مسدس محشو، ثُم سأل:

- متى يأتي الرجل؟

- في الساعة السادسة.

- هذا حسن.. لا تنس أن تطلق رصاصة من المسدس!

فعل ماريوس ما أشار به مفتش البوليس، فكمن وراء الكوة وراح ينصت ويرقب، وكانت غرفة جوندريت خالية إلا من زوجته، أما الابنتان فانطلقتا لاستجداء أكف المُحسنين. وأما جوندريت فإنه لم يعد إلا بالساعة الخامسة، وفي الساعة السادسة تماماً، سمع ماريوس طرقاً على باب جوندريت فصاح هذا بلطف:

- تفضل بالدخول أيها المُحسن الكبير.

كان القادم مسيو لبلان حقاً، فدخل الغرفة بخطى ثابتة، ووضع على المائدة أربعة جنيهات، وهو يقول:

- إليك ما وعدتك به يا مسيو جوندريت. في استطاعتك أن تدفع

ديونك، وتحتفظ ببقية من المال، وسنرى ما يكون بعد ذلك.

فقال جوندريت:

- جزاك الله عنا خيرا أيها السيد النبيل!

وتظاهر بأنه يضع النقود بين يدي زوجته، وهمس في أذنها:

- قولي لقائد المركبة إن سيده يريده أن ينصرف.

فأطاعت المرأة، وتسللت من الباب دون أن يشعر بها أحد، وفي الوقت نفسه دخل الغرفة أربعة رجال الواحد منهم في أثر الآخر، وكانوا أشداء السواعد، أقوياء الأجسام، لا يدعو منظرهم إلى الطمأنينة، ولا تُبشر وجوههم بخير، وشعر مسيو لبلان بدخول أولئك الرجال، وغلبت فيه غريزة الحذر فسأل: "من هؤلاء؟"

فأجابت جوندريت:

- لا تُلق إليهم بالاً يا سيدي. إنهم جيراني!

ثم استطرد:

- اضطررنا أن نبيع كل ما نملك، ولم يبق لنا سوى هذه الصورة، إنها صورة ثمينة من صنع رسام بارع، وأنا أحبها كما أحب ابنتي، فهي تذكرني بالماضي السعيد! ولكنني مضطر إلى بيعها، فهل تبتاعها يا

سيدي؟ إنني لن أطالبك بثمن باهظ. فكم تظنها تساوي؟

أجابه بهدوء:

- إنها لا تساوي أكثر من ثلاثة فرنكات.

قال جوندريت بإصرار:

- هل معك حافظة نقودك؟ إنني أقنع بألف فرنك ثمناً لها.

فاستند مسيو لبلان للجدار، ونظر حوله، فرأى المرأة والرجال الأربعة يحرسون باب الغرفة ونوافذها، وفجأة لمعت عينا جوندريت الشريرتان ببريق خاطف، واعتدل ظهره المحدودب وتقدم نحو مسيو لبلان، وزمجر بصوت كالرعد:

- ليس ذلك ما أنا بسبيله! فهل عرفتني؟

تغير لون مسيو لبلان، ولكنه ظل رابط الجأش، وراح يدور بعينيه بأرجاء الغرفة كحيوان وقع في شرك، وخُيل إلى ماريوس أن الوقت قد حان للتدخل. فصوب مسدسه من خلال الكوة وهم بإطلاقه، غير أن جوندريت انفجر ضاحكاً في تلك اللحظة، وكان لضحكته دوي بغيض رجت صداه جدران الغرفة، وأعاد سؤاله على لبلان:

- هل عرفتني؟

فاجاب لبلان بهدوء: "كلا".

فصاح جوندريت:

- ليس اسمي جوندريت، إنما أنا تيناردييه! صاحب حانة بولانجيه! فهل عرفتني الآن!؟ أنا تينادرييه!!

فاحمر وجه مسيو لبلان، ولكنه أجاب بصوت هادئ النبرات:

- ذلك لا يعنيني!

راح تيناردييه جيئة وذهاباً وعلى وجهه ملامح الانتصار، وهتف:

- ها أنذا قد وقعت عليك أخيراً يا سيدي المُحسن هاهاها.. ألا تعرفني؟ ألم تكن أنت ذلك المليونير الذي جاء إلى حانتي في بولانجيه ليلة عيد الميلاد منذ ثمانية أعوام؟ ألم تخطف طفلة فانتين من حانتي وتذهب بها؟

فقال مسيو لبلان:

- إنني لا أفهم شيئا مما تقول. فما أنا إلا رجل فقير، ولا صلة لي بأصحاب الملايين، ولا بد أنك توهمتني شخصاً آخر.

بدت علامات الغضب على وجهه وصاح:

- لست أنا ممن يُخطئون. أصغ إلي، إنني بحاجة للمال، بل للكثير منه فإما أن تعطيني ما أطلب، وإلا فالويل لك!

فصمت لبلان، وصاح تيناردييه:

- أليس لديك ما تقول؟

أصر لبلان على الصمت فجعل تيناردييه يسير بالغرفة بخطى واسعة قد ارتسمت على وجهه النحيل علامات القلق، ثُم وقف فجأة أمام سجينه وصاح:

- فتشوه!

أقبل الرجال الأربعة على مسيو لبلان ففتشوه دون أية مقاومة من جانبه، فوجدوا معه منديلاً وستة فرنكات، وتناول تيناردييه المنديل ووضعه في جيبه، ثم سأل:

- ألم تعثروا على حافظة نقود؟

فأجابه أحد الرجال: "كلا". فتقدم تيناردييه من المُحسن إليه، وتكلم في رفق ولعله كان يرجو أن يظفر منه باللين بما يستطع أن يظفر به قسراً، وقال:

- معذرة يا سيدي، فقد أفقدني الغضب صوابي، ولكنني تبينت الآن

خطئي فأرجو صفحك بيد أني على استعداد للتفاهم معك وسأضحي بشيء من جانبي، إنني لست بحاجة لأكثر من ألف فرنك. ولقد يتبادر إلى ذهنك أنني مجنون حتى أطالبك بمبلغ لا تحمله الآن في جيبك، ولكني أذكرك بأنه يوجد هنا قلم وورق فاكتب ما أمليه عليك.

أدرك مسيو لبلان أنه لا فائدة تُرجى من المقاومة، ولعله أراد أن يعرف إلى أي حد ينوي الشقي أن يمضي في مكيدته، فتناول القلم وشرع يكتب، وتيناردييه يُملى عليه:

- ابنتي العزيزة، تعالي سريعاً، فإنني في أشد الحاجة إليك، وسيرشدك حامل هذه الرسالة إلى مكاني.

فوضع مسيو لبلان القلم وسأل:

- لمن هذه الرسالة؟

- أنت تعرف لمن هي، إنها لابنتك.. أسرع ووقع عليها بإمضائك.

فهز لبلان رأسه بهدوء، وقال بصوت ثابت النبرات: "كلا".

زمجر تيناردييه وضرب الأرض بقدمه، وصاح بأحد رفاقه:

- احم القضبان الحديدية يا بيجول.

وصاح بآخر:

- وأنت يا مونبارناس، اكشف عن ساعده، سأعلمه كيف يُطيع.

لكن المدعو مونبارناس ما كاد يقترب من مسيو لبلان، حتى دوى في المكان طلق ناري، وامتلأت الغرفة بالدخان. فأفلتت من فم تيناردييه صرخة ذعر وصاح: "ما هذا؟" في اللحظة نفسها فُتح الباب، ودخل المُفتش جافير وهو يقول بهدوئه المُخيف:

- لا شيء.. لا شيء كونوا مطمئنين.

دخل في أثره سبعة من الشرطة، وحدثت بالغرفة ضجة سريعة، انتهت إلى ما يُحب جافير، فقال المفتش لرجاله:

- ضعوا أيديهم في الأصفاد.

ثُم سأل:

- أين السيد الذي أرادوا قتله؟

كان مسيو لبلان قد انتهز فرصة الاضطراب الذي ساد الغرفة، فوثب من النافذة وتوارى عن الأبصار، وقال جافير مرة أخرى:

- أين هذا السيد؟!

لكنه لم يسمع جواباً، ولم يستطع قط أن يعرف لماذا فر الرجل، وقد قلق لذلك لأنه يعتقد أن المجني عليه الذي يلوذ بالفرار هو أجدر بالشك من الجاني.

اعتاد جان فالجان أن يقوم من وقت لآخر برحلات غامضة فيغيب يومين أو ثلاثة، ويلزم الصمت بشأن هذه الرحلات، ولا يُقدم عنها لكوزيت حساباً، ولكن كوزيت لاحظت أنه لا يقوم بهذه الرحلات إلا إذا نفدت نقوده، كما لاحظت أنه يعود دائماً وجيبه مليء بالأوراق المالية، وقد أوصاها بأن تلزم المنزل في غيابه، فلا تبرحه أبداً، وفي مساء أحد الأيام، كانت كوزيت جالسة في حديقة المنزل الصغير الذي استأجره جان فالجان، والذي كان في وقت ما وكراً لعشيقة أحد الوزراء، وكان جان فالجان قد انطلق في اليوم السابق في إحدى رحلاته الغامضة فبقيت كوزيت وحدها. ثُم استوحشت المنزل فخرجت إلى حديقته وجلست هناك على مقعد حجري، وراحت تتأمل السماء والنجوم شأن جميع العاشقين..

فجأة، أحست بذلك الشعور الخفي الذي يحس به الإنسان إذا تسلل وراءه شخص، فنظرت خلفها ورأت الشاب الذي طالما أبصرته بلكسمبورج وبادلها النظرات والبسمات، ونهضت واقفة، وترنحت في مكانها وحدثتها فطرتها بالفرار. ثُم حدثها قلبها بالبقاء، فتهالكت على المقعد وأطرقت رأسها، وسمعته يتكلم بصوت لا يرتفع عن حفيف أوراق الشجر، وكان يقول:

- معذرة! فما أردت أن أزعجك. ولكني لم أطق الحياة بعيداً عنك.. فهل تعرفينني؟ هل تذكرين يوم تقابنا للمرة الأولى؟ كان ذلك في يوم ١٦ يونيو، وهو تاريخ لا أنساه، ثُم هل تذكرين اليوم الذي لم نتقابل

بعده؟ إنه يوم ٢ يوليو ولكنني رأيتك في هذه اللحظة منذ بضعة أيام، وهممت أن أثب من فوق السور كما وثبت الليلة، ولكني رأيت خادمتك مُقبلة، فأطلقت ساقي للريح، أفلا تسمحين لي بمقابلتك هنا في مستقبل الأيام؟ إنك لا تعلمين كم أحبك.

وتناول يدها، وضغطها على قلبه دون أن يعلم ما هو فاعل، وتناولت يده بدورها، ووضعتها على قلبها. فهتف:

- أتحبينني إذا؟!

فأجابت بصوت خافت لا يكاد يرتفع على أنفسها:

- صه! أنت تعلم أنني أحبك.

وأخفت وجهها في صدره، وثمل الفتى بنشوة السعادة والحب والكبرياء، ولم يدر، ولم تدر كيف تقابلت شفاهما، وكانت قبلة أعقبها صمت طويل، كأنما فقدا حاسة النطق، وهدأت ثورة العاطفة بالتدريج، وتبادلا الحديث حتى تغلغل كل منهما في أعماق صاحبه، وأخيراً سألته:

- ما اسمك؟

- ماريوس.. واسمك؟

- كوزيت.

الفصل العاشر

الحفيد

في الليلة التالية، ذهب ماريوس لمقابلتها في الموعد نفسه، والمكان نفسه، فوجدها في انتظاره، ولكنها كانت حزينة، وقد احمرت جفونها من تأثير البكاء. فذعر، وهاله أن يطفور الكدر فوق حلمه السعيد بمثل هذه السرعة، وهتف من قلب يتمزق حزناً: "ماذا بك؟!" فأجابت:

- سأحدثك بصراحة. لقد طلب مني أبي أن أستعد للرحيل.

ففتح ماريوس عينيه في دهشة، وخانه النطق. وأحست الفتاة بيد باردة كالثلج بين يديها فسألتها بدورها:

- ماذا بك؟

- إنني لم أفهم ما تعنين.

- لقد عاد أبي اليوم، وأمرني أن أعد أمتعتي وأكون على استعداد لأننا سنُبحر لإنجلترا خلال أسبوع لشأن يهمه.

- إلى إنجلترا ؟! ولكن هذا مُخيف.

كان من القسوة في نظره، وسوء استغلال السلطة أن يذهب مسيو فوشليفان – وهو الاسم الذي قالت كوزيت إنه اسم أبيها – بابنته إلى إنجلترا لا لشيء إلا لأن له عملاً هناك، وسأل بصوت خافت: .

- ومتى يكون الرحيل؟

- لم يذكر لي موعد بالتحديد.

- ومتى ستعودان؟

- لم يُحدثني في هذا الصدد.

فنهض ماريوس واقفاً وقال ببرود:

- وهل تذهبين معه؟

فضمت يدها فوق صدرها، وأجابت بلهجة اليأس والحزن:

- وماذا أستطيع أن أفعل؟

- إذا فقد اعتزمت الرحيل معه؟

فضغطت على يده ولم تُجب وقال:

- في هذه الحال يجب أن أرحل بدوري.

فحاولت الفتاة فهم هذه العبارة، ولكنها أحست بالجزع، وصاحت:

- ماذا تعني؟

فأجاب ببطء:

- أصغي يا كوزيت إنني لم أحنث بقسمي قط ولكن أقسم لك بشرفي الذي أحترمه أكثر من حياتي بأنك إذا رحلت فإنني أورد نفسي موارد التهلكة.

قال ذلك بلهجة هادئة رزينة جعلت الفتاة ترتجف من قمة رأسها لأخمص قدميها، ثُم قال:

- لا تنتظريني غداً يا كوزيت.

- ولماذا؟

- انتظريني بعد غد.

- لماذا؟ لماذا؟

- سوف ترين.

- أتسمح بأن ينقضي يوم دون أن أراك؟

فتناول يدها بين يديه، وحدقت الفتاة في عينيه لترى ماذا فعلت كلماتها، وقال:

- بهذه المناسبة يجب أن تعرفي عنواني على سبيل الحيطة فلقد تركت منزلي وإني أقيم الآن مع صديق يدعى «كورفيراك» بالمنزل رقم ١٦ بشارع لافيراري.

وبحث في جيوبه، وأخرج مطواة، واستخدم نصلها في حفر هذا العنوان على المقعد الحجري، وقالت وقد اشتد جزعها وقلقها:

- لماذا لا تصارحني حتى بما يدور بخلدك يا ماريوس؟

فأجاب بحماسة:

- إليك ما أفكر فيه، من المستحيل أن يرضى الله بفراقنا، وستعلمين المزيد متى تقابلنا بعد غد.

- وكيف أقضي يوم غد؟ إنك حر طليق، تروح وتغدو وترفه عن نفسك كما تشاء، أما أنا فسأقضي النهار وحيدة حزينة. فما أسعد الرجال، وما أشقى النساء، ولكن حدثني ماذا تنوي أن تفعل غداً؟

- سأقوم بمحاولة.

- في هذه الحالة سأبتهل إلى الله أن تُثمر محاولتك، ولكن لا تنس أنني

سأكون في انتظارك هُنا بعد غد، في مثل هذه الساعة.

وتعانقا وافترقا.

كانت لماريوس قصة، فهو لم يُخلق ليكون جاراً لرجل مثل تيناردييه، وكان ماريوس حفيد شيخ واسع الثراء يُدعى «جيلنورمان»، وكانت له ابنتان، ظلت إحداهما عانساً، واقترنت الأخرى برجل يُدعى «بونمرسي»، وتوفيت بعد أن وضعت ماريوس، وعاش ماريوس في كنف جده، ونعم بثروته ومجده، وفرقت المبادئ السياسية بين جيلونورمان وبونمرسي. فالأول عريق في نصرة الملكية، والثاني من جنود نابليون الذين تذوقوا معه لذة الانتصار، ومرارة الهزيمة، أبلوا معه في جميع المعارك أحسن البلاء، وكان بونمرسي يضيق بأواصر القرابة ويخشى أن تعصف بها أعاصير السياسة، ولكن جيلنورمان كان شيخاً عنيداً يعتبر الخصومة السياسية ضرباً من الخصومة الشخصية. واشتد حنقه على زوج ابنته حين أنعم عليه الإمبراطور بلقب بارون، واستحال الحنق لكراهية حين توفت ابنته، ولكنه تعهد ماريوس بالعناية، وحرص على أن يمحو من ذهنه صورة أبيه، وكبر ماريوس وترعرع، والصلة بينه وبين جده كأفضل ما تكون الصلات بين الأجداد والأحفاد، وتوفى بونمرسي بعيداً عن ولده، وتحدث أحد الخدم لماريوس بقصة الخلاف الذي شجر بين جده وأبيه، وعرف الفتى المزيد من قصة أبيه فأكبره، وأحل ذكراه محلاً مُقدساً، وفي أحد الأيام عثر جيلنورمان الشيخ في غرفة صغيرة على بطاقة باسمه كتب عليها: "البارون ماريوس دي بونمرسي".

وكان قد كتم عنه هذا اللقب الذي أنعم به نابليون على أبيه، فثارت ثائرته، ودعا إليه ماريوس وصاح وهو يلوح بالبطاقة:

- ما معنى هذا يا سيدي؟

فاحمر وجه ماريوس وأجاب:

- معناه.. أنني ابن أبي.

فضحك الشيخ، وقال بصوت خشن:

- إنني أبوك.

فقال ماريوس دون أن يرفع عينيه إلى وجه جده:

- لقد كان أبي فقيراً، ولكنه كان شجاعاً، وقد أراق دمه في سبيل جمهورية فرنسا ومات منسياً ولم يرتكب في حياته إلا جريمة واحدة، وهي أنه أحب شيئين جاحدين، هما وطنه وابنه.

وكان ذكر أكثر مما يطيق الشيخ سماعه، فصاح:

- مارسوي.. إنني لا أعرف من كان أبوك، ولا أريد أن أعرفه، وبحسبك أن تعلم أن الذين خدموا روبسبيير كانوا لصوصاً، والذين خدموا نابليون كانوا قطاع طرق. جميعهم مجرمون خونة لأنهم تنكروا لمليكهم الشرعي. وجميعهم جبناء لأنهم فروا أمام النمساويين في

عهد روبسبيير، وأمام الإنجليز في واترلو، هذا كل ما أعلمه. وإذا كان أبوك قد اشترك مع هؤلاء الخونة الجبناء، فذلك ما أجهله وما آسف له.

كان الفتى يرتجف حنقاً وغضباً؛ فقد أهين أبوه على مسمع منه، ومن ذا الذي أهانه؟! جده، ولم يدر كيف يمحو هذه الإهانة، ولا كيف يُعاقب المُهين ووجد نفسه واقفاً والقبر المقدس عن يمينه، والشعر الأبيض عن يساره، فترنح كالثمل ثم نظر إلى جده بحدة وصاح:

- ليسقط آل بوبون! ليسقط لويس الثامن عشر!

كان لويس الثامن عشر قد توفي منذ أربعة أعوام، ولكن ذلك لم يُرفه من غضب الشيخ الذي احمر وجهه في الحال، ثم مشى إلى الباب ببطء حتى إذا بلغه تحول إلى حفيده وقال في هدوء:

- إن بارونا مثلك وصعلوكاً مثلي لا يستطيعان البقاء تحت سقف واحد.

هكذا ترك ماريوس بيت جده وباليوم التالي قال جيلنورمان لابنته:

- ارسلي إلى هذا الثائر ستين جنيهاً كل ستة أشهر، وحذار أن تذكري اسمه على مسمع مني.

لكن ماريوس رد المبلغ الذي أرسل إليه، وقنع بالمُرتب الضئيل الذي كان يتقاضاه من أحد المحامين، وانقضت بضعة أشهر لم يسمع

الشيخ في خلالها كلمة واحدة عن حفيده، رغم حنانه عليه وشوقه إليه، حتى أن كانت إحدى الأمسيات إذ دخل عليه خادمه وقال:

- هل يسمح سيدي بمقابلة مسيو ماريوس؟

فاعتدل الشيخ في جلسته، ومرت في جسده وفي نفسه هزة عنيفة هتف:

- من هو ماريوس هذا؟

- لا أعلم. قالت لي الخادمة إن مسيو ماريوس يرجو مقابلتك.

فأجاب الشيخ بصوت خافت:

- دعه يدخل.

ووقف ماريوس بالباب، كأنه ينتظر أن يدعوه جده إلى الدخول، ولم ير الشيخ ثوبه الرث فقط، رأى وجهه الشاحب الحزين وشعر برغبة شديدة أن يبسط له ساعديه، ويضمه لصدره، وكان قلبه يذوب حناناً، ولكنه لما تكلم انبعث صوته قاسياً، وقال:

- ماذا جئت تفعل هنا؟ هل جئت تطلب صفحي، هل أدركت خطأك؟

ضم ماريوس يديه فوق صدره، وقال بصوت خافت مرتجف:

- رحمة بي يا سيدي!

- تكلم! ماذا تريد مني؟

- أنا أعلم، أن وجودي هنا يزعجك، ولكني جئت أطلب أمراً واحداً، ثم أنصرف.

فقال الشيخ:

- إنك أحمق. من ذا الذي طلب إليك أن تنصرف؟

ثُم عقد ساعديه فوق صدره بكبرياء، وقال:

- لتضع حداً لهذا الحديث يا سيدي، قلت إنك جئت في طلب شيء، فما هو؟

فقال ماريوس، وفي عينيه النظرة التي تتراءى في عينه المشرفة على هوة سحيقة:

- سيدي.. إنني جئت أطلب موافقتك على زواجي.

فدق جيلنورمان الجرس، وأقبل الخادم فقال له:

- ادع ابنتي.

ولزم الصمت إلى أن جاءت الآنسة جيلونرومان، فقال لها ساخراً:

- لقد دعوتك لكي أقول إن هذا السيد يريد أن يتزوج، والآن، اذهبي.

كان صوته ينم عن الغضب الهائل الذي يعصف في صدره، فنظرت ابنته إلى ماريوس من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وانصرفت دون أن تنطق بكلمة، وأخذ الشيخ يمشي في الغرفة جيئة وذهاباً، ثُم أدار ظهره إلى حفيده، وقال وهو يسند مرفقيه على حافة الموقد:

- تريد أن تتزوج وأنت في الحادية والعشرين؟ ولا ينقصك إلا أن تخبرني بذلك على سبيل العلم بالشيء. تفضل بالجلوس يا سيدي.

ثم أردف بسرعة:

- هل لك مهنة يا سيدي؟ هل تملك ثروة؟ كم تربح الآن من عملك؟

فأجاب ماريوس بحدة:

- لا شيء يُذكر.

- في هذه الحالة لا بد أن تكون الخطيبة العزيزة واسعة الثروة.

- إنها، مثلي، لا تملك شيئاً.

- مثلك؟ لا تملك شيئا وليست لها بائنة؟

- نعم.

- وما اسمها؟

- اسمها مدموازيل فوشليفان.

فقال الشيخ بلهجة من يتحدث إلى نفسه:

- عمره إحدى وعشرون سنة ولا عمل له، ولا ثروة، وزوجته البارونة مونمارنسي لا تملك قوت يومها. هذا بديع!

شعر ماريوس بآخر آماله ينهار، فصاح:

- سيدي! إنني أضرع إليك وأرتمي تحت قدميك متوسلاً أن تسمح لي بالاقتران بها.

فانفجر الشيخ ضاحكاً، وقال:

- آه.. أكبر الظن أنك قلت لنفسك: «إنني الآن دون الخامسة والعشرين من عمري، ولا حق لي في الزواج بغير إذن ولي أمري فلأذهب إلى هذا الشيخ المأفون لأقول له: أيها الشيخ! إنك تكاد تطير فرحاً برؤيتي، ولذلك يجب أن تسمح لي بالاقتران بالآنسة كذا، فإنها جديرة بي، وأنا جدير بها، فهي لا تملك حذاء، وأنا لا أملك قميصاً، وإنني على استعداد لأن ألقي في النهر بشبابي ومستقبلي وحياتي، ما دمت تُحبني، ذلك هو ما حزمت أمري عليه، فيجب أن توافق. فيبتسم الشيخ المأفون، ويوافق.. أبداً لن أوافق.

بهذه الكلمات تبددت آمال ماريوس، فأطرق رأسه، ومشى للباب مُترنحاً ترنح المحتضر، ولكنه ما كاد يفتح الباب، حتى لحق به الشيخ، وأمسك بخناقه، واجتذبه معه، وألقى به بأحد المقاعد، وجلس أمامه قائلاً:

- حدثني بكل شيء.

كان الفضل في هذا الانقلاب الذي طرأ على الشيخ لكلمة «أبي» التي أفلتت من بين شفتي ماريوس وقال الشيخ مرة أخرى:

- تكلم، وحدثني بقصة غرامك، يا إلهي، ما أشد غباء الشباب!

فرد ماريوس:

- أبي.

أضاء وجه الشيخ وغمغم:

- نعم.. نعم.. أدعني أباك.

انبسطت أساريره بعد عبوس وسالت عيناه حناناً بعد قسوة وقال ناظراً لحفيده في دهشة:

- أحقاً أنك لا تملك مالاً؟ إنك ترتدي ثياباً كثياب اللصوص. إليك مائة جنيها لتبتاع قبعة جديدة.

- ما أطيب قلبك يا أبي! لو تعلم فقط كم أحبها! إنني رأيتها للمرة الأولى في حدائق لكسمبورغ فلم ألق إليها بالاً في أول الأمر. ثم غرقت في حبها إلى أذني دون أن أشعر، وقابلتها مرتين في حديقة بيتها تحت جنح الظلام دون أن يعلم أبوها. فتصور هذا! ولكن أباها يريد الآن أن يرحل بها لإنجلترا. فقلت لنفسي «لأذهب إلى أبي وأحدثه بكل شيء». ولا بد أن أقترن بها وإلا أصاب بالجنون.

أصغى الشيخ لحديث حفيده ونظر إليه برفق وقال:

- أصغ يا ولدي. إن الإنسان يستطيع أن يستمتع بالحب دون أن يقتل نفسه بالزواج. فهل فهمتني؟!

هز ماريوس رأسه سلباً، وصاح الشيخ:

- أيها الأبله. لماذا لا تتخذها عشيقة؟

فامتقع وجه ماريوس، ونهض واقفاً، وتناول قبعته، ومضى للباب بخطوات ثابتة، وهناك تحول إلى جده، وأحنى قامته باحترام، وقال:

- إنك منذ بضعة أشهر أهنت أبي، واليوم أهنت زوجتي، فليس عندي ما أقوله لك يا سيدي، وداعاً!

فجمد الشيخ في مكانه وفتح فمه ليتكلم، وحاول أن ينهض، وقبل أن يفعل شيئاً من ذلك، كان ماريوس قد أغلق الباب وراءه ومضى في

سبيله، وقصد مسيو جيلنورمان إلى الباب بأقصى سرعة شيخ في التسعين من عمره وفتحه، وصاح:

- النجدة! النجدة!

ولما خفت إليه ابنته قال لها بصوت متحشرج:

- أسرعي في أثره.. أمسكي به. إنني أهنته، فجن جنونه، ومن المؤكد أنه لن يعود بعد هذه المرة.

أطل من النافذة وجعل يلوح بيديه المرتجفتين ويصيح:

- ماريوس.. ماريوس.

ولكن الفتى كان قد غاب عن الأبصار.

***

هبط جان فالجان لحديقة المنزل، وراح يتنقل بين أشجارها، وهو مستغرق في التفكير، وكان الحادث الذي وقع له أخيراً مع تيناردييه قد أزعجه، وأزعجه أن يمر جافير بحياته مرة أخرى، وعلى الرغم من أنه كان واثقاً من أن جافير لم يلمحه في بيت جوندريت المزعوم، فإنه لم يشعر بالطمأنينة، واشتد قلقه حين أحس بأن الجو السياسي أصبح مشحوناً بالكهرباء، وسمع في الطرقات وفي كل مكان ذهب إليه همساً عن ثورة

تُدبر لإسقاط الحكومة وإعلان الجمهورية، ولهذا كله قرر أن يبرح فرنسا إلى إنجلترا، وطلب إلى كوزيت أن تستعد لهذه الرحلة بيد أنه كان مهموماً دائم التفكير في العقبات التي تحول دون حصوله على جواز للسفر، وتعب من السير بين الأشجار، وهم بالجلوس على المقعد الحجري. وعندئذ وقع بصره على هذه الكلمات "رقم ١٦ شارع لافيراري" محفورة على المقعد بخط يختلف عن خط كوزيت، قطب حاجبيه، وزاد قلقه، وهذه الكلمات لم تكن هناك في اليوم السابق، إذاً فلا بد أنها حُفرت على المقعد الحجري أثناء الليل، وذلك دليل على أن أشخاصاً اجتازوا سور الحديقة في ظلام الليل، ثُم هذه الكلمات، ما معناها؟!

أما ماريوس فإنه خرج من بيت جده في حالة يُرثى لها. ذهب لذلك البيت بأمل ضعيف وانصرف منه بيأس عظيم، وقضى النهار كله هائماً على وجهه في انتظار الموعد المُتفق عليه مع كوزيت، ووصل إلى سمعه – وهو يسير على غير هدى – ضجيجا عظيما منبعثا من أنحاء المدينة، وحمل النسيم إلى أذنيه صياح الغوغاء والطلقات النارية، فسأل نفسه: "ما معنى هذا؟ هل ثمة معركة؟"

صادفه في الطريق صديقه كورفيراك، الذي يشاطره غرفته، وكان يعدو ويلهث، فسأله: "إلى أين أنت ذاهب؟"

فأجابه كورفيراك وعلى شفتيه ابتسامة ذات مغزى:

- أنا ذاهب لإسقاط الحكومة، هذا وقت النضال في سبيل الحرية والإخاء والمساواة. أتضن بدمك على هذه المبادئ الثلاثة التي يجب أن يتألف منها الدستور الإنساني؟

فصاح ماريوس وقد لمعت عيناه:

- على مذبح هذا الدستور جاد أبي بدمه، فحدثني إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى المتاريس في شارع سان أنطوان.

ومضى كورفيراك في سبيله، وشعر ماريوس بالقلق وعدم الاستقرار. وود لو يُغمض عينيه فيرى النهار قد انصرم والليل قد أقبل، فيخف إلى مُقابلة كوزيت وينعى إليها أمله في الحياة والسعادة في الحب، ويودعها الوداع الأخير، ولكن شاءت الأقدار ألا ينعم بسعادة توديعها، وضمها إلى صدره للمرة الأخيرة، فإنه لما ذهب إلى بيت كوزيت بعد ساعات طويلة مرت كأنها دهر، رأى الباب مفتوحاً، والمنزل يسبح في الظلام الدامس، ولا أثر فيه أو في الحديقة لإنسان، وهتف من قلب يتمزق حزناً ويأساً: "كوزيت، كوزيت".

لكنه لم يسمع جواباً وبعد دقائق كان يعدو كالمعتوه بالطريق لشارع سان أنطوان حيث أقام الثائرون المتاريس، وتأهبوا لمقاومة رجال الحرس الوطني.

أما ما حدث، فهو أن جان فالجان ما كاد يقرأ ذلك العنوان على

المقعد الحجري في حديقة المنزل حتى ملكته الوساوس، وشعر شعوراً غامضاً بأنه لم يعد في مأمن، وراح يُفكر، وانتهى من تفكيره لوجوب الانتقال من ذلك المنزل في الحال، وما إن اختمرت لديه هذه الفكرة حتى انصرف من المنزل، وعاد إليه بعد ساعة، وقال لكوزيت إن لديه من الأسباب ما يحتم انتقالهما في الحال إلى المنزل رقم ٧ بشارع «لوم آرميه»، وبُهتت كوزيت وفكرت في موعدها مع ماريوس، وحاولت أن تُثني جان فالجان عن عزمه، أو تُرجئ الانتقال إلى اليوم التالي على الأقل، ولأول مرة في تاريخ سعادتهما المُزدوجة تعارضت إرادة كوزيت مع إرادة فالجان، ولم يسع الفتاة في النهاية إلا الإذعان، واجتمع الاثنان في المساء حول مائدة الطعام، فلم تأكل كوزيت إلا القليل واعتذرت بصداع، وانطلقت لغرفتها وبقي جان فالجان وحيداً، وكان مُطمئناً ناعم البال فقد زالت مخاوفه وشكوكه، ولم يزعجه صداع كوزيت، وأدرك أنها غاضبة وستهدأ قبل بزوغ شمس اليوم التالي، وبينما هو يسير في إحدى الغرف متفقداً، إذا بعينيه تستقران على شيء غريب، قرأ بوضوح وجلاء هذه الكلمات منعكسة على مرآة في الجدار:

"مسيو ماريوس بونمرسي. بمنزل مسيو كورفيراك، رقم ١٦ شارع لافيراري. يؤسفني أن أنهى إليك نبأ إصرار أبي على الرحيل من البيت في الحال، وسنكون اللية بالمنزل رقم ٧ بشارع «لوم آرميه» وبعد أسبوع نرحل إلى لندن" كوزيت

وجمُد جان فالجان في مكانه، وكانت هذه الكلمة منعكسة على

المرآة من ورقة نشاف نسيتها كوزيت على مائدة أمام المرآة، واقترب جان فالجان من المرآة، وقرأ الرسالة مرة أخرى ولم يصدق عينيه. وتناول ورقة النشاف، وقلبها بين يديه، ثم ترنح، وسقطت الورقة من يده، وسقط جسمه على أحد المقاعد، ولم يخطر بباله أن كوزيت يُمكن أن تغيب من حياته في أحد الأيام، إلا إذا أمكن أن يغيب النور من الدنيا، وكانت تلك هي المحنة العُظمى. وهل من محنة أعظم من أن يفقد في لحظة واحدة كل ما يُحب في هذه الحياة؟

ووجد جان فالجان نفسه بباب المنزل دون أن يشعر، وكان عاري الرأس، مشعث الشعر، شاحب اللون، وفي عينيه نظرة ذاهلة شاردة، وجلس دون أن يشعر، على مقعد خشبي بجانب الباب، وكان الظلام حالكاً، والشارع مقفراً إلا من بعض السابلة وهم يُهرلون إلى بيوتهم، وطلقات البنادق تدوي من بعيد، ويحمل النسيم دويها إلى آذانهم، ولكن جان فالجان لم ير ولم يسمع شيئاً، وانقضت ساعة أو بعض ساعة وهو قابع في مكانه كتمثال من رخام لا يتنفس ولا يتحرك، واشتد دوى الرصاص فجأة، فرفع جان فالجان رأسه، ونظر حوله كأنه يبحث عن مصدر الدوي، وعندئذ وقع بصره على غلام من غلمان الأزقة وهو يروح ويجيء أمام المنزل، ويُمعن النظر ببابه كأنه يبحث عن شيء، فخرج جان فالجان عن ذهوله، وسأل الغلام في رفق:

- ماذا بك يا بني؟

- ليس بي من شيء. هل أنت من أهل هذا الشارع؟

- نعم، لماذا؟

- هل تعرف أين يوجد المنزل رقم ٧؟

- وما شأنك والمنزل رقم ٧؟

هم الغلام بالكلام، ثُم تردد وصمت، وبدا لجان فالجان خاطر فسأل:

- هل جئت بالرسالة التي أنتظرها؟

- التي تنتظرها أنت؟ إن الرسالة لامرأة.

- إنها للآنسة كوزيت. أليس كذلك؟

- كوزيت؟ نعم. أظن أن هذا اسمها.

فقال جان فالجان:

- إذاً فأعطني الرسالة.

- ما دمت تعرف بأمر الرسالة، فيجب أن تعلم كذلك أنني قادم بها من المتاريس.

- طبعاً، أعلم ذلك.

فدس الغلام يده في جيبه، وأخرج ورقة مطوية دفع بها إلى جان فالجان وهو يقول:

- يُخيل إلي أنك رجل أمين، وأنك ستوصل الرسالة إلى صاحبتها.

وتركه ومضى، ودخل جان فالجان المنزل، وبسط الورقة بين أصابعه، ولم ير من محتوياتها غير هذه العبارة:

«...إني أموت.. وعندما تقرآين هذه الرسالة تكون روحي بمقربة منك».

قرأ هذه العبارة، واستولى عليه ذهول مخيف، وكأنما هدته الانفعالات الهائلة التي عصفت في أعماقه، ونظر لرسالة ماريوس بشيء من الارتياح، وكأنه يرى فيها مصرع هذا الإنسان البغيض، وأحس بأن حملاً ثقيلاً قد ارتفع فجأة عن صدره، نعم، قد زال غريمه، واتصلت سعادة مستقبله بسعادة ماضيه. ولن يقف بينه وبين كوزيت منافس بعد الآن، وليس عليه إلا أن يطوي الورقة، ويخفيها بجيبه فلا تعلم كوزيت إلى الأبد بما صار إليه أمر ذلك الشاب، وبمثل هذا كان يتحدث لنفسه، وهو مطرق رأسه، وقلبه مُفعم بالأسى، وبعد ساعة شوهد وهو يغادر المنزل في ثوب جندي من جنود الحرس الوطني جاءه به البواب.

رابط الثوار في شارع سان أنطوان، وأقاموا فيه متاريس عظيمة من

الأخشاب والأحجار وأكياس الرمل، واتخذوا من إحدى الحانات مركزاً للقيادة، وتأهبوا لمقابلة جنود الحرس الوطني، ووصل ماريوس في الوقت المناسب، حين كان الثوار يُنظمون صفوفهم، ويضعون خطط الهجوم والدفاع، ولم يكن جنود الحكومة قد وصلوا بعد لإجلاء الثوار عن معقلهم، فلم يجد ماريوس صعوبة في الوصول إلى المتاريس، والانضمام إلى صديقه كورفيراك، ولفت نظره وهو يسير بين أكياس الرمل رجل طويل القامة متين البناء يشتغل بنشاط في إقامة الحواجز، وخيل إليه أنه يعرف هذا الرجل، ثم أسعفته ذاكرته فأمسك بساعد كورفيراك، وسأله:

- هل تعرف هذا الرجل؟

أشار إليه، فأجاب كورفيراك بالنفي

إنه جاسوس. إنه من رجال الشرطة.

هل أنت واثق؟

إنني عرفته مُنذ بضعة أيام.

فأسرع كوريفيراك إلى صديقه «أنجلولراس» الذي أشرف على إقامة المتاريس، وتولى الدفاع عنها، ولعب دوراً خطيراً في تلك الثورة الدامية، فهمس في أذنه كلاماً، فدعا أنجلولراس ثلاثة من رجاله الأشداء، وقصد بهم إلى حيث كان الرجل الذي أومأ إليه ماريوس، وسأله:

- من أنت يا هذا؟

لا شك بأن الرجل لم يتوقع هذا السؤال لأنه رفع رأسه بحدة وحملق بعيني أنجلولراس وعلى شفتيه ابتسامة سخرية قائلاً:

- لقد عرفت ما يدور بخلدك.

- هل أنت جاسوس؟

- إنني من رجال الحكومة.

- واسمك؟

- جافير.

فأشار أنجلولراس إلى أعوانه فانقضوا على جافير وطرحوه أرضا وشدوا وثاقه، ثم فتشوه، ووجدوا في جيوبه بطاقة باسمه، وبعض النقود، ورسالة بخط مدير الشرطة تتضمن هذه العبارات: "على المفتش جافير بعد الفراغ من مهمته السياسية أن يراقب ضفة «السين» اليمنى بالقرب من قنطرة «بيتا» حيث يلجأ المجرم تيناردييه الذي تمكن من الفرار أثناء نقله إلى السجن".

وأمر انجلولراس بنقل المفتش جافير إلى الحانة.

كانت المعركة التي وقعت بين الثوار ورجال الحرس الوطني في

شارع أنطوان، والشوارع المحيطة به من المجازر الدموية الخالدة في تاريخ الثورة الفرنسية الثانية، وجنود الحرس استطاعوا بعد معركة عنيفة شغلتهم الليل كله، واستخدموا فيها السيوف والبنادق والمدافع، أن يُبيدوا الثوار، ويهدموا حصونهم ومتاريسهم. فلما بزغت الشمس، لم يكن قد بقي على قيد الحياة من زعماء الثورة غير تسعة أشخاص اعتصموا بالحانة ونشطوا للدفاع عنها، وضيق الجنود الحصار على الحانة وتأهبوا لنسفها، فجمع أنجلولراس أعوانه لاستطلاع رأيهم، فإما الجلاء، وإما الدفاع إلى النهاية، والموت تحت أنقاض الحانة، وانتهى الرأي إلى أن الجلاء أولى بهم، وأجدى على قضية الثورة، وتم الاتفاق على أن تكون الأسبقية في الجلاء لأصحاب العائلات، على أن يبقى الآخرون لمناوشة الجنود، ومنعهم من الهجوم، وكان بينهم خمسة من أرباب العائلات ولديهم أربعة ثياب رسمية غنموها من رجال الحرس الوطني الذين وقعوا في أسرهم، وكانت هذه الثياب هي عدتهم للفرار، والخروج من نطاق الجنود. فصار من الضروري أن يبقى مع المُدافعين عن الحانة واحد من أرباب العائلات، والبقاء في الحانة معناه الهلاك. فأي الخمسة يجب أن يبقى؟ فصاح كل من الرجال الخمسة: "أنا أبقى"، وصاحوا جميعاً: "ليحيا الموت". قال أنجلولراس:

- إخواني.. الجمهوريات ليست غنية بالرجال والتضحية بلا سبب جريمة، ومتى كانت للإنسان أسرة يعولها فليس من حقه أن يضحى بنفسه. أتريدون أن تموتوا؟! هذا حسن. موتوا إذا، وليتضور أطفالكم جوعاً غدّا، إن المسألة مسألة أمهات وزوجات وبنات. فالرجل إذا

جاع استجدى، أما المرأة فإنها إذا جاعت باعت.

فصمت الرجال الخمسة وأطرقوا رؤوسهم، وقال أنجلولراس محدثاً ماريوس:

- اختر من هؤلاء الأبطال واحداً يبقى معنا، ولينصرف الآخرون.

فوقف ماريوس حائراً، وفجأه أتي ثوب من الحرس الوطني، وبذلك نجا الرجل الخامس، وتمكن جان فالجان من اختراق الحصار والوصول للمتاريس بفضل الثوب، وقد قضى الليل كله في جحيم المعركة، ولكنه لم يشترك في القتال وقنع بنقل القتلى، ومساعدة الجرحى، سأل أنجولراس:

- من هو الرجل؟

وهمس ماريوس: "إنني أعرفه"، وكان في ذلك ما يكفي، فالتفت أنجولراس إلى جان فالجان، وقال:

- إنني أرحب بك أيها المواطن.

ثم استطرد:

- هل تعلم أنك تبرعت بالدرع الذي يقيك شر الموت؟

فصمت جان وارتدى الرجال الخمسة ثياب الحرس، وصاح أنجولراس:

- والآن، إلى العمل! ستطلق الرصاص من النوافذ، ونلفت أنظار الأعداء إلينا ريثما ينصرف زملاؤنا الخمسة، ثم نتراجع في أثرهم الواحد بعد الآخر.

قصد الرجال الخمسة الباب والدموع تترقرق بعيونهم، والتفت أنجلولراس لجافير، وكان ما يزال موثق اليدين والقدمين وقال له:

- لا أظن أنك نسيت.

ووضع مُسدساً على إحدى الموائد وقال:

- يجب على آخر رجل يبقى على قيد الحياة أن يُلهب رأس هذا الجاسوس بهذا المُسدس.

فسأل سائل:

- أيقتل هنا؟

أجاب أنجلوراس:

- كلا. إن دمه يلوث جثث ضحايانا فليُقتل على خارج الحانة.

هُنا اقترب جان فالجان من أنجولراس وسأله:

- هل أنت القائد هنا؟

- نعم.

- هل تظن أنني فعلت شيئاً يستحق المكافأة؟

- لا شك في ذلك.

- إذاً فإنني أطلب مكافأتي.

- وما تطلب؟

- أريد أن ألهب رأس هذا الجاسوس بنفسي.

فرفع جافير رأسه ورأه، ودهش، ولكنه غمغم:

- هذا هو الإنصاف.

نظر أنجلوراس إلى أعوانه وسأل:

- هل من معترض؟

ثم تحول إلى جان فالجان وقال:

- خذه! إنه لك!

فتناول جان فالجان المسدس، وفي هذه اللحظة دوى في الخارج صوت بوق، أعقبه انطلاق مئات العبارات النارية، فتفرق الثوار في سائر

قاعات الحانة، وتأهبوا للدفاع، وما كاد جان فالجان ينفرد بجافير حتى حل وثاق قدميه، وأمره أن ينهض، ثم أمسك بعنقه وقاده كما يقود الحيوان للذبح، وكان ماريوس يطل من إحدى النوافذ فرأى جافير وجلاده يخرجان من الباب الخلفي، ويغيبان بالظلام، ومر جان فالجان وأسيره بين أكياس الرمل وأكوام الجثث، حتى وصلا إلى زقاق مظلم قريب من منطقة القتال، فوقف جان فالجان، وحدج جافير بعينين تتألقان في الظلام كأنهما شعلتان، وقال الشرطي:

- انتقم لنفسك.

دس جان فالجان يده بجيبه وأخرج سكينا وقال جافير:

- أحسنت ذلك أشفى لغلك.

وقطع جان فالجان وثاق جافير، وقال له في هدوء:

- اذهب فأنت حر.

فجمد جافير في مكانه، وحبس أنفاسه دهشة وذهولا، واستطرد جان فالجان:

- لا أعتقد أنني سأخرج من هذا المكان على قيد الحياة، ولكن إذا حدث وخرجت، فإنك تستطيع أن تجدني في المنزل رقم ٧ شارع «لوم آرميه».

فزمجر جافير، وهو يعض على نواجذه:

- كُن على حذر!

- اذهب.

- قلت إنك تقيم بشارع «لوم آرميه»؟

- نعم، بالمنزل رقم ٧.

فرد جافير بصوت خافت:

- رقم ٧، رقم ٧.

وأصلح ثوبه، وعقد ساعديه فوق صدره، ومشى مرفوع الرأس بيد أنه ما كاد يبتعد بضع خطوات، حتى دار قائلاً:

- إنك تزعجني.. كان الأفضل أن تقتلني.

- اذهب.

فاستأنف جافير سيره ببطء، وما لبث أن توارى في الظلام، وفي هذه الأثناء، كانت المعركة على أشدها بين الجنود وبقايا الثوار، فقُتل أنجلولراس، وكورفيراك، ولما عاد جان فالجان إلى الحانة، وجد ماريوس ممدداً على الأرض وقد أصيب برصاصة في عنقه، وفقد الرشد، لم

يشترك جان فالجان في القتال، وإن يكن قد استهدف مراراً للموت، ويقول الذين أبصروه إنه لم يحول بصره قط عن ماريوس. فلما سقط الفتى، اختطفه جان فالجان اختطافا، وانطلق به من الباب الخلفي للحانة في اللحظة نفسها التي كان فيها الجنود يقتحمون الباب الأمامي، وأسرع جان فالجان الخطى في شارع كورنيت، ولكنه ما كاد يتوسط هذا الشارع، حتى سمع خطوات الجنود الذين أحاطوا بذلك الحي كله منذ بدء القتال، وشرعوا الآن في تضييق الحصار لإبادة الثائرين، واقترب الجنود من كل صوب، فتراجع جان فالجان بضع خطوات، وأرهقه حمله، فوضع جسم الفتى على الأرض، وراح يفكر بسرعة للخلاص من مأزقه وكان موقفه شديد الحرج، فالتقدم مستحيل، والتقهقر انتحار، فماذا يصنع؟

وحانت منه التفاتة فرأى كومة من الأحجار أعدها الثوار ليعتصموا بها، وقد حجبت هذه الكومة جزءاً من فوهة سرداب للمجاري، فأقبل على الأحجار، وراح يرفعها بسرعة البرق وقوة العمالقة، وقد نشطت فيه مواهب السجين الذي عرف كل وسائل الفرار، وتذوق حلو المغامرات ومرها، ثُم حمل جثة ماريوس، وهبط من الفوهة، ووجد نفسه في ظلام السراديب وأوحالها، وتريث وهو يلهث، وانتظر حتى ألفت عيناه الظلام، ثم واصل السير ببطء، وحذر، مسترشداً بانحدار السراديب، آملاً أن ينتهي النهر حيث المجاري، ووجد نفسه وسط شبكة من السراديب والأزقة الأرضية لا أول لها ولا آخر، وليس ثمة صوت يهتدي به، أو ضوء يُرشده، وطالت رحلته، وأنهكه التعب، واستولت عليه الوساوس والأوهام.

تُرى هل يهلك جوعاً، وتنزف دماء ماريوس قبل أن يتمكن من تضميد جراحه؟ وفجأة، لاحت له وسط الظلام الدامس حلقة من الضوء، فتنفس الصعداء، ودخل في روعه أنه أشرف على نهاية الرحلة، فوسع الخطى حتى بلغ تلك الحلقة، فإذا هي ضوء مُنبعث من كومة مفتوحة في سقف السرداب، على أنه رحب بها الضوء، فمدد ماريوس على الأرض، ومزق قميصه، وضمد جراحه، ثم فتش جيوبه، فعثر على ورقة عليها هذه الكلمات:

«اسمي ماريوس بونيرسي، فأرجو نقل جثتي إلى بيت جدي مسيو جيلنورمان بالمنزل رقم ٦ بشارع كالفبر».

وكان ماريوس قد كتب هذه الورقة على سبيل الحيطة، حتى إذا قُتل في المتاريس نُقلت جثته إلى بيت جده، ورد جان فالجان الورقة إلى جيب صاحبها، وجلس يلتمس الراحة، وعاد بعد قليل إلى استئناف رحلته الشاقة في تلك السراديب البغيضة، وبعد نصف ساعة أخرى انبلج له ضوء ضئيل أخذ ينتشر كُلما اقترب، ثم بدأ له مخرج السرداب وسمع خرير الماء في نهر السين، فوثب قلبه بين ضلوعه، على أنه ما كاد يقترب من مخرج السرداب، حتى ألقاه مُغلقاً بباب مشبك بالقضبان الحديدية. فأسند ماريوس إلى الجدار، وأمسك القضبان الحديدية بيديه القويتين، وهزها بعنف، ولكنها لم تتحرك، فأسقط في يده، وتصبب العرق البارد على جبينه، وهاله مجرد التفكير في العودة من حيث أتى، وانصرف ذهنه في هذا المأزق إلى كوزيت.. يا إلهي! أيمكن أن تفقدهما

معاً، هو وماريوس؟ وأنه نهبة لليأس، إذ به يشعر بيد توضع على كتفه وتقول بهمس:

- لنقتسم الغنيمة.

خُيل لجان فالجان أنه يحلم، فإنه لم يسمع وقت خطوات المُتكلم. نظر إليه وعرفه، وأدهشته هذه المُقابلة الفجائية، وكان المتكلم هو تيناردييه، ولم يرد تيناردييه وجه غريمه، لأنه كان واقفاً في الظلام، وكان جسم ماريوس يحجب نصف وجهه، فقال:

- كيف تنوي الخروج من هنا؟

فلزم جان فالجان الصمت، وقال تيناردييه:

- يستحيل عليك أن تُزحزح الباب من مكانه، ومع ذلك فإنه من الضروري لك أن تخرج من هذا الجحيم.

فأجاب جان فالجان:

- هذا صحيح.

- إذا فلنقتسم الغنيمة!

- ماذا تعني؟

- إنك قتلت هذا الرجل، واستوليت على نقوده، وأنا استوليت على مفتاح الباب.

استطرد بعد قليل:

- إنني لا أعرفك، ولكن لا أشك في أنك من أهل المهنة، ومن واجبي أن أعاونك.

ففهم جان فالجان غرضه، وأدرك أن تيناردييه يحسبه لصاً وقاتلاً، فقال تيناردييه:

- أصغ إليَّ أيها الزميل! لا بد أنك فتشت جيوب الرجل بعد أن قتلته، فأعطني نصف الغنيمة فأفتح لك الباب. ها هو المفتاح!

قدم مفتاحاً حديدياً ضخماً، فتناول جان فالجان المفتاح وانبسطت أسارير وجهه. لقد أرسلت إليه العناية الإلهية ملاكاً في صورة شيطان، ودس تيناردييه يده في جيبه الواسع، وأخرج حزمة من الحبال، دفعها لجان فالجان وهو يقول:

- خُذ هذا نصيبك من الصفقة.

- وماذا أفعل بهذا الحبل؟

- إنك أيضا في حاجة إلى حجر، ولكنك ستجد كثيراً من الأحجار في الخارج.

- وماذا أفعل بالحجر؟

- يا لك من جاهل! كيف تُلقي بالجثة بماء النهر دون ربطها بحجر لكي تغوص؟

فمد جان فالجان يده بحركة آلية، وتناول الحبل.

قال تيناردييه:

- الآن دعنا نبرم الصفقة. إنني أبرزت لك المفتاح والحبل، فأبرز لي نقودك.

بحث جان فالجان في جيوبه، ولم يجد غير جنيه واحد وبضعة فرنكات فقدمها جميعها إلى تيناردييه، وقال هذا في دهشة:

- لا شك أنك لم تقتل الرجل لأجل هذا المبلغ التافه.

وتقدم من جان فالجان ببساطة، وراح يُفتش جيوبه، ثم بحث في جيوب ماريوس، وعثر على ثلاثين فرنكا فاستولى على المبلغ كله، وقال وقد تناسى نظرية الاقتسام:

- الآن تستطيع أن تذهب أيها الزميل.

وساعده على حمل ماريوس، وفتح باب السرداب، وما إن خرج جان فالجان من السرداب، وسقط على وجهه الضوء المنبعث من أحد

مصابيح الشارع، حتى فتح تيناردييه فمه، وحبس أنفاسه دهشة وعجباً! وترك جان فالجان وراءه تلك السراديب المُخيفة، واستقبل نسيم الليل، وتنفس ملء رئتيه، ومدد ماريوس على ضفة النهر، وفرك صدغيه بالماء. وإذا به بحس بالغريزة، كما يحس الحيوان في الدغل، بأن هناك عيناً ترقبه من الوراء؛ فنظر خلفه بسرعة، ووقع بصره على رجل طويل القامة يرتدي معطفاً طويلاً، ويُمسك بيده عصاً ثقيلة، وقد عقد ساعديه فوق صدره، وجعل يرقبه بإمعان، وعرفه جان فالجان، عرف فيه غريمه الأبدي جافير، وهكذا سقط جان فالجان من صخرة إلى صخرة. وجاءت مُقابلة جافير بعد مُقابلة تيناردييه، فكانت صدمة عنيفة زلزلت أعصابه، على أن جافير لم يعرف غريمه، فقد قضى جان فالجان ليلته في المتاريس، وقضى نهاره في السراديب، فتمزقت ثيابه، وتلوث وجهه بالرماد والأوحال، ولم يُحرك جافير ساعديه، ولكنه ضغط مقبض العصا بأصابعه.

سأل: "من أنت؟"

- أنا جان فالجان.

أمسك جافير العصا بأسنانه، وألقى بيديه على جان، وأمعن النظر لوجهه وعرفه، وكاد وجهاهما أن يتلامسا. ورأى جان فالجان في عيني مفتش الشرطة نظرة مخيفة، قال:

- أيها المفتش جافير، إنني بقبضة يدك. أنا أسير منذ الصباح ولم أذكر لك عنواني لكي أحاول الفرار، فألق القبض علي فقط لي رجاء واحد.

بدا على جافير أنه لم يسمع، ولم يحول عينيه الثاقبتين عن وجه فالجان. ودفع ذقنه للأمام، وألقى رأسه إلى الأرض، وبعد صمت قصير، ترك كتفي جان فالجان، وأمسك العصا بيده، وسأل بصوت الحليم:

- ماذا تصنع؟ ومن هو هذا الرجل؟

فأجاب جان فالجان بصوت أيقظ محدثه:

- لقد أردت أن أحدثك عنه فافعل بي ما شئت، ولكن ساعدني أولا على نقله إلى منزله ذلك هو رجائي الأوحد.

فأخرج جافير من جيبه منديلاً غمسه بالماء، ومسح به الدم عن جبين ماريوس. وقال بصوت خافت كأنه يُحدث نفسه:

- لقد كان هذا الرجل بين الثوار.

- نعم، وهو جريح.

- إنه ميت.

- كلا. لم يمت بعد.

- إذاً فقد حملته من المتاريس إلى هنا؟

ثُم قال بعد قليل:

- إنه يُقيم مع جده في شارع كالفير.

بحث في جيب ماريوس عن القصاصة التي كتب عليها الفتى عنوانه، فعثر عليها. ولكنه عثر في هذه المرأة أيضاً على الرسالة التي بعثت بها كوزيت إلى ماريوس. وتسلمها الشاب وهو يقاتل في المتاريس، قال جان فالجان:

- هو ذا عنوانه.

فتناول جافير القصاصة، وحملق إليها بعينين فوسفوريتين كعيون طيور الليل، وكان جافير قد جاء إلى تلك الناحية في إحدى مركبات الأجرة، وأمر السائق أن ينتظره، فقد يحتاج إلى مركبته في مطاردة تيناردييه. صاح:

- تعال أيها السائق.

فاقترب السائق بالمركبة وصعد إليها الرجلان، وظل جان فالجان مُمسكا بماريوس من ساعده، وانطلقت المركبة في الظلام، وفي جوفها أبطال المأساة، أحدهم كالجثة، والثاني كالشبح، وجافير تمثال من رخام.

وقفت المركبة بباب المنزل رقم ٦ بشارع كالفير، ووثب منها جافير وطرق الباب بعنف، وفتح الباب بعد لحظة، وأطل البواب، فسأله جافير بخشونة رجال الشرطة:

- هل يُقيم هنا رجل يُدعى جيلنورمان؟

- نعم. هذا منزله. فماذا تريد؟!

- لقد جئنا بابنه.

فصاح البواب في دهشة:

- ابنه؟!

- نعم، وهو ميت.

وعجز البواب عن فهم كلمة واحدة، فاستطرد جافير:

- إنه كان مع الثوار في المتاريس.. اذهب وأيقظ أباه.

فقنع البواب بإيقاظ الخادم «باسك»، وقنع «باسك» بإيقاظ الآنسة جيلنورمان، ولم يجرؤ أحد على إيقاظ الشيخ، وحمل ماريوس لغرفة في الطابق الأول، وانطلق «باسك» في طلب الطبيب، وظل جان فالجان واقفاً ينظر إلى الجثة كمن هو في حلم، إلى أن شعر بيد جافير تُمسك كتفه، ففهم وانصرف. وسار جافير في أثره وصعدا إلى المركبة، وقال جان فالجان:

- أيها المفش جافير، إن لي رجاءً آخر، اسمح لي بقضاء بضع دقائق ببيتي، ولك أن تفعل بي بعد ذلك ما تريد.

فصمت جافير لحظة، ثم صاح بالسائق:

- إلى منزل رقم ٧ شارع لوم آميه.

ولم يدر بينهما حديث أثناء الطريق، ففيم كان جان فالجان يفكر؟ وماذا كان يبغي؟

كان يريد أن ينذر كوزيت برحيله، وأن يطلعها على مكان ماريوس، ويُرتب شؤونه للمرة الأخيرة، ووصلت المركبة إلى شارع لوم آرميه ووقفت في أوله لضيقه، فنقد جافير السائق أجره، ورافق جان فالجان إلى باب البيت، وكان الشارع مقفراً من المارة كالمعتاد، ففتح جان فالجان الباب ونظر إلى جافير.

قال الشرطي:

- اذهب! وسأنتظرك هنا.

فدهش جان فالجان، لم تكن عادة جافير، ولكنه دخل المنزل مُتمهلاً، وصعد السلم ببطئ، وكان للسلم نوافذ يستمد منها الضوء. فحانت من جان فالجان نظرة غير مقصودة لإحدى هذه النوافذ، وأدهشه ألا يرى جافير بالباب حيث تركه.

أما جافير فإنه انتظر حتى توارى جان فالجان داخل المنزل ثُم سار في الشارع ببطء، وقد سقط رأسه على صدره لأول مرة في حياته. ولأول

مرة في حياته كذلك، كانت يداه معقودتين خلف ظهره، وقبل ذلك اليوم، لم يكن جافير يعرف من الحركتين اللتين امتاز بهما نابليون، غير الحركة التي تُعبر عن السطوة وقوة الإرادة والجبروت وهي رفع الرأس، وعقد الساعدين فوق الصدر.

أما الحركة التي تنم عن الشك والقلق، وهي عقد اليدين خلف الظهر، فإن جافير لم يعرفها في حياته إلى أن كانت تلك الليلة، وكان موقفه لا يُطاق.. نعم. كان مما لا يُطاق أن يدين بحياته لأحد المُجرمين وأن يقبل هذا الدين، ثم يقوم على سداده، وكان مما لا يُطاق أن يضع نفسه في مستوى واحد مع سجين هارب من الليمان، ويُقابل معروف السجين بمعروف مثله، شيء واحد أدهشه، هو أن يعفو عنه جان فالجان. وشيء واحد روعه، هو أن يعفو عن جان فالجان، على أنه لم يغفل عن حقيقة ثابتة هي أنه ارتكب مُخالفة خطيرة للقانون. فقد أغمض عينيه عن مجرم عائد وسجين هارب، وانتزع من قبضة القانون رجلاً من حق القانون، ففعل ذلك، ولم يدر كيف فعله، وشعر بأنه أخل بواجبه فلم يبق ثمة معنى لحياته، فهل ذلك مما يُطاق؟ كلا.

كان موقفه دقيقاً، ولا مخرج منه إلا بإحدى وسيلتين:

- إما القبض على جان فالجان وإيداعه السجن وإما... وكان السكون شاملاً، والظلام دامساً، والشوارع مقفرة من المارة. وهذا الرجل الذي يعتبر الواجب والقانون جزءاً من كيانه، بل كل حياته، يسير على مهل

فوق جسر «بينا»، ووقف فوق الجسر، وأطل من فوق حاجزه، ورأى ماء «السين» ينحدر في تلك البقعة بقوة، تاركاً تلافيف سريعة لا تلبث أن تتلاشى، وظل جافير في مكانه بعض الوقت، وعيناه لا تتحولان عن الماء المُظلم، ثُم خلع قبعته، ووضعها على حافة الجسر، وبعد لحظة شوهد شبح طويل ينهض فوق الحاجز وينحني نحو النهر، ثُم يهوي نحو الماء فيبتلعه الماء والظلام، وأقبل الطبيب على عجل، وفحص ماريوس فوجد أن الرصاصة أصابت العنق وكسرت عظم الترقوة، أما سائر أعضاء الجسم فلم تُصب بأذى. ولكن ما سال من دم الشاب بعد إغمائه أضعفه كثيراً، وكان الطبيب ما يزال يغسل الجرح حين فتح باب الغرفة فجأة، ودخل مسيو جيلنورمان، وهو في قميص النوم، وكانت الضجة التي أحدثها الخدم قد أيقظت الشيخ، فنهض من فراشه، وقصد إلى الغرفة التي خيل إليه أنها مصدر الاضطراب، وتقدم خطوة إلى الأمام، ثم جمد في مكانه، ونظر إلى الفراش، وإلى الطبيب، وإلى ابنته. ووضع يده فوق فمه كأنما يمنع صرخة أوشكت أن تفلت منه، وهتف فجأة بصوت ثاقب: "ماريوس!"

قال الخادم:

- لقد جيء به تواً يا سيدي. والظاهر أنه ذهب إلى المتاريس و...

صاح الشيخ:

- إنه مات.. مات.. إنه أورد نفسه موارد التهلكة انتقاماً مني. ويل للتعس. ويل لشارب الدماء، ويل لي!

واقترب من الفراش، ونظر إلى الشاب، وتناول ساعده، وراح يهزه ويغمغم في الوقت نفسه بصوت لا يكاد يسمع:

- أيها الوغد، أيها القاسي القلب.

كان كمُحتضر يعتب على جثة، ثُم سال الكلام من فمه بعد ذلك بقوة، وصاح:

- ذلك لا يهمني أيها الشقي، فسأموت مثلك، وما دمت لم تشفق على نفسك، فإنني لن أحزن لموتك. هل سمعت أيها القاتل؟!

في هذه اللحظة تحركت أهداب ماريوس، وفتح عينيه ببطء، وألقى حوله نظرة تحجبها غشاوة، فصاح الشيخ:

- ماريوس! يا ولدي العزيز! يا ابني المحبوب! إنك فتحت عينيك. إنك تنظر إليَّ. إنك على قيد الحياة. شكراً لله.

وأغمي عليه.

قضى ماريوس بضعة أسابيع بين الموت والحياة، ولم يكف في هذيانه عن ترديد اسم كوزيت، ولم يبرح الشيخ بدوره فراش حفيده، وهو

كحفيده يتردد بين الموت والحياة، وفي كل يوم، بل ومرتين كل يوم، كان شيخ أشيب الشعر نظيف الهندام يتردد إلى المنزل، ويستفسر الرجل عن حال الجريح، ويترك عنده ضمادات وعقاقير للجروح، وأخيراً، وبعد أربعة أشهر من تلك الليلة المشهودة التي حملت فيها جثة ماريوس إلى بيت جده، أعلن الطبيب أن الجريح تجاوز الخطر. وعندئذ فقط، عاد الشيخ جيلنورمان إلى غرفته، وبزوال الحمى، كف ماريوس عن ترديد اسم كوزيت، ولكنه لم يكف عن التفكير فيها.

في أحد الأيام، انحنى جيلنورمان فوق حفيده، وقال بلطف:

- أصغ لي لو كنت في مكانك ما ترددت في تناول لحم الضأن بدل السمك، فالترحيب يأكل السمك دليل على النقاهة، ولكن أكل الضأن يُساعد المريض على الوقوف على قدميه.

فاعتدل ماريوس في فراشه، ونظر لوجه جده بإمعان، ثم قال بلهجة حادة:

- ذلك يحملني على أن أقول لك شيئا.

- ما هو؟

- هو أنني أريد أن أتزوج.

فانفجر الشيخ ضاحكاً وصاح:

- اتفقنا، ستقترن بصاحبتك الصغيرة.

فلم يُصدق ماريوس أذنيه، ومضى الشيخ يقول:

- نعم، ستقترن بهذه الصغيرة البديعة، إنها تستفسر عنك كُل يوم في صورة رجل كهل. وقد حصلت على جميع المعلومات الضرورية، فالفتاة تُقيم في شارع لوم آرميه أليس كذلك؟! وأنت تُريدها زوجة لك. فليكن ذلك. أصغ إلي.. إنني لاحظت أنك لا تُحبني. فقلت لنفسي «ماذا يجعل هذا الحيوان يُحبني؟» ثم فكرت في كوزيت، وقلت إذا جدله بها، فربما أحبني وسأجيئك بها. وعليك أن تتجشم عناء الزواج.

فأطبق ماريوس بساعديه على عنق جده وغمغم الكلمة التي يتوق الشيخ دائماً إلى سماعها:

- يا أبي المحبوب.

- أتحبني إذا؟ لقد دعوتني أباك.

- لقد شُفيت الآن يا أبي. وأظن أنني أستطيع أن أراها.

- ستراها غداً.

فهتف مُحتجاً:

- أبي!

- ماذا؟

- ألا يمكن أن أراها اليوم؟

- بل ستراها اليوم. إنك دعوتني أباك ثلاث مرات وهذا يكفي.

وتلاقي العاشقان، ولن نحاول وصف نقائهما، فهناك أشياء لا يمكن تصويرها، والشمس إحدى هذه الأشياء، وكان جيلنورمان وابنته وخادمه وخادمته في غرفة ماريوس، حين أقبلت كوزيت وفي إثرها كهل حسن الهندام تتلاعب على شفتيه ابتسامة شاردة مؤلمة، وكان هذا الكهل هو مسيو فوشليفان "جان فالجان"، وكان يرتدي ثوباً جديداً، ورباط عنقه أبيض، ويحمل تحت إبطه شيئاً ملفوفاً في ورقة، وقد وقف مسيو فوشليفان بباب الغرفة كأنه يخشى الدخول. ورمقته الآنسة جيلنورمان بنظرة فاحصة، ثم همست في أذن وصيفتها نيكوليت:

- إنه يحمل تحت إبطه كتاباً.

فأجابت نيكوليت:

- لعله من العلماء.

أما جيلنورمان فإنه أحنى قامته باحترام وقال:

- هل لي الشرف بالتحدث إلى مسيو فوشليفان؟

فأحنى جان فالجان قامته بدوره ولم يجب. قال الشيخ:

- إن لي كل الشرف أن أطلب يد ابنتك لحفيدي البارون ماريوس بونمرسي.

فأحنى جان فالجان قامته مرة أخرى. وتعانق العاشقان، وتأملت الآنسة جيلنورمان هذه السعادة التي انبثقت في الغرفة، لا كما تنظر البومة إلى حمامتين، وإنما كما تنظر عانس في السابعة والخمسين من عمرها، إلى شيء أقفرت منه حياتها المجدبة. وهو الحب بمعناه الصحيح، وتحول جيلمورمان إلى كوزيت، وقال:

- هذه الابنة بديعة حقاً، إنها فتاة صغيرة، ولكنها سيدة عظيمة، ومما يؤسف له أنها بارونة فقط، وليست مركيزة، فما أبدع أهدابها الطويلة!

ثُم استطرد بحزن:

- من سوء الحظ أنني أستثمر كُل ثروتي في أحد المصارف، ولا يجوز لي أن أستردها قبل انقضاء عشرين عاماً. فإذا مت قبل ذلك...

وكف عن الكلام، وأحزنه هذا الخاطر، وعندئذ قال قائل:

- إن الآنسة كوزيت فوشليفان تملك ستمائة ألف فرنكا.

كان المتكلم هو جان فالجان، الذي قبع منذ دخوله في أحد الأركان فلم يشعر به أحد، فرد جيلنورمان في دهشة:

- ستمائة ألف فرنكا!

فأجاب جان فالجان:

- أقل من ذلك ببضعة آلاف.

وتناول الحزمة التي كانت تحت إبطه، وفتحها، فإذا بها تحوي على رزمة من الأوراق المالية، وأحصيت تلك الأوراق، فإذا قيمتها ٥٨٤ ألف فرنكا.

فغمغمت الآنسة جيلنورمان:

- ما أثمن هذا الكتاب، ولا بد أن يكون القارئ قد عرف مصدر هذه الثروة، وأدرك سر الرحلات الغامضة التي كان يقوم بها جان فالجان في بعض الأحيان، ذلك أنه كان قد استطاع بالوقت المناسب أن يسحب الثروة التي أودعها بنك لافيت باسم الأب مادلين، ثم وضع هذه الثروة مع شمعداني الأسقف في صندوق صغير، وأخفى الصندوق في دغل بالقرب من قرية «بولانجيه». ومنذ بضعة أيام، سافر إلى بولانجيه وعاد بالمنزل كله.

وبدأ الاستعداد للزفاف. فمهد جان فالجان كل شيء، وذلل كل

صعب، واستطاع بفضل اضطلاعه السابق بوظيفة العمدة أن يجعل هذا الزواج ممكناً. وقد كان من المستحيل أن يُصرح بنشأة كوزيت، فزعم أنها ليست ابنته، ولكنها ابنة شقيقة فوشليفان الآخر، الذي كان يشتغل بستانيا في حديقة سان أنطوان. ولم يكن في استطاعة راهبات الدير بطبيعة الحال أن يفرقن بين الأخوين. فقررن أن كوزيت هي ابنة فوشليفان البستاني الذي توفي منذ بضعة أعوام.

وهكذا عملت كوزيت أنها ليست ابنة الرجل الذي طالما دعته أباها، ولو علمت ذلك في وقت آخر لحزنت أشد الحزن. ولكنها كانت وقتئذ في غمرة السعادة، فمرت هذه السحابة دون أن تترك في نفسها أثراً. وظلت بالرغم من ذلك تدعو جان فالجان أباها، وتقرر أن يُقيم العروسان في بيت جيلنورمان. وأصر الشيخ على النزول لها عن غرفته. وكانت أثمن غرفة في المنزل، ولم تشغل السعادة ماريوس عن العمل لإرضاء ضميره وإشباع فضوله.

كان يريد أن يعرف الرجل الباسل الذي خاطر بحياته، وأنقذه من المتاريس، وحمله إلى بيت جده، وتركه ومضى دون أن يذكر اسمه أو ينتظر كلمة شكر، بيد أن جميع الجهود التي بذلها لمعرفة هذا الباسل المجهول ذهبت أدراج الرياح. فقنع بأن يحمل في قرارة نفسه أسمى معاني الشكر وعرفان الجميل، ولما فاض قلبه بالسعادة، عاودته ذكرى منقذه الكريم، فاهتم بالبحث عنه بمعونة الخادم «باسك» واهتدى أخيراً إلى السائق الذي نقله في مركبته. وذكر كيف أن أحد رجال الشرطة

استأجر المركبة منذ الساعة الثالثة حتى منتصف الليل وكيف أنه قضى أكثر هذا الوقت في انتظار الشرطي على ضفة نهر السين أمام فوهة المجاري. وكيف رأى باب الفوهة يُفتح ويخرج منه رجل حاملاً جثة إنسان ميت، ثم كيف ألقى الشرطي القبض على الرجل ونقل الجثة إلى شارع «كالفير»، وكيف غادر الرجل الشرطي المركبة في شارع آرميه وغابا عن بصره.

وسمع ماريوس هذه القصة، فراجع رأيه واستغرق في تفكيره، وإذا كان منقذه قد خرج به من فوهة السرداب فمعنى ذلك أنه اجتاز باريس كلها من الشرق إلى الغرب، في ظلام السراديب، والجثة على كتفه. فما السر في هذا الإخلاص العجيب؟! وذات مساء سرد ماريوس قصة هذا المنقذ على مسمع من كوزيت وجان فالجان. وختم حديثه بأن صاح:

- لقد كان نُبلاً من الرجل أن يُجازف بحياته في المتاريس، وأن يتجشم عناء حملي على كتفه والسير بي في السراديب الأرضية المُظلمة بضعة أميال. فلماذا فعل ذلك؟ لابد أنه قال لنفسه حينما رآني «ربما ما يزال في هذا الشاب رمق من الحياة فلأجازف بحياتي، فربما أنقذت حياته»، وجازف بحياته لا مرة واحدة بل عشرين مرة، فهل ثمة أنبل من ذلك؟! أواه! لو كنت أملك ثروة كوزيت!

كف عن الكلام، فقال جان فالجان:

- إنك تملكها.

فأجاب ماريوس:

- إذاً ليس أحب إلى من أن أنفقها إلى آخر سنتيم في سبيل العثور على هذا الرجل.

فصمت جان فالجان.

***

كانت ليلة ١٦ فبراير من الليالي الخالدة في حياة كوزيت، ففي هذه الليلة، ليلة زفافها، كانت ربيبة جان فالجان ملاكاً يشع حوله الحب والجمال والسعادة، وقد مدت المائدة الكبرى في بهو واسع أضيئت في جوانبه الشموع المعطرة. وانتشرت في أنحائه باقات الزهر، وراح الشيخ جيلنورمان يتنقل بين الغرف متبختراً مختالاً كأن الليلة ليلة زفافه، وجلس جان فالجان على مقعد وراء أحد الأبواب، وقد شد ساعده إلى عنقه، وكان قد جرح إصبعه منذ أيام، ورفض أن يسمح حتى لكوزيت أن ترى الجرح، واقتربت الفتاة من الشيخ الذي وفر لها كل هذه السعادة، وسألته بصوت رقيق، فيه دعابة الطفل وسخريته:

- هل أنت سعيد يا أبي؟

- نعم.

- إذاً فاضحك.

وبعد بضع دقائق، دُعي القوم لتناول الطعام، فداروا حول المائدة.

كان هناك مقعدان كبيران حول مقعد العروس، أحدهما لجيلنورمان والثاني لجان فالجان. فجلس الأول في مقعده، وبقى المقعد الثاني خلوا من صاحبه، وانقضت بضع دقائق، ولم يحضر فوشليفان، فصاح جيلتورمان بخادمه:

- ألا تعرف أين ذهب مسيو فوشليفان؟

فأجاب باسك:

- نعم يا سيدي. إنه طلب إلى أن أنبئك بأنه يشعر بألم في إصبعه ويتعذر لعدم قدرته على تناول الطعام.

فوجم المدعوون، ولكنهم أقبلوا على الطعام بعد ذلك، وأغناهم وجود جيلمورمان عن وجود فوشليفان، أما جان فالجان فإنه بعد أن ضحك كما طلبت منه كوزيت، نهض واقفاً دون أن يشعر به أحد، وتسلل إلى الغرفة المجاورة التي دخلها منذ ثمانية أشهر، عندما نقل إليها جثة ماريوس، وهناك صادفه باسك. فأشار إلى ساعده المشدود إلى عنقه، وطلب منه أن يبلغ المدعوين اعتذاره، ثم عاد إلى منزله وأضاء المصباح، وكان المنزل خلواً مقفراً. فأحدث وقع أقدامه على الأرض جلبة غير عادية، ونظر إلى الجدران، وأغلق الخزانة، وانتقل من غرفة إلى أخرى ثم عاد إلى غرفته، ووضع المصباح على المائدة، وحل الرباط الذي يشد

ساعده إلى عنقه، واستخدم أصابع يده كما لو لم تكن بها إصابة، ثم انتقل ببصره لحقيبة صغيرة بأحد الأركان، فتناولها، وفتحها وأخرج منها الثياب التي كانت كوزيت ترتديها منذ عشرة أعوام، يوم غادرت معه حانة تيناردييه.

أخرج الثوب، والمئزر والمنديل، والحذاء الضخم والجوارب، وبسطها جميعها على الفراش. فوضع المئزر فوق الثوب، ووضع المنديل في جيب المئزر، والجوارب تحت الثوب، والحذاء تحت الجوارب. ونظر إليها جميعاً، وخُيل إليه أنه يرى كوزيت أمامه، كأول عهده بها، طفلة في الثامنة من عمرها. تُمسك يده بإحدى يديها، ودميتها باليد الأخرى، وهي تضحك وليس لها في الحياة سواه، وتأمل الثياب طويلاً. ثم سقط رأسه الأبيض الوقور فوق الفراش، ودفن وجهه بين تلك الثياب، وتداعى قلبه الكبير، فبكى بكاء الأطفال، وشعر جان فالجان في تلك الليلة بأنه يُقاتل في المعركة الأخيرة وقد احتل ذهنه سؤال واحد هو:

- كيف ستكون صلته بسعادة كوزيت وماريوس؟

إنه أراد تلك السعادة، وعمل لها، وأوجدها، وهو الآن ينظر إليها كما ينظر صانع السيوف إلى اسمه منقوشاً على نصل السيف الذي طعن به نفسه، فماذا تكون صلته بهذه السعادة بعد الآن؟ ولقد أصبحت كوزيت مُلكا لرجل آخر. فهل من حقه أن يحتكر لنفسه منها أعظم قسط يستطيع احتكاره؟ هل من حقه أن يفرض نفسه على سعادتها فرضاً

بالصفة التي كانت له قبلاً كوالدها؟! هل من حقه أن يُثقل مُستقبلها بماضيه دون أن ينطق بكلمة؟

قضى الليل كُله، وهو يُلقي على نفسه هذه الأسئلة ويُحاول أن يجد لها جواباً. وانبثق الفجر وهو لا يزال في مكانه أمام الفراش، اثنتا عشرة ساعة قضاها كذلك دون أن يأتي بحركة أو ينطق بكلمة، وكان يُخيل للناظرين إليه أنه رجل ميت، فإذا ألصق فمه بثوب كوزيت وقبله، عندئذ فقط تبدو عليه علامات الحياة.

الفصل الحادي عشر

الماضي

خُيم على بيت جيلنورمان في اليوم التالي ذلك السكون العميق الذي يعقب السهرات الصاخبة، وكان باسك يعمل في ترتيب الأثاث، حين سمع طرقاً على الباب ففتحه، فإذا الطارق مسيو فوشليفان، سأله جان فالجان:

- هل استيقظ سيدك؟

- أيهما؟ العجوز أو الشاب؟

- البارون بونمرسي.

- لا أعلم سأتحقق من ذلك، هل أقول له إن مسيو فوشليفان يريد مقابلتك؟

- كلا، قُل له إن شخصاً يطلب التحدث إليه على انفراده، ولا تذكر له اسمي.

ولاحظ جان فالجان دهشة الخادم فاستطرد:

- إنني أريد مفاجأته.

بقي جان فالجان جامداً في مكانه حيث تركه الخادم، وكان غائر العينين من تأثير التعب والانفعال والبكاء. وقد تهدل ثوبه الجديد بعد تلك الليلة المسهدة الطويلة، وما هي إلا لحظة حتى أقبل ماريوس، وهو مُنتصب القامة مرفوع الرأس ضاحك الثغر لامع العينين، ولم يكن بدوره قد تذوق طعم النوم بتلك الليلة.

هتف الشاب:

- أهذا أنت يا أبي، لماذا إذاً لم يذكر الأحمق «باسك» اسمك؟ ولكنك جئت مُبكراً يا أبي، فالساعة الآن الثانية عشرة، ولا تزال كوزيت نائمة.

كانت كلمة «أبي» التي ترددت في فمه دليلاً على مبلغ سعادته وجذله، ذلك أن الصلة بين الرجلين كان يُخالطها دائماً شيء من البرودة والفتور، ولكن حرارة السعادة التي تعتمل في نفس الفتى أذابت هذه البرودة، وجعلته يرى في فوشليفان أباً له مثل كوزيت واستطرد ماريوس:

- ما أشد سعادتي بلقياك كيف حال إصبعك؟

ولم ينتظر جواباً، وأردف:

- لقد تحدثنا عنك طويلاً، لأن كوزيت تحبك كثيراً، فلا تنس أن لك غرفة هنا. نحن لا نريد أن تقيم في شارع لوم آرميه، إنه زقاق ضيق صغير يفتقر لأسباب الصحة، ويجب أن تنتقل للإقامة معنا منذ الآن،

وإلا حاسبتك كوزيت حساباً عسيراً، إننا أفردنا لك الغرفة المجاورة لغرفتنا، وهي غرفة فسيحة تطل على الحديقة، وسوف يرحب جدى بإقامتك معنا، ثم إن كوزيت قد تحتاج إليك لتستند على ساعدك إذا خرجت للنزهة، كما كانت تفعل في حدائق لكسمبورغ. إننا مصممون على أن نكون سعداء، ويجب أن تشاطرنا سعادتنا، أسمعت يا أبي؟ وبهذه المناسبة، يجب أن تتناول طعام الإفطار معنا.

فقال جان فالجان:

- إن لي ملاحظة واحدة، وهي أنني كنت من نزلاء الليمان.

كانت العبارة التي نطق بها جان فالجان مستحيلة على العقل والأذن معاً فلم يعها عقلها، ولم تعها أذنه، وقد شعر بأن شيئاً قيل له، ولكن لم يدر ما هو، ووقف مفتوح الفم، فيما أخذ جان فالجان يحل رباط يده، حتى إذا فرغ من ذلك، بسط أصابعه أمام عيني ماريوس، وقال:

- ليس بيدي شيء، فقد كان من الضروري أن أتوارى من حفلة الزفاف. فاخترعت حكاية الجرح، لكيلا أرتكب جريمة تزوير تلغي عقد الزواج.

فغمغم ماريوس وهو يترنح في مكانه:

- ماذا تعنى؟

فأجاب جان فالجان:

- أعني أنني سجين سابق، وأنني كُنت من نزلاء الليمان.

فصاح ماريوس في ذعر:

- أتريد أن تفقدني عقلي؟

- أصغ إليَّ يا مسيو بونمرسي، إنني قضيت في الليمان تسعة عشر عاماً بتهمة السرقة، ثُم حُكم عليَّ بالسجن المؤبد لسرقة أخرى، فأنا الآن سجين هارب.

وكان جان فالجان يتكلم بلهجة جادة رزينة فانكمش الفتى، وهاله ما سمع، وانقضت بضع دقائق، قبل أن يتمكن عقله من هضم الحقيقة المستحيلة، ثُم صاح في ذعر وهو يتراجع إلى الوراء:

- أنت... أنت... والد كوزيت؟

رفع فالجان قامته بكبرياء قائلاً:

- يجب أن تُصدق كل كلمة أنطق بها يا سيدي. إنني لست والد كوزيت، كلا، بحق السماء لست والدها. إنني فلاح بسيط من أهل فافيرول، واسمي جان فالجان، لا فوشيفان، ولا قرابة من أي نوع بيني وبين كوزيت، فكن مطمئنا

فغمغم ماريوس وقد أثملته الدهشة:

- وأين الدليل؟

- كلامي هو الدليل.

فنظر ماريوس إلى الرجل، فألفاه حزيناً هادئاً، ولا يمكن أن يصدر الكذب عن مثل هذا الهدوء، قال:

- إنني أصدقك.

فأحنى جان فالجان رأسه كأنما ليسجل هذه الحقيقة واستطرد:

- هل تريد أن تعرف صلتي بكوزيت؟ ما أنا إلا عابر سبيل في حياتها، ومنذ عشرة أعوام لم أكن أعلم لها وجوداً ولكنني أحبها كما يُحب كبار الشيوخ صغارهم، كانت يتيمة الأبوين وبحاجة إليَّ، فأوقفت عليها حُبي وحناني، والآن فقد خرجت من حياتي، وانقطعت أسباب دنياي من أسباب دنياها، وتفرقت بنا السبل، وأصبحت لا أملك لها نفعاً، أراك لا تنطق بكلمة عن الستمائة ألف فرنك، ولكنني أعرف ما يدور بخلدك. فاعلم إذا أن هذا المبلغ وديعة بين يدي. لا تسألني عن مصدر هذه الوديعة، أو كيف انتهت إليَّ فذلك لا يهم بقليل أو كثير، وبحسبي أنني رددت الوديعة إلى أصحابها.

فزادت دهشة الشاب، ثم ما لبث أن صاح:

- ولكن لماذا تقول لي كل هذا؟ من ذا الذي يُرغمك على أن تقوله؟ أما كان أجدر بك أن تحتفظ لنفسه بهذا السر، ما دمت بمأمن من الفضيحة والمطاردة؟

- أتسألني لماذا أصارحك بهذا؟ ضميري يُطاردني، فهو الذي يتعقبني ويقبض عليّ ويحاكمني، ومتى سقط الإنسان في قبضة ضميره، فلا مفر له.

أمسك عنقه بقبضة يده واستطرد:

- انظر لهذه اليد أترى أنها تقبض على العنق بحيث لا يستطيع منها خلاصاً؟! إن الضمير يختلف كثيراً عن قبضة اليد فإذا شئت أن نعيش سعيداً، حاول ألا تفهم الواجب لأنك إذا فهمته وقعت تحت نيره.

كف عن الكلام قليلاً، ثُم استطرد في هدوء وسكينة:

- يا مسيو بونمرسي إنني رجل أمين وأنا أرفع نفسي بنظري بتحقيرها بنظرك.

صمت مرة أخرى وازدرد لعابه بصعوبة قائلاً:

- متى كان للإنسان ماض كماضي، فليس من الإنصاف أن يحمل الآخرين أهواله دون أن يشعروا.

لقد أعارني فوشليفان اسمه، ولكن لا حق لي في أن أحمل هذا الاسم، لأن الاسم يُعبر عن الشخصية. والرجل الذي يحمل اسما غير اسمه هو جريمة تزوير مُجسمة في لحم ودم. والتقط أنفاسه بصوت مسموع، وقال في هدوء:

- فيما مضى سرقت رغيفاً لكي أعيش، ولكني اليوم أسرق اسماً لكي أعيش.

- لكي تعيش؟ إنك لست بحاجة إلى هذا الاسم أو أي اسم آخر لكي تعيش.

فهز جان فالجان رأسه مراراً وقال:

- إنني أفهم نفسي.

ساد بين الرجلين صمت عميق فقد أمسك كُل منهما عن الكلام واستغرقا في التفكير، وأخيراً غمغم الطريد:

- لقد زال الآن عن صدري حملُ ثقيل!

أخذ يسير في الغرفة جيئة وذهاباً إلى أن وقف فجأة أمام ماريوس وقال:

- هب الآن يا سيدي أنني أصارحك بالحقيقة، وأنني ما زلت فوشليفان،

وأنني احتللت مكاني في بيتك وأصبحت واحداً من أسرتك.. هب أننا – نحن الثلاثة – قد خرجنا للنزهة، أو دُعينا إلى سهرة فمشينا جنباً إلى جنب، لأنك تعتقد أنني لا أقل عنك شأنا وكرامة، وأخيراً، هب أن صوتاً صاح فجأة – ونحن نتحدث ونضحك «هو ذا جان فالجان»، وأن يد الشرطة امتدت فجأة من الظلام وأماطت اللثام عن وجهي؛ فماذا يكون؟

وصمت، وأحس ماريوس برعدة قوية تمشي في جسده، وقال جان فالجان:

- ماذا تقول في هذا؟

فلم يُجب ماريوس وأردف الطريد:

- هل أنت ترى أنني أحسنت صنعاً إذا صارحتك بالحقيقة؟ فعش أنت سعيداً، وكن ملاكا، وأنعم بالحب في ضوء الشمس، ولا يزعجنك اعتراف شقي يرى من واجبه أن يعترف أن أمامك رجلاً بائساً يا سيدي.

اجتاز ماريوس الغرفة ببطء، حتى إذا اقترب من جان فالجان، بسط إليه يده، ولكن جان فالجان لم يُحرك ساكناً، فاضطر ماريوس أن يتناول يده. وجدها كقطعة من الرخام قال:

- إن لجدي أصدقاء من ذوي النفوذ، وفي استطاعته أن يحصل لك على عفو.

فأجاب جان فالجان:

- لا فائدة من ذلك يا سيدي، فهم يعتقدون أنني مت، وذلك يكفي، فالموتى لا يوضعون تحت الرقابة، والموت أشبه بالعفو.

خلص يده من ماريوس وأردف:

- وبعد، فإنني لا أعرف من الأصدقاء غير الواجب، ولا أطلب إلا عفواً واحداً، هو عفو ضميري.

في هذه اللحظة، فُتح أحد أبواب الغرفة بلطف، وأطل منه رأس كوزيت. كان شعرها المضطرب يُزيد جمال وجهها. وكانت حركتها أشبه بحركة الطير حين يطل برأسه من وكره. نظرت أولاً لزوجها، ثُم نظرت لجان فالجان وصاحت وهي تضحك:

- أراهن على أنكما تتحدثان في السياسة، أما كان الأجدر بكما أن تقضيا الوقت معي؟

فبهت جان فالجان، وهتف ماريوس:

- كوزيت.

ثم صمت، واصطدمت عيناه بعيني جان فالجان، وقالت كوزيت، وهي لا تزال تبتسم ابتسامة الوردة النضرة:

- لقد فاجأتكما، وسمعت الأب فوشليفان يتحدث عن الواجب والضمير، وذلك حديث سياسي لا أسمح به قط.

فأجاب ماريوس:

- إنك مخطئة يا كوزيت، فحديثنا يدور حول شؤون أخرى لا تتصل بالسياسة، إننا نفكر في أفضل وسيلة لاستثمار ثروتك.

- سأدخل، وإن كان يُخيل إلي أن وجودي غير مرغوب فيه.

فلم ينطق جان فالجان بكلمة. وتحولت إليه كوزيت وهي تقول:

- إني أطالبك أولاً يا أبي، بأن تخف لمُقابلتي وتُقبلني. ما معنى صمتك هذا؟ أرأيت أباً كهذا الأب يا ماريوس؟ تعال وقبلني في الحال.

قدمت إليه جبينها، فاقترب منها خطوة، ولكنها اعتدلت فجأة وهتفت:

- ماذا بك يا أبي؟ إنك مُمتقع الوجه.. ألا تزال إصبعك تؤلمك؟

- كلا.

- هل أصابك أرق الليلة؟

- كلا.

- هل أنت حزين؟

- كلا.

- قبلني إذاً.

وقدمت إليه جبينها، فقبله، وقالت:

- ابتسم.

فأطاع جان فالجان، ولكنها كانت ابتسامة الأشباح، فقالت كوزيت:

- والآن سأبقى معكما.

فأجاب ماريوس متوسلا:

- كلا يا كوزيت، إننا نتحدث في أمر مهم، ويجب أن نفرغ منه.

- يا لك من زوجٍ قاس! وأنت يا أبي، لماذا لا تضم صوتك إلى صوتي؟! ما أشد قسوتكما! سأشكوكما إلى جدي.

وانطلقت من الغرفة كالغزال النافر، وكان قدومها وانصرافها أشبه بومضة البرق في غرفة مظلمة، وهز ماريوس رأسه وقال:

- مسكينة كوزيت.. متى علمتْ؟.

فارتجف جان فالجان من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، ونظر لماريوس بعينين شاردتين، وقال:

- كوزيت؟ آه.. صحيح أنك ستُحدثها بكل شيء، ولكن صبراً، إنني لم أفكر في ذلك. إن الإنسان قد يحتمل صدمة تزلزل كيانه ولكنه قد لا يحتمل صدمة أخرى في ذلك. أتوسل إليك يا سيدي. عدني بألا تُحدثها بشيء، أتقول لها إنني سجين هارب؟! كلا! أواه يا إلهي!

وغاص في أحد المقاعد، ودفن وجهه بين كفيه، ولم يسمع أحد صوت بكائه، ولكن اهتزاز كتفيه دل على أنه يبكي، وكانت دموعه صامتة، دموعاً رهيبة، وسمعه ماريوس يُتمتم بصوت خافت كأنه منبعث من جوف هاوية لا قرار لها:

- أواه، ما أحب الموت!

- رفه عن نفسك يا سيدي، فسأكتم سرك.

كان لصوته شيء من الخشونة فالفظاعات التي سمعها خلال الساعة الأخيرة على غير انتظار، جعلته يرى الهوة العنيقة التي تفصل بينه وبين هذا الرجل، وقال بعد لحظة:

- ولكني أرى أنه من المستحيل ألا أقول كلمة في صدد الوديعة التي ردتتها، فتلك أمانة تُحند عليها، وتستحق من أجلها أن تثاب، فاذكر المكافأة التي تطلبها. اطلب المبلغ الذي تريده، ولا يهمك أن يكون جسيماً.

فأجاب جان فالجان بلطف:

- إنني أشكرك يا سيدي.

وأطرق رأسه مُفكراً، ثم قال بعد لحظة:

- انتهى كل شيء تقريباً يا سيدي، ولم يبق لي إلا شيء واحد "ثُم تمتم بصوت خافت مرتجف" الآن وقد علمت كل شيء يا سيدي، فهل تعتقد – وأنت السيد هنا – بأنه لا يجدر بي أن أحضر مرة أخرى لزيارة كوزيت.

فأجاب ماريوس ببرود:

- أظن ذلك.

فتمتم جان فالجان:

- إذاً لن أزورها مرة أخرى.

مشى إلى الباب، ووضع يده على مقبضه، وفتحه، وهم بالخروج، ثُم عاد فأغلقه فجأة، ثُم فتحه مرة أخرى وتحول إلى ماريوس، وكان شاحب اللون.. وفي عينيه بريق مُخيف، قال بصوت هادئ:

- مهلا يا سيدي.. إذا سمحت لي فإنني أحضر لرؤيتها، أؤكد لك أنني أتوق كثيراً إلى رؤيتها. ولولا ذلك ما اعترفت لك بما اعترفت

ولذهبت في سبيلي دون أن أقابلك، ولكنني أردت البقاء حيث توجد كوزيت، أردت البقاء لكي أراها دائماً، فصارحتك بالحقيقة كلها! فإذا لم يكن ثمة مانع، فإنني أحضر لرؤيتها بين وقت وآخر وأعدك بألا أطيل زيارتي. نعم يا سيدي، إنني أود أن أرى كوزيت ولو نادراً. ثُم إن انقطاعي الفجائي قد يبدو في نظرها غريباً وقد يترك في نفسها أثراً سيئاً.

فقال ماريوس:

- باستطاعتك أن تأتي لزيارتها كل مساء وستجدها في انتظارك.

- أنت طيب القلب يا سيدي.

وشيعت السعادة اليأس إلى الباب، وافترق الرجلان، وذُهل ماريوس، وفهم سر النفور الذي كان يشعر به نحو هذا الرجل كُلما قابله مع كوزيت، إذاً ففوشليفان هو جان فالجان الطريد، ولكن اكتشافه هذه الحقيقة وهو في عنفوان سعادته كان أشبه باكتشاف عقرب في وكر حمامة، وخُيل إلى الشاب بعد أن سمع اعتراف جان فالجان أنه فهم أشياء كثيرة. خيل إليه أنه فهم لماذا ذهب جان فالجان إلى المتاريس في تلك الليلة المشؤومة مع أنه لم يشترك في القتال، وتذكر كيف رآه وهو يسوق جافير إلى مصرعه كما يُساق الحيوان للذبح. لا بد أنه كانت بين الرجلين عداوة مريرة، وطبيعي أن تكون هناك عداوة بين الشرطي والمجرم الهارب من الليمان، وإذا فهذا المجرم لم يذهب إلى المتاريس

إلا لينتقم من غريمه، ومن يُدريه؟ فلعله سمع نبأ وقوعه في أسر الثوار. فكر في ذلك، وفكر طويلاً، وامتلأ ذهنه بأسئلة أخرى كثيرة. سأل نفسه: "ما هي الظروف العجيبة التي جمعت بين جان فالجان وكوزيت، بين الذئب والحمل؟ وكيف قضت كوزيت طفولتها؟ ثم فتوتها وشبابها، في كنف هذا المجرم العنيد".

في مساء اليوم التالي طرق جان فالجان الباب ففتح باسك، وحيا الزائر، وقال له:

- لقد أمرني سيدي البارون أن أستفسر منك عما إذا كنت ترغب في البقاء هنا أو الصعود إلى الطابق الأول؟

فأجاب جان فالجان:

- بل سأبقى هنا.

فذهب به الخادم إلى غرفة استقبال في الطابق الأرضي، وقدم له مقعداً. كانت غرفة مظلمة تنبعث عفونة الرطوبة من جدرانها، وقد رأى جان فالجان النار تستعر في موقدها، فأدرك أن بقاءه في الطابق الأرضي كان مُنتظراً، وأقبلت كوزيت، فلم يرها جان فالجان، ولكنه شعر بوجودها، فنهض واقفاً ورمقها بنظرة إعجاب، وكانت جميلة كالشمس المشرقة، فقالت له مؤنبة:

- ما معنى هذا يا أبي؟ أنا أعلم أنك غريب الأطوار، ولكن لم أتوقع أن

تبلغ غرابة أطوارك إلى هذا الحد. لقد قال لي ماريوس أنك ترغب في زيارتي هنا.

- هذا صحيح.

- لقد كنت أتوقع هذا الجواب، فكن على حذر، وإلا أنزلت بك أشد العقاب، ولكن لنبدأ من البداية، قبلني أولاً يا أبي.

وقدمت إليه خدها، ولكنه ظل جامداً لا يتحرك، وقالت:

- يُخيل إليَّ أن الموقف يتطور تطوراً خطيراً، لماذا أنت ناقم عليَّ، هل أسأت أليك؟ هلم معي إلى غرفة الاستقبال الأخرى في الطابق الأول.

- مستحيل.

فذهلت، وهتفت:

- ولكن لماذا؟ لماذا يقع اختيارك على أحقر غرفة في المنزل؟

- أنت تعلمين يا كوزيت.

وصمت، واستدرك على الأثر:

- أنت تعلمين يا سيدتي أنني على شيء من غرابة الأطوار.

فصاحت:

- يا سيدتي؟ هذه نغمة جديدة، فما معنى كل هذا؟

فابتسم لها جان فالجان ابتسامة كسيرة وقال:

- إنك أردت أن تكوني بارونة، وقد صرت كذلك.

- ولكني لست بارونة بالنسبة إليك يا أبي.

- لا تدعيني أباك.

- وكيف أدعوك إذا؟

- ادعيني مسيو جان فالجان، أو جان فقط.

- ألم يعد من حقي أن أدعوك أبي، ومن حقك أن تدعوني كوزيت! ماذا حدث؟ انظر في عيني إذا استطعت. بماذا أسأت إليك؟ لا بد أن في الأمر شيئاً.

- لا شيء.

- إذا ما بك؟

ولما لم يُجب، تناولت يده وضمتها إلى صدرها وتمتمت:

- ماذا يغضبك مني؟ أيغضبك أنني سعيدة؟

قال ذلك ببساطة نفذت إلى أعماق نفسه، فاصفر وجهه، وبقي لحظة لا يستطيع الكلام، وانقضت بضعة أسابيع شغلت فيها كوزيت بسعادتها وحياتها الجديدة، واحتكر فيها ماريوس كل عنايتها وحبها، وكان جان فالجان يتردد عليها كل يوم، فيقضي معها بضع دقائق ثم أخذ يُطيل البقاء، وكان يطيب له أن يراها وأن يأنس بقربها، وكانت ابتسامتها بلسماً لجراح قلبه، وكثيراً ما حدث خلال هذه الزيارات الطويلة، أن كان الخادم يأتي مراراً ليذكرها بأن الطعام قد أعد، وفي أحد الأيام، لاحظ جان فالجان عدم وجود نار في موقد الغرفة، ولكنه راح يقنع نفسه بقوله:

- أية غرابة في هذا، فنحن في شهر أبريل، وقد انقضى موسم البرد؟

وخفت كوزيت لمقابلته وهتف:

- يا إلهي، ما أشد البرد هنا!

- كلا.. كلا.. إن الجو دافئ في هذه الغرفة.

- إذاً فأنت الذي طلبت إلى باسك ألا يشعل النار في الموقد؟

فأجاب كذباً:

- نعم.

فهتفت:

- ما أغرب أطوارك يا ميسو جان!

في اليوم التالي، رأى جان فالجان النيران تستعر في الموقد، لكنه وجد المقعد الذي اعتاد الجلوس عليه موضوعاً بمقربة من النار، ففكر: "ما معنى هذا؟"

وقابلته كوزيت كالمعتاد، ولما همّ بالانصراف قالت له:

- لقد حدثني زوجي بالأمس حديثا مضحكا.

- ماذا قال؟

- قال: إن إيرادنا من الثلاثة آلاف فرنك في العام، وإيرادك من ثروتك سبعة وعشرون ألف فرنك. فهل تستطيعين الاكتفاء بالثلاثة آلاف؟ فأجبته بالإيجاب، واستفسرت منه عن السر في هذا السؤال، فأجاب «أردت فقط أن أعرف».

فلم يجب جان فالجان بكلمة، ولعل كوزيت كانت تنتظر منه إيضاحاً. بيد أنه أصغى إليها في سكون، وانصرف إلى بيته وهو مُكتئب حزين، وكان من الواضح أن ماريوس داخلته الريبة في مصدر الستمائة ألف فرنك، ولعله ظن أنها جُمعت بوسائل غير مشروعة، أو اكتشف أن جان فالجان هو صاحبها، فنفر منها، وآثر أن تعيش كوزيت في فقر، على أن تنعم بثروة مشكوك في أمرها، وبدأ جان فالجان يشعر بأنه أصبح غير مرغوب فيه، وبأنه لما ذهب لزيارة كوزيت، لم يجد في الغرفة مقاعد

على الإطلاق، ووجدته كوزيت واقفاً في انتظارها، فصاحت:

- يا إلهي، أين المقاعد؟

- لقد قلت لباسك إنني لا أريد الجلوس، لأن زيارتي الليلة قصيرة.

- يا إلهي! ما أغرب أطوارك!

فغمغم بصوت لم تسمعه:

- وداعاً.

وانصرف محطماً كسير القلب لأنه فهم، ولم يذهب لزيارتها في اليوم التالي، فانزعجت كوزيت وقالت:

- إن مسيو جان لم يحضر الليلة.

لكن ماريوس طمأنها بقبلة، وانقضى يومان ولم يأت جان فالجان لزيارتها. فأرسلت وصيفتها للاستفسار عنه، وعادت الوصيفة تقول أنه يبلغها تحيته، وأن بعض الشؤون أقعدته عن زيارتها، ولكنه سيزورها في فرصة قريبة، على أنه لم ينقطع يوماً عن الذهاب إلى شارع كالفير، إذ كان يطوف بالبيت مراراً، ولا يرفع عينيه عن نافذة كوزيت، ثُم ما لبثت صحته أن اعتلت فحُرم من النعم الأخيرة، نعمة الطواف ببيتها، والتطلع إلى نافذتها، وأراد الخروج في أحد الأيام، فعجز لضعفه، وانتهت رحلته عند باب منزله، فقضى بضع دقائق جالساً على المقعد الخشبي، ثم عاد

أدراجه إلى غرفته، وهذه كانت رحلته الأخيرة، وفي اليوم التالي لم يبرح غُرفته، وفي اليوم الثالث لم يبرح فراشه، وكانت زوجة البواب تُعد له الطعام فأدهشها في أحد الأيام أن تجد الطعام كما وضعته، فهتفت:

- ماذا دهاك يا سيدي المسكين، إنك لم تتناول أمس شيئاً من الطعام؟

- بل تناولت.

- إن آنية الطعام ملأى كما وضعتها.

- انظري إلى آنية الماء، إنها فارغة.

- ذلك معناه أنك شربت، ولكن ليس معناه أنك أكلت.

- هي أنني لم أشعر بغير الجوع إلى الماء.

- ذلك يكون ظمأ، وإذا الإنسان لم يأكل فتكون حمى.

وانقضى أسبوع لم يبرح جان فالجان غرفته؛ فقالت زوجة البواب تحدثها زوجها، وذات يوم لم يقو جان فالجان على الجلوس في فراشه، ولوحظ أنه هزل وضعف، ولكنه مع ذلك بذل جهداً عنيفاً حتى استطاع مغادرة الفراش. ثم تناول ثياب كوزيت وبسطها أمامه، ووضع الشموع في شمعداني الأسقف، وأضاءهما، على رغم أن الغرفة كانت تسبح في أشعة الشمس، وكان في كل خطواته يستند إلى إحدى قطع الأثاث، وانتهى به الطواف أمام المرآة التي عكست رسالة كوزيت، فتهالك على مقعد

هناك، ونظر إلى المرآة ولم يعرف نفسه، ورأى على جبينه شيئاً آخر غير تجعدات الشيخوخة، راى عليه طابع الموت، وقضى في جلسته أمام المرآة زمناً طويلاً. ثُم نهض واقفاً، وأخذ يجر نفسه جراً حتى وصل إلى طاولة الكتابة، وهناك أغمى عليه، ولما أفاق من إغمائه شعر بظمأ شديد، ولكنه لم يستطع رفع الآنية إلى فمه، فأحنى رأسه فوقها، وبلل شفتيه بمائها، ثُم حول يده نحو الفراش، ونظر طويلاً إلى ثياب كوزيت، ذلك الكنز العزيز المحبوب، وفجأة، مرت بجسده رعدة قوية، وشعر ببرد شديد. فغمغم وهو يترنج في مكانه:

- يا إلهي! انتهى كل شيء، ولن أراها مرة أخرى.

وفي هذه اللحظة سمع طرقاً على الباب.

الفصل الثاني عشر

الحقيقة

في ذلك المساء، كان ماريوس يهم بالخروج من قاعة الطعام حين قدم له باسك رسالة وهو يقول:

- إن صاحب هذه الرسالة ينتظر في قاعة الاستقبال.

ففض ماريوس الرسالة وقرأ ما يلي: «سيدي البارون.. كاتب هذه الرسالة يعرف سراً يهمك، وهو على استعداد لأن يضع معلوماته في تصرفك».

دُهش ماريوس، وأعاد تلاوة هذه الرسالة، ثُم تذكر أنه سمع هذا الاسم قبل الآن. ولكن أين؟ أين؟ نعم إنه سمعه في غرفة جوندريت. إنه اسم جوندريت نفسه. ولكن ما نوع السر الذي يعرفه هذا الشقي؟ وعلى الرغم من عناية تيناردييه بتغيير زيه وملامحه، فقد عرفه ماريوس حالما وقع بصره عليه.

حياه ببرودة، وقال له دون أن يدعوه إلى الجلوس:

- ماذا تريد؟

فأجاب تيناردييه:

- هل تفضل سيدي البارون وقرأ رسالتي؟

- نعم، ولكنها تحتاج إلى إيضاح.

- إنني أعرف سراً وأريد أن أبيعه.

- وهل يهمني أن أعرف ذلك السر؟

- أظن ذلك.

- تكلم إذاً.

- إن سيدي البارون يؤوي في منزله لصاً وقاتلاً.

فدهش ماريوس وهتف:

- في منزلي!

فارتسمت على وجه تيناردييه ابتسامة عريضة وقال:

- نعم يا سيدي، في منزلك، وإني لا أتكلم عن أشياء قديمة طوتها الأيام، وإنما أتكلم عن حقائق حديثة لا يزال رجال العدالة يجهلونها. يا سيدي البارون، إن الرجل الذي أعنيه قد اكتسب ثقتك وتسلل إلى كنف أسرتك تحت اسم مستعار، وقد رأيته معك ومع عروسك في

مركبتك في حفلة الزفاف. سأذكر لك الآن اسمه الحقيقي وأذكره مجاناً وبلا ثمن.

- تكلم.

- إنه يُدعى جان فالجان.

- أعلم ذلك.

- وسأكشف لك عن حقيقة أمره مجاناً كذلك، إنه سجين سابق.

- أعلم ذلك.

فدهش تيناردييه، ولكنه لم ييأس، وقال:

- ذلك دليل على أنني أستقي المعلومات من مصادرها، والآن يبقى السر الذي لا يعرفه سواي، وهو سر خطير من شأنه أن يؤثر في مركز سيدتي البارونة، ولكنني سأبيعك هذا السر لقاء أربعين ألف فرنكا فقط.

فقال ماريوس ببرودة:

- إنني أعرف هذا السر أيضاً.

فذعر تيناردييه وهتف:

- يا إلهي! هل معنى ذلك أنني لن أتعشى الليلة؟ إن السر عجيب جداً يا سيدي وسأذكره لك.. أعطني عشرين فرنكا.

فنظر إليه ماريوس بإمعان وقال:

- إنني أعرف سرك الخطير أيضاً، ألا تريد أن تقول أن جان فالجان لص لأنه سرق أموال رجل من أصحاب المصانع يدعى الأب مادلين؟ وأنه قاتل لأنه قتل المفتش جافير.

نظر إليه تيناردييه في دهشة، وقال:

- إنني لا أفهمك يا سيدي البارون. سأذكر لك الحقائق بالتفصيل؛ فأصغ إليَّ.. حدث منذ بضعة أعوام أن رجلا في «بادو كاليه» ارتكب جريمة سرقة، فأرسل إلى السجن، وقضى مدة العقوبة، ولكنه سلك سواء السبيل بعد ذلك، وأطلق على نفسه اسم الأب مادلين، وأنشأ مصنعاً، وجلب الرخاء إلى مدينة برمتها، ثُم عُين عمدة لتلك المدينة، واتفق أن سجيناً آخر وقف على سر للأب مادلين يوقعه تحت طائلة العذاب، فوشى به، وانتهز فرصة إلقاء القبض عليه، وذهب لباريس وسحب من بنك لافيت وبتوقيع مزور جميع أموال الأب مادلين، وهي تربو على نصف مليون فرنك. تلك هي الحقائق التي وقفت عليها من صراف البنك نفسه. أما السجين الذي سرق الأب مادلين فهو جان فالجان. وأما جريمته قتل المفتش جافير، فإنها وقعت تحت سمعي وبصري وفي ظروف أعرفها كما لا يعرفها سواي. أليس هذا هو سرك الخطير؟

- إن الحق حق يا سيدي، وأنا لا أحب أن تصب التهم على الناس جُزافاً. فجان فالجان لم يسرق الأب مادلين، وجان فالجان لم يقتل المفتش جافير وذلك لسببين.

- ما هما؟ تكلم.

- إنه أولاً لم يسرق الأب مادلين، لأن جان فالجان هو الأب مادلين.

- ما هذا الجنون؟

- وهو ثانياً لم يقتل المفتش جافير، لأن المفتش جافير انتحر.

- أتسخر مني أيها الوغد؟

- صبراً، صبراً يا سيدي البارون. خذ واقرأ.

وقدم له صفحة من جريدة قديمة، وأخرى من جريدة جديدة، فقرأ ماريوس في الأولى النبأ الذي أذاعته الصحف عقب اعتقال جان فالجان في باريس، وقرأ في الثانية نبأ العثور على جثة المُفتش جافير في نهر السين، ودهش ماريوس وغمغم:

- إذاً فالرجل لم يقتل ولم يسرق!

- بل قتل وسرق يا سيدي، فأصغ إليَّ.

وقص عليه كيف فاجأ جان فالجان في سراديب المجاري حاملاً جثة شاب قتله وسرق نقوده، فصاح ماريوس وقد بدأت تنبلج له الحقيقة:

- أتذكر متى حدث ذلك؟

فأجاب تيناردييه:

- طبعاً أذكر ذلك ولا أنساه. لقد ارتكب جان فالجان جريمة في ليلة الثورة.

فصاح ماريوس وهو ينهض:

- إنني الشاب الذي قتله جان فالجان، قبحك الله من وغد يتجر بأسرار الناس. إنك أنت القاتل وأنت اللص يا تيناردييه، أو يا جوندريت، ولقد رأيت بعيني رأسي كيف نصبت بغرفتك شركا لسرقة جان فالجان.

قال ذلك بلهجة تنم عن الغضب، ولكن قلبه كان مُفعماً بالشكر والامتنان، واستطرد قائلاً:

- قلت إنك لا تملك ثمن عشائك؟ خذ، واغرب عن وجهي أيها النذل.

وألقى إليه بورقة من ذوات المائة فرنك فاختطفها ولاذ بالفرار،

وأسرع ماريوس إلى غرفة كوزيت، وصاح وهو يلهث:

- كوزيت.. كوزيت.. هلمي بنا.. وأنت يا باسك، مر بإعداد المركبة، إنه الذي أنقذ حياتي يا كوزيت. فلنذهب إليه. لنذهب في الحال!

فلم تفهم كوزيت كلمة من هذا الهذيان، ولكنها أطاعته، وصاح ماريوس بالسائق:

- هلم بنا إلى شارع لوم آرميه.

فانبسطت أسارير كوزيت قائلة:

- أتذهب لزيارة مسيو جان؟

- لزيارة أبيك يا كوزيت، إنه أبوكِ، لقد عرفت الحقيقة.

طرق ماريوس الباب، فسمع صوتاً يهمس:

- ادخل.

ففتح الباب، ووثبت كوزيت إلى الداخل، وهتف جان فالجان:

- كوزيت!

بسط يديه المُرتجفتين، فألقت كوزيت بنفسها فوق صدره، وهي تصيح:

- أبيّ

وغمغم الشيخ:

- كوزيت، كوزيت، أهذه أنت؟ يا إلهي.

تقدم ماريوس، وهو يطرق برأسه، والدموع تنهمر من عينيه، وتمتم:

- أبيّ!

ذفقال جان فالجان:

- وأنت أيضاً؟ هل صفحت عني؟ شكراً لك.

فصمت ماريوس ولم يقو على الكلام، وخلعت كوزيت قبعتها ومعطفها، وجلست على ركبتي جان فالجان، ورفعت خصلة الشعر عن جبينه وقبلته، فقال بصوت مُرتجف:

- ما أشد غباء الإنسان، لقد كنت أقول لنفسي في التو واللحظة إنني لن أراها بعد الآن، ولكني أغفلت إرادة الله، وهأنذا أرى كوزيت مرة أخرى.

التفت إلى ماريوس وقال:

- هل تسمح لي أن أدعوها كوزيت؟ سيكون ذلك لمدة قصيرة فقط.

فقالت كوزيت:

- ما أقسى قلبك يا أبي! لماذا أمسكت عن زيارتنا كل هذا الوقت. انظر

يا ماريوس، إن يده باردة، إنه كان مريضاً، وكتم عنا نبأ مرضه.

قال جان فالجان مردداً:

- **إذاً قد صفحت عني يا مسيو مونمارنسي.. شكرا لك.**

عندئذ تعذر على ماريوس أن يضبط العاطفة التي تعصف في أعماقه فصاح:

- **هل سمعت يا كوزيت؟ إنه يشكرني. فهل تعلمين أنه أنقذ حياتي. بل فعل أكثر من ذلك، إنه تنازل عنك لي بعد أن أنقذ حياتي. ضحى بسعادته في سبيل سعادتنا، وها هو الآن يشكرني، إن لهذا الرجل كل حسنات الملائكة! يا كوزيت.**

فقال جان فالجان في همس:

- **كفى! كفىّ.**

- **لماذا لم تحدثني بكل شيء؟ لماذا لم تقل لي أنك الأب مادلين، وأنك أخليت سبيل جافير. لماذا لم تقل لي أنك أنقذت حياتي؟!**

- **لأنني رأيت مثلك أنه من الضروري أن أترككما، ولو صارحتك بحادث السرداب لأبيت عليَّ الرحيل، لذلك فضلت السكوت.**

- **هل تظن أنك ستبقى الآن؟ إنك ستعود معنا! يا إلهي! كُلما فكرت في أنني لم أعرف الحقيقة إلا مُصادفة. إنك لن تقضي يوماً آخر في هذا المنزل المُخيف، فلا تتوهم أنك ستكون هنا غداً.**

فأجاب جان فالجان:

- غداً لن أكون في بيتكما.

- ماذا تعني؟ كلا. كلا. إننا لن نسمح لك بالسفر، ولن نفترق بعد اليوم.

فقالت كوزيت:

- إن المركبة في انتظارنا بالباب، وفي نيتنا أن نلجأ إلى القوة إذا قضت الضرورة!

ضحكت وتظاهرت بأنها تهم بحمل الشيخ واستطردت:

- إن الغرفة التي أعددناها لك في بيتنا ما تزال في انتظارك، فتعال معنا، ولننس «سيدتي البارونة» و«مسيو جان» ولأكن كوزيت، ولتكن أبي.

استمع جان فالجان لصوتها وكأنه موسيقى أكثر مما وعى معنى كلامها وانحدرت من عينه دمعة وغمغم:

- ليس أدل على كرم الله من وجودها هنا هذه الساعة.

ثم استطرد بصوت مُرتفع:

- جميل أن أقيم معكما، وجميل أن أرى كوزيت في كل وقت وأن أدعوها ابنتي، وتدعوني أباها، ولكن...

أحاطت يده بيدها قائلة:

- ولكن ماذا؟ إن يدك تزداد برودة، فهل أنت مريض؟!

- أنا ؟كلا.. ليس بي من شيء وفقط.

وكف عن الكلام مرة أخرى، فسألته:

- فقط ماذا؟!

- فقط سأموت في الحال.

فذعر الشابان وهتف ماريوس:

- تموت؟!

- نعم، ولكن ذلك لا قيمة له.

ابتسم واستطرد:

- كنت تتحدثين إليَّ يا كوزيت فامضي بحديثك كي أسمع صوتك.

فاشتد ذعر ماريوس، وصرخت كوزيت في فزع:

- أبي أبي إنك ستعيش! لا بد أن تعيش

فرفع جان فالجان رأسه وقال:

- ليتني أستطيع أن أطيعك، إنني كنت في طريق الموت عندما دخلت.

فهتف ماريوس:

- إنك ما زلت في عنفوان الحياة. أتحسب أن الإنسان يموت هكذا؟ إنك عرفت الأحزان، ولكنك لن تعرفها بعد اليوم، هأنذا أركع تحت

قدميك وأسألك الصفح والمغفرة، فهل تأتي الآن معنا؟

فأجاب جان فالجان وهو ما يزال يبتسم:

- هل يُجديني ذلك؟ كل شيء قد انتهى.

فدفنت كوزيت وجهها في صدره، وانفجرت باكية. ولكنه تناول طرف ثوبها، وقبله، والتفت إلى ماريوس وقال:

- لقد آلمني أن تمتنع عن مال زوجتك يا مسيو بونمرسي، إنه مالها، وقد آل إليها من صناعة الخزف والحلى الزجاجية، هل أدلك كيف تُصنع هذه الحلي؟

وكان صوته يزداد خفوتاً، واضطربت أنفاسه وثقلت أجفانه، فتعاون ماريوس وكوزيت على نقله إلى فراشه.

قال وهو يلهث:

- شكراً لكما، لقد كنت واثقاً من أنك تحبينني يا كوزيت. إنني أترك لك هذين الشمعدانين. إنهما من الفضة ولكنهما كانا بالنسبة إليَّ أثمن من الذهب وأثمن من الماس، لا تنسيا يا ولدي أنني رجل فقير. فلتوضع جثتي في قبور الفقراء، ولا أريد أن يُنقش اسمي على قبري. هل ترين هذا الثوب الأسود الصغير يا كوزيت؟ هل تعرفينه، إنه كان ثوبك مُنذ عشرة أعوام فقط. فما أسرع مرور الأيام! أتذكرين قرية بولانجيه يا كوزيت؟ هناك قابلتك للمرة الأولى، وكنت خائفة مذعورة، وهناك تناولت آنية الماء من يدك، ثُم أتذكرين الدمية الكبيرة؟ كانت مدام

تيناردييه شديدة القسوة عليك، ولكن يجب على الإنسان أن يتعلم الصفح، أظن أن الوقت قد حان لأذكر لك اسم أمك يا كوزيت، إنها تدعى فانتين، فتذكري هذا الاسم. واجثي على ركبتيك كُلما ذكرته، فهو اسم امرأة قاست كثيراً، وأحببتك كثيراً، وعرفت من معاني الشقاء بقدر ما عرفت أنت من معاني السعادة. وهكذا يوزع الله النعيم والشقاء، إنني أموت سعيداً، فاقتربا، لأضع يدي على رأسيكما العزيزين.

فركعا حوله، والعبرات تخنقهما، ووضع جان فالجان يديه على رأسيهما، ولم تتحرك يديه بعد ذلك.

الفهرس